

# الأقدام العارية





# الاقدام العارئة

## **الشبوعيون المصريون :**

ه سنوات في السجون ومعسكرات التعذيب

ظاهر عباء الحكيم

حقوق الطبع باللغة العربية  
محفوظة لدار ابن خلدون

كورنيش المزرعة — بناية ريفيرا سنتر — الهاتف  
٣١٢٣٣٥ ص. ب: ١١٩٢٠٨ بيروت لبنان

وحقوق الترجمة والطبع باللغات الاجنبية  
محفوظة للمؤلف بالاتفاق مع الدار

الطبعة الثانية

١٩٧٨

# الاشهاد

الى موكب الشهداء الذين سقطوا في النضال  
من اجل الديمقراطية للطبقة العاملة وللجماهير  
الشعبية في مصر :  
الى ذكرى :

محمد عثمان

فريد حداد

رشدي خليل

شعبان حافظ

لويس اسحق

وكل من سار تحت رايتهم .



# مقدمة

## قصة هذا الكتاب !

قبل الدخول اليه لا بد من جواب عن سؤالين :  
كيف كتب ؟  
ولماذا تأخر صدوره اثني عشر عاما بعد كتابته ؟

\*\*\*

كان الكاتب عضوا في اللجنة الحزبية القيادية لعنبر المعتقلين الشيوعيين الذين تم ترحيلهم من معسكر التعذيب في سجن « اوردى ابو زعل » الى سجن الواحات الخارجة ، وكانت المسؤولية المكلف بها هي توجيه الدعاية خارج اسوار السجن الى الراي العام المحلي والعربي والعالمى لشرح الاوضاع القاسية التي كان يعيشها المعتقلون السياسيون في السجون والمعتقلات المصرية ، ولتعبئة أقصى دعم ممكن من الراي العام لنضال هؤلاء المعتقلين ضد الموت الجسدي والمعنوي الذي كان مفروضا عليهم .

كانت مادة هذه الدعاية الموجهة للخارج تتنوع .. كانت هناك احيانا رسائل وتقارير تشرح الظروف العامة في السجن ، و احيانا كانت هذه الرسائل والتقارير تتناول جوانب المعاناة داخل السجن كلا على حدة : سوء التغذية .. الحرمان من الرعاية الصحية وافتقار الادوية .. حوادث التعذيب الفردي او الجماعي .. الضغوط من اجل التصفية السياسية .. سوء معاملة اهالي المعتقلين والسجناء في الخارج .. كما كانت تتناول موقف السجناء والمعتقلين من بعض التطورات السياسية او بعض التصريحات الرسمية ، وخاصة ما يتعلق منها بقضية المعتقلين السياسيين الخ .. بل كانت هناك رسائل وتقارير تسجل موقف بعض رجال الثقافة والفكر

المعتقلين من بعض القضايا الثقافية المطروحة للنقاش في الخارج .

كانت هناك بيانات ونداءات حزبية .. وكانت هناك نداءات وبيانات من الفئات المختلفة من المعتقلين والسجناء كل فئة على حدة .. العمال .. الفلاحون .. الطلاب .. المدرسون .. الصحفيون .. الاطباء .. المهندسون .. المحامون .. اعضاء مجلس السلام القومي .. وكانت تلك النداءات والبيانات توجه اما الى النقابات والهيئات المحلية والعالمية ، واما الى الصحف ، او الى الشخصيات وزملاء المهنة في الخارج ، او الى لجنة حقوق الانسان ومنظمة العفو الدولي .

كان توجيه مثل هذه الدعاية يتطلب التدقيق في كل واقعة والسمي للالمام بكل ما يتعلق بها ، كانت مسئولية تتطلب الاستماع بكل انتباه لكل رواية تروى .. وقائع وانطباعات وانفعالات .. ثم الاستماع اليها مرة ثانية وثالثة .. ثم الاستماع اليها من اخرين عايشوها .. كانت تتطلب تكليف بعض الرفاق بأن يملوا او يكتبوا هم شخصيا ما تعرضوا له خاصة اذا كان ما عانوه شيئا لا يمس الجسد وحسب ، بل ويمتد الى وجدانهم وضميرهم ..

والكتابة في السجن او المعتقل ، حيث كانت حيازة قلم او ورقة جريمة الجرائم في نظر ادارة السجن او المعتقل .. الكتابة في السجن لم تكن عملا سهلا ..

وتكفي هذه الصورة لتبين كم كانت الكتابة عملية معقدة وشاقة .. في حوالي الخامسة مساء كان يجري « التمام » على المعتقلين والسجناء ، بمعنى عددهم واحدا واحدا في الزنازين ، ثم اغلاقها عليهم ، ثم اغلاق باب العنبر ، وفيما بين السادسة مساء ، حيث تكون عملية « التمام » قد انتهت ، والساعة السابعة والنصف يتناول المعتقلون وجبة العشاء التي استلموها قبيل « التمام » . وبعد قليل يخرج الشاي والسكر من المخابئ ، وبعد الشاي على « التوتو » وهو موقد بدائي من ابتكار السجناء والمعتقلين الشيوعيين يعمل بالزيت الذي يمكن استخلاصه من اوعية الطعام ، وفيما بعد كان يعمل بالمازوت الذي يشتري خلصة من فرن السجن ، ومفروض ان اشغال « التوتو » واعداد الشاي عملية تتم في سرية .

في الساعة الثامنة مفروض ان يطفأ النور في كل العنبر بواسطة الحراس من خارج الزنازين . ولكن بعضنا ممن له خبرة في الكهرباء كان



يتحايل على الاسلاك بحيث يبقى في وسعنا اضاءة الزنزانة بارادتنا من الداخل ، وفي بعض الاحيان كان ذلك يتم بواسطة لمبة كهربية صغيرة مخبأة لهذا الغرض . على أي الاحوال كان يجب تمليق البطاطين على نافذة الزنزانة الضيقة والعالية ، وعلى باب الزنزانة بحجة الحماية من البرد ، على ان يتولى ثلاثة من سكان الزنزانة مهمة الحراسة :

واحد يراقب الممر الرئيسي للصنبر من الباب حتى لا يتلصص علينا احد الحراس ، والاثنان الاخران واحد منهما يعتلي كتف الاخر من حين لآخر ليلقي نظرة على الفناء الخارجي . . فكثيرا ما كان بعض ضباط السجن ، وهم يعملون في نفس الوقت لحساب ادارة المباحث العامة يتسلقون سلما متحركا لمراقبة الزنازين من نوافدها . . واجيانا كانوا يقومون بفتح الصنبر والزنازين ليلا للقيام بتفتيش مفاجيء . ولدى اي حركة مفاجئة كان كل شيء يخفى تحت الثياب ، ويتظاهر الجميع بالنوم . وكان « التعامل الودي » مع الحراس ينقلنا مرات كثيرة عندما يتم تفتيش مفاجيء من هذا النوع اما في شكل تحذير مبكر من جانب الحراس ، واما في شكل التفاوض عما تحسسه يد الحارس من محظورات تحت الثياب وهو يفتش الواحد منا .

بعد العشاء والشاي كان القلم والورقة يخرجان من مخابء خاصة، ثم يقبل « جردل » الماء في ركن من الزنزانة ليستخدم منضدة ، وتجري عملية الكتابة ، التي كانت كثيرا ما تنقطع بسبب التحذيرات من اقتراب الحرس ، او لوجود تحرك مريب في الفناء الخارجي حول الصنبر . . كانت كلمة التحذير المتداولة في كل السجون والمعتقلات تقريبا هي كلمة « بلوهم » ، وحينما كان التحذير يعني ان هناك خطر مدهامة حقيقية فكات عبارة « شد البلوهم » هي التي تستخدم .

كان ذلك في المرحلة التي كان الارهاب والمعاملة التعسفية لا يزالان هما الطابع العام للوضع داخل سجن الواحات الخارجة ، اما فيما بعد الاضراب الكبير عن الطعام في يوليو ( تموز ) ١٩٦١ ، فقد تمكنا من انتزاع كثير من الحقوق ، وتحطيم كثير من القيود منها بقاء ابواب الزنازين مفتوحة طوال الليل وبقاء الاضاءة حتى الصباح .

ولم تكن مشكلة الكتابة حينذاك هي الحذر من تجسس ادارة السجن ، ولكنها كانت الرفاق انفسهم ، فلئن كانوا فيما سبق يتحملون السهر ،

والحراسة ، والترقب ، لتسهيل انجاز مهمة حزبية ، فانهم الان يريدون ان يناموا ملاء اجفانهم طالما هناك مكان اخر يمكن المنجباة فيه دون ازعاج احد .. وكان هذا المكان الاخر هو « دورة المياه » ، في دهليز صفيير امام الحمامات والمراحيض ..

\*\*\*

ان مجموعة التقارير والرسائل والبيانات والنداءات الموجهة السى الخارج هي التي اوحى بفكرة وضع هذا الكتاب . كان المقصود اصلا هو تسجيل كل شيء في كتيب واحد يضم مادة وافية لاية حملة سياسية للدفاع عن السجناء والمعتقلين السياسيين ، ويوضع هذا الكتيب في يد رفاقنا في الخارج وفي يد اية قوى ديموقراطية صديقة في العالم .

ولكن لان المرء كان قد عاش التجربة بكل ابعادها : حوالى خمسة شهور هروبا من رجال المباحث العامة وملاحقاتهم الهستيرية في الريف والمدينة .. في العاصمة وفي اقصى الصعيد ، وفي الدلتا .. وبعد ذلك معتقل القلعة ، والفيوم ، ومعسكر التعذيب في « اوردى ابو زعل » ثم سجن الواحات الخارجة ، فان كل الابعاد السياسية والفكرية والتاريخية والنفسية لهذه الفترة كانت تلح بقوة .. وبدلا من كتيب يسجل الوقائع كان هذا الكتاب .. الجانب الاكبر منه كتب في مرحلة الارهاب ، والجانب الاخير كتب في مرحلة الانفراج النسبي ..

كانت هناك مجموعة من الرفاق الشباب يتلقفون كل فصل تتم كتابته ليتولوا اعادة كتابته على ورق لف السجائر بخط دقيق للغاية .. نسختان معدتان لتهربا الى خارج السجن ، ونسختان للاحتفاظ بهما في « الارشيف المركزي » داخل السجن ، والذي اعدت له مخابىء مأمونة للغاية .. وحينما سطرت اخر كلمات في الكتاب ، تولت مجموعة اخرى نسخه واعداده ، وتولى احد الرفاق الفنانين رسم الغلاف له . ووضع للتداول بين الرفاق كجزء من عملية التعبئة والتحصين ضد محاولات التصفية السياسية .. ثم هربت هذه النسخة الى خارج السجن ، وبقيت مدفونة في مخبأ امين حتى تم الافراج عنا في مايو ( ايار ) ١٩٦٤ ..

هذه النسخة الخطية محفوظة الان بعناية كوثيقة تاريخية ، وهي التي تم على اساسها طبع هذا الكتاب .

\*\*\*

اما لماذا تأخر صدور هذا الكتاب اثني عشر عاما بعد كتابته فتلك

## قصة معقدة ..

ففي اغسطس ( اب ) ١٩٦٥ اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري قرارا بحل الحزب ، وكانت قد بدأت تمهد لهذا القرار بالترويج لما اسمته ضرورة « وحدة القوى الاشتراكية » وكان المفهوم من ذلك هو وحدة الشيوعيين مع « اشتراكيي الاتحاد الاشتراكي العربي » ، ثم دعت السى اجتماع موسع من الكوادر القيادية في الحزب للتصديق على هذا القرار . البعض حضر ذلك الاجتماع ووافق على قرار اللجنة المركزية ، والبعض حضر وسجل للتاريخ اعتراضه على ذلك القرار ، ثم انصرف الى منزله مرتاح الضمير ، والبعض رفض حضور الاجتماع مفضلا عدم الافصاح عن موقفه ، وهناك قلة لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة رفضوا حضور الاجتماع مبلمين اللجنة المركزية انها بقرارها ذاك تكون قد نفت عن نفسها صفة الشيوعية ، ولم يعد من حقها الدعوة لاي اجتماع حزبي ، وان ذلك الاجتماع الموسع الذي دعت اليه هو اجتماع معاد لشعبنا وللطبقة العاملة وللوطن ، وان حل الحزب جريمة لن يفرها لهم التاريخ خاصة حينما تأتي لحظات حرجة يتطلع فيها شعبنا بحثا عن قيادة ثورية فلا يجدها - كما حدث في ١٠ ، ٩ يونيو ( حزيران ) ١٩٦٧ - .

وكان الكاتب واحدا من هذه القلة .. ولقد كان ثمن ذلك الموقف باهظا فيما بعد ..

ولكن من حسن الحظ ان الكاتب استطاع ان ينتزع المخطوط الاصيلي للكتاب من ايدي اللجنة المركزية قبل ان تتخذ قرارها المدان ، والا لكان مصير الكتاب مثل مصير الحزب .. وبعد قرار حل الحزب بقي الكتاب بلا هيئة سياسية تبناه ، وتقرر شيئا بصدده ، وظل ذلك مسؤولية الكاتب وحده ..

لم يكن من الممكن نشر الكتاب في مصر ، فكل دور انشر اما حكومية او تحت اشراف حكومي .. وكان نشر الكتاب خارج مصر مخاطرة كبيرة ، ليس من زاوية النتائج التي يمكن ان تترتب على ذلك ، والموقف الذي يمكن ان تتخذه السلطات من الكاتب ، ولكن من زاوية ان الدين كان مفروضا ان يقفوا الى جانب الكتاب للدفاع عن الكاتب في اية محاكمة له في مصر ، كان من المحتمل جدا ان يقفوا ضده الى جانب السلطة تمشيا مع منطق نظريتهم عن الوحدة مع القوى الاشتراكية .

وكان قرار الكاتب هو الاحتفاظ بالكتاب للتاريخ ، والاكتفاء بتداوله سرا بين اولئك الذين يريدون رغبة في الاطلاع على ما حدث في تلك الفترة ما بين يناير ( كانون اول ) ١٩٥٩ ومايو ( ايار ) ١٩٦٤ .

ثم جاء عدوان ١٩٦٧ وما تلاه ليلقي على القوى الوطنية الديمقراطية الفتية في مصر مهام اخرى لم يكن من بينها على اي حال محاكمة النظام على ما اصاب الشيوعيين والديموقراطيين على يديه في تلك الفترة ..

\*\*\*

ولقد امكن للمخطوط الاصيلي ان يخرج من مصر منذ اكثر من ثلاث سنوات ، وقراء عديدون ، وبعد فراغهم من قراءته كان اول ما ينصحون به هو سرعة نشره ، بل والحق البعض على ان يأذن لهم الكاتب بعمل بعض نسخ من الكتاب لتداوله بين اعداد اكبر ..

ولكن كانت للكاتب وجهة نظر اخرى .. فلقد كان يشم في اتجاه الحركة السياسية الرسمية في مصر رائحة حملة تعدد ضد عبدالناصر وعهده ، تبريرا لعملية ارتداد واسعة عن كل ما انجز في فترة حكمه .. ولم يكن يريد لهذا الكتاب ان يستخدم وقودا لتلك الحملة المفرضة . وفي مطلع عام ١٩٧٤ بلغت الحملة ضد عبد الناصر وعهده اولى قممها .. وكان من بين القضايا التي تناولتها تلك الحملة عمليات التعذيب التي مورست في السجون والمعتقلات .. وبدأ بعض الكتاب اليمينيين ، والمصروفين بتاريخهم في التعاون مع اكثر الفئات تخلفا ورجعية في بلادنا ، بدأ هؤلاء الكتاب يسرقون تاريخ الشيوعيين ، وينصبون انفسهم مؤرخين لما اصاب الشيوعيين من اضطهاد وتنكيل ..

كذلك فان بعض الكتاب الوطنيين قد بدأ يتناولون ما اصاب الشيوعيين في تلك الفترة دون ان يكون لديهم المام كامل بحقيقة ما حدث سوى بعض ما سمعوه .

وعند هذه النقطة كان القرار بانه لا بد من ان يصدر هذا الكتاب ..

اولا : حتى لا يتصدى اليمينيون لنضال الشيوعيين والتقدميين المصريين في السجون والمعتقلات ويقدمونه شائها مبتورا .. او يتدلوناه في اقايبص وروايات هدفها الاثارة الرخيصة وحسب ..

لانيا : حتى يوضع ادمياء الليبرالية الزائفة على المحك الحقيقي ،

ولنرى ان كانوا سيطالبون بتقديم من لا يزال حيا من المسؤولين عن الجرائم التي ارتكبت ضد الشيوعيين والتقدميين - وبينها جرائم قتل مباشر متمدد - الى المحاكمة .. واذا كانوا سيطالبون بتعويض ابناء من استشهدوا ، ومن اضر بسبب مختلف انواع التعذيب .. واخيرا، وفوق كل شيء ان كانوا سيطالبون للطبقة العاملة وطلاتها بحرية العمل السياسي والنقابي المستقل عن حزب الحكومة ، خاصة وانها وحدها رفعت راية الديمقراطية بثبات منذ حركة ٢٣ يوليو ( تموز ) ١٩٥٢ .

**ثالثا :** حتى يوضع الخلاف بيننا وبين نظام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في وضعه الصحيح ، وحتى يتميز موقف القوى الوطنية الديمقراطية المصرية في تقدها للنظام الناصري عن تلك الحملة المشبوهة التي يواصل اليمين شنها عليه باكثر من اسلوب .. وحتى يكون تقدرنا اداة نضال ضد اليمين الزاحف، الذي رغم كل عوائه عن الديمقراطية فانه يضر اشد العدا لها ، ويحتفظ في جمعته - يوم يتمكن من السيطرة النهائية - باقى اساليب البطش والقمع .

\*\*\*

لقد كان بيننا وبين النظام الناصري دم شهداء عديدين سقطوا تحت التعذيب ، ومرارة خمس سنوات من السجن والاعتقال والتعذيب والحرمان من اقل الحقوق الانسانية ، وفوق ذلك كان بيننا وبين هذا النظام ما اصاب شعبنا واصاب النضال الوطني الديمقراطي العربي كله من نكسات طوال تلك السنوات الخمس التي ساد فيها العدا للشيوعية وللديمقراطية .. ومع ذلك فان القوى الوطنية الديمقراطية في مصر هي الاقدر على ان تقدم شهادة حق عند تقييم نظام الرئيس عبد الناصر ، وهي الاقدر على ان تثمن ما تم انجازه في عهد ذلك النظام من نواحي التقدم اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، وهي الاكثر تصميميا على الدفاع عن تلك المنجزات مع التمسك بكل انتقاداتها لما فيها من سلبيات .. وهي وحدها التي تمزق القناع عن تلك الحملة اليمينية ضد عهد الرئيس عبد الناصر باسم الديمقراطية ، وان تفضح الجوهر لهذه الحملة التي يراد بها تغطية عملية الارتداد الشاملة الى اوضاع ربما ستكون اسوأ من اوضاع مصر ما قبل ١٩٥٢ ، وكشف حقيقة ادعاء الليبرالية الزائفة الذين يطالبون في الواقع بالحرية لكل قوى الاستغلال ، ولكل القوى الراقبة في المتاجرة بالاستقلال الوطني مع الامبريالية الامريكية والرجعية العربية .

كانت حركة يوليو ( تموز ) ١٩٥٢ حلقة من حلقات الثورة الوطنية الديمقراطية في مصر ، تلك الثورة التي بدأت بانتفاضة احمد عرابي ، والتي فشلت نظرا لان البرجوازية المصرية التي كانت تلك الانتفاضة تعبيرا عن افكارها كانت برجوازية ضعيفة قاعدتها الاساسية هي التجار .

وحين اشتد ساعد البرجوازية المصرية بعد الحرب العالمية الاولى ، استطاعت ان تشكل طبيعتها السياسية وهي حزب « الوفد المصري » وان تبدأ حلقة ثانية من الثورة الوطنية الديمقراطية عام ١٩١٩ ، وهي حلقة استطاعت ان تحقق استقلالا سياسيا ينتقص منه وجود لقوات الاحتلال البريطاني وامتيازات سياسية واقتصادية لبريطانيا ، ولكن البرجوازية المصرية حصلت لنفسها على نصيب في السلطة يسمح لها برعاية مصالحها الخاصة ، كما حققت نظاما نيابيا برجوازيا كانت تهدده دائما السلطات غير العادية التي اقراها دستور ١٩٢٣ للملك ومن بينها حق اقالة الوزارة وتشكيل غيرها ، وحق حل البرلمان ، وعدم سريان اي قانون يصدره البرلمان الا اذا صدق عليه الملك .

كان الاحتلال البريطاني ، وما يستتبعه من امتيازات سياسية واقتصادية لبريطانيا من ناحية ، والسلطات الاستثنائية التي يتمتع بها بقايا الاقطاع ممثلا في الملك والتي تجعل الملك فوق الدستور ، قيدا قويا على طموح البرجوازية المصرية وتطلعها لاعادة تشكيل المجتمع وفق مصالحها . ولذلك تميزت الفترة منذ صدور الدستور عام ١٩٢٣ ، حتى حركة يوليو ١٩٥٢ بنضال ليبرالي برجوازي ، تقوده البرجوازية الوطنية المصرية ، وتسمى عن طريق رفع شعارات الحريات الى تجميع اوسع قوى ممكنة حولها ، الطبقة العاملة ، والفلاحين ، والمثقفين في صراعها ضد النفوذ البريطاني وضد الاستبداد الاقطاعي ممثلا بالملك .

ومع نزوح الطبقة العاملة المصرية في الاربعينات بدأت رؤيتها الاقتصادية والسياسية تكسب قبولا متزايدا لدى اقسام واسعة من القوى الديمقراطية ، وبظهور الحركة الشيوعية المصرية من جديد ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وبتزايد الدور الذي لعبته الطبقة العاملة المصرية في النضال ضد الاستعمار البريطاني وضد الاستبداد السياسي الذي كانت تمارسه السراي ومن حولها كبار الملاك والفئات العليا من البرجوازية المصرية ، تعمق اكثر واكثر المضمون الديمقراطي لتلك المرحلة من الثورة الوطنية الديمقراطية . وقد ساعد على ذلك الدور المجيد الذي قام به

الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية ضد النازي ، وبروز معسكر اشتراكي واسع ، والمركز الممتاز الذي حققته الطبقات العاملة واحزابها الشيوعية في اوربا الغربية بفضل نضالها الصلب ضد الاحتلال النازي .

كانت الظروف ناضجة من الناحية الموضوعية لقفزة نوعية في مسار الثورة الوطنية الديمقراطية في مصر على يد جبهة وطنية ديموقراطية واسعة تقود النضال على جبهات ثلاثة هي في الواقع جبهة واحدة ، ضد الاستعمار البريطاني وقوات الاحتلال ، وضد بقايا الاقطاع والاستبداد السياسي ، وضد الفئات العليا من البرجوازية المصرية والاستثمارات الاجنبية التي تشكل كلها حلقا واحدا .

وكان لا بد من برنامج ثوري لحل المشكلة الزراعية فذلك وحده هو الذي يجذب ملايين الفلاحين ( وهم الجيش الرئيسي للثورة ) للنضال ، وهو وحده القادر على جذب الفلاحين الى حلف قوي مع الطبقة العاملة يستطيع ان يشكل القيادة لتلك المرحلة ، او على الاقل ان يشارك بقوة في قيادة تلك المرحلة وتحديد اهدافها ..

ولكن لاسباب متعددة ليس هنا مجال مناقشتها تفصيلا ، لم تستطع الطبقة العاملة ممثلة في الحركة الشيوعية المصرية ان تقدم مثل هذا البرنامج الفلاحي ، وبذلك ظلت الحركة الشيوعية بعيدة عن الريف، وظلت جماهير الفلاحين تحت السيطرة الفكرية والسياسية للبرجوازية الوطنية ولاغنياء الريف ، وهكذا لم يتشكل **الحلف العمالي - الفلاحي** الذي بدونه لا يمكن للطبقة العاملة ان تثبت مواقعها في قيادة الثورة الوطنية الديمقراطية ، ولا يمكن حماية الثورة من تردد البرجوازية الوطنية ونزوعها الدائم للمساومة وانصاف الحلول .

كذلك ادى الانقسام المريع في الحركة الشيوعية المصرية الى تشتت قوة الطبقة العاملة والمثقفين الديموقراطيين ، وعدم قدرتهم على البروز كقوة موحدة حتى في اطار النضال الليبرالي البرجوازي . ومن الناحية الثانية كان حزب الوفد - كقيادة للبرجوازية الوطنية - مثقلا بعناصر اقطاعية تحتل مراكز قيادية فيه ( وكثير من عناصر البرجوازية الوطنية المصرية هي من اصل ريفي شاركت بمدخراتها من ريع الارض في المشاريع الاقتصادية ومن ثم جمعت بين طبيعتها الاقطاعية وصفتها الجديدة كعناصر رأسمالية ) ، وقد لعبت هذه العناصر دورا كبيرا في طبع سياسات الحزب ومواقفه بالتردد والتخاذل ( كما حدث بعد حريق القاهرة في ٢٦ يناير

١٩٥٢ حينما اعلنت حكومة الحزب الاحكام العرفية بطلب من الملك ، ثم اقالها الملك في اليوم التالي وبقيت الاحكام العرفية ليستخدمها في ضرب الحركة الجماهيرية ) . كذلك لم يكن متوقعا من حزب البرجوازية الوطنية بما فيه من نفوذ لعناصر بقايا الاقطاع ، والملاك الكبار واغنياء الريف ( الاعيان ) وبما فيه من نفوذ لعناصر رأسمالية كبيرة ، ان يطرح في عصر الاشتراكية برامج تمس قدسية الملكية الخاصة ، ولذلك بقيت شعاراته في اطار جلاء القوات البريطانية وسيادة الدستور .

كانت الثورة الوطنية الديمقراطية في ازمة حقيقية بسبب قصور الطبقة العاملة وقياداتها الشيوعية المنقسمة عن القيام بدور القيادة ، وبسبب عجز حزب البرجوازية الوطنية ( الوفد ) عن قيادة النضال الوطني الديمقراطي بشكل اكثر ثباتا وصلابة . في نفس الوقت كان النظام الملكي المستند الى احزاب الاقلية التي تمثل بقايا الاقطاع وخاصة في الصعيد ( الاحرار الدستوريين ) او تمثل الفئات العليا من البرجوازية الصناعية ذات الارتباطات القوية بالاحتكارية العالمية ( السعديين ) واتجاهات سياسية تمثلها شخصيات مثل اسماعيل صدقي وعلي ماهر وغيرهما ، كان هذا النظام متفسخا وعاجزا عن ان يواجه الحركة الجماهيرية المتفجرة كما ان الحكومات العديدة التي توالى في مدى ستة اشهر من حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ الى حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت اضعف من ان تواجه القضايا الوطنية والاجتماعية المتفجرة رغم انها كانت تتسلح بالاحكام العرفية وبالمعتقلات التي ضمت اعدادا غفيرة من القيادات الشيوعية والنقابية والديموقراطية .

وجاءت حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتخرج الثورة الوطنية الديمقراطية من ازمته وتمضي بها خطوة الى الامام ولكن في اطار البرجوازية الوطنية ، ومن هنا كانت الازمة الاخرى التي عاشتها تلك الفترة من الثورة الوطنية الديمقراطية التي قادها عبد الناصر : حيث كل الظروف الموضوعية تتطلب وتضغط من اجل ان تستمر هذه الثورة حتى تكمل انجاز مهامها ، ولكن عبد الناصر اصر على ان تبقى الثورة مدى عشرين عاما في طار مفهوم فئة معينة من البرجوازية الوطنية ( التكنوقراط - او الكوادر الادارية والفنية القيادية ) واصر على مقاومة اي محاولة لدفع الثورة خارج هذا الاطار .

ومن وجهة نظر الطبقة العاملة فان الثورة الوطنية الديمقراطية



تستكمل اهدافها عندما تنجز قضية التحرر الوطني وتضفي كل الجيوب الامبريالية او الموالية للامبريالية في الداخل وتحل المشكلة الزراعية حلا ثوريا على اساس مبدأ « الارض لمن يفلحها » ، وتحرر الاقتصاد الوطني من سيطرة الاحتكارية العالمية والفئات من الرأسمالية المحلية المرتبطة بها وتشيع الديمقراطية في الحياة السياسية بحيث تتمتع الطبقة العاملة والفلاحون وكافة القوى الوطنية - بحرية العمل السياسي والنقابي والثقافي وبحيث تلعب الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي دورها التاريخي في قيادة المجتمع دون معوقات ، وبديهي ان هذه المهام لا يمكن ان ينجزها الا سلطة الجبهة الوطنية الديمقراطية التي تلعب الطبقة العاملة فيها دورا قياديا . حينئذ فقط وبعد انجاز هذه المهام يمكن الحديث عن التقدم نحو بناء الاشتراكية .

لقد حاولت حركة ٢٣ يوليو ان تقدم حولا لكل هذه القضايا ولكن من وجهة نظر قاعدتها الاجتماعية التي تشكلت من فئة المهنيين وهم احدى شرائح البرجوازية الوطنية بعد ان عمدت الى دعم وتوسيع هذه الفئة باعداد غفيرة من ضباط القوات المسلحة الذين افرزتهم لتولي مواقع قيادية ادارية وفنية في مختلف مناحي النشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي . وقد اتسعت هذه الفئة بشكل خاص بعد الاخذ بنظام التوجيه المركزي لكل المنظمات التي اخضعت للمؤسسات العامة وبعد اتساع القاعدة الصناعية في مصر وخاصة في الستينات .

فيما يتعلق بقضية التحرر الوطني انجزت حركة ٢٣ يوليو اجلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس وسارت شوطا طويلا في معاداة الامبريالية وفي الصدام مع الامبريالية الاميريكية . وفي تصفية الاستثمارات الاجنبية في مصر ، ولكنها حرصت على ان تبقي بعض الجسور بينها وبين الامبريالية العالمية سواء عن طريق العلاقات الاقتصادية مثل التي كانت قائمة مع المانيا الغربية او بالابقاء على بعض العناصر والقوى المعروفة بعلاقتها المشبوهة بالامبريالية الاميريكية .

وفيما يتعلق بالقضية الزراعية كان الاصلاح الزراعي الذي طبقته محدودا « من اصل حوالي ثلاثة ملايين فدان يملكها الاقطاعيون وكبار الملاك لم يوزع على الفلاحين المعدمين اكثر من ثلاثة ارباع مليون من الافدنة » . وبصرف النظر عن عمليات التلاعب التي كانت تتيح للاقطاعيين وكبار الملاك تهريب اراضيهم بعقود صورية الى بعض افراد اسرهم فان

الحد الأقصى من الملكية الذي يسمح للأسرة بان تحوز حوالي ثلثمائة فدان قد ابتي على طبقة كبار الملاك وفتح الباب لفئة اغنياء الريف كي تنتعش وتزيد من مساحة ملكيتها للأرض وبالتالي تزيد من نفوذها الاجتماعي والسياسي في الريف . ولكن برغم ذلك فان هذا الإصلاح الزراعي على ضيق حدوده قد هز فكرة الملكية الخاصة في الريف واخرج الفلاحين من سلبيتهم وقدرتهم وحفزهم الى التطلع لآحراز المزيد من المكاسب . كما ان بعض الإصلاحات الاجتماعية والصحية التي شهدتها الريف المصري ربطت الريف - رغم قصورها - بالعالم وبالجديد الذي يجري في هذا العالم ، وطرحت على اذهان الفلاحين قضايا جديدة غير تلك القضايا التقليدية المحدودة التي كانت محور النشاطين الفكري والوجداني .

ان الحجم الضئيل من الأرض الذي وزع على الفلاحين من ناحية ، وعدم توجيه الصناعة الثقيلة لخدمة مكنتة الزراعة من ناحية اخرى لم يسمحا بتطوير الزراعة في مصر الى زراعة تعاونية وهي شرط جوهرى لتحرير الفلاحين من سيطرة رجعية الريف ووضعهم على طريق العلاقات الاشتراكية ، كما ان الزراعة التعاونية هي احد الشروط لتوفير تراكم يسمح بتطوير الصناعة على اسس اشتراكية طبقا لمبدأ « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » .

ومع ذلك فقد شهد الريف بعض اشكال النشاط التعاوني مثل الجمعيات التعاونية الزراعية ، والتسويق التعاوني للمحاصيل ، وان كان فساد موظفي وزارتي الإصلاح الزراعي والزراعة وتحالفهم مع اغنياء الريف الذين كانوا بدورهم متحالفين مع رجال الإدارة المحليين افقد هذه الاشكال التعاونية كثيرا من مضمونها . وهكذا ورغم الإصلاح الزراعي بقيت في الريف قوة اجتماعية رجعية كانت ترتبط وتحالف بالاجنحة اليمينية من فئة التكنوقراط لافراز سياسات يمينية او لعرقلة نمو اي سياسات او قوى تقدمية .

وفي المجال الصناعي والتجاري كانت يد التكنوقراط طليقة في ممارسة علاقات انتاج رأسمالية صرفة في القطاع العام وفي تحقيق أقصى امتيازات مادية سواء بشكل مشروع او غير مشروع ولم تكن هناك اية رقابة فعلية سوى رقابة ادارة المخابرات العامة التي لم تكن تقل فسادا عن فئة المديرين والفنيين وكانت تحتفظ بما تقع عليه يدها من مخالقات لاستخدامها في صراع السلطة بين مراكز القوى المختلفة . وكان وجود

قطاع خاص كبير في مجال التجارة والمقاولات وبعض فروع الانتاج المتوسط يتيح الفرصة لصفقات غير شريفة مع المسؤولين عن القطاع العام كما يفتح بابا لكي يستثمر هؤلاء ما حققوه من ثروات بشكل غير مشروع في القطاع الخاص .

اما اشتراك العمال في مجالس ادارة المؤسسات الانتاجية فكان شيئا صوريا حيث ان الحركة النقابية وعملية اختيار ممثلي العمال لمجالس الادارات تخضع لوصاية ثلاثية من جانب الادارات وحزب الحكومة، اي الاتحاد الاشتراكي ، وادارة الباحث العامة .

رغم ذلك فان اخضاع معظم النشاط الصناعي والمصرفي واتجاري ( خاصة التجارة الخارجية للقطاع العام ) ساعد على خلق قاعدة اقتصادية وطنية قوية متحررة من سيطرة الاحتكارية العالمية ، وتشكل اساسا ماديا للاستقلال الوطني السياسي .

ان حركة ٢٣ يوليو بقيادة جمال عبد الناصر قد ادخلت مصر بقوة الى النضال الوطني العربي وربطت مصر مصيريا بالوطن العربي كله وحققت لمصر مركزا قياديا ، واتقت عليها مسؤوليات تاريخية ازاء قضية الثورة الوطنية الديموقراطية في مجموع اوطان العربي . ولكن ما كانت ترفضه حركة ٢٣ يوليو في سياستها الداخلية وهو الديموقراطية كانت ترفضه ايضا في علاقاتها بالقوى الوطنية والتقدمية العربية . وقد ادى ذلك الى كوارث ونكسات في مجمل مسيرة الثورة الوطنية الديموقراطية العربية تماما مثل ما جلبه ذلك من كوارث ونكسات في مسيرة الثورة الوطنية الديموقراطية في مصر .

ان الاصرار على احتكار القيادة واحتكار حق العمل السياسي ، رغم كل الدعاوى عن تحالف قوى الشعب العاملة ، لفئة التكنوقراط ، والانفراد من جانب قيادة هذه الفئة ، اي النظام المنصري ، بحق اصدار القرار السياسي كان من وجهة نظرها ضروريا لكي تبقى حركة الثورة الوطنية الديموقراطية اساسا في اطار المصالح الضيقة لهذه الفئة ومصالح من ابقت عليه من الفئات المالكة في الريف والمدينة ، ولكنه من وجهة نظر الضرورة التاريخية ، ومن وجهة نظر المصالح العليا للوطن والشعب ، كان تعطيل حركة الثورة ، وتعطيل القوانين الموضوعية لحركة

التاريخ ، وتعطيلا لنمو القوى القادرة على السير بالثورة حتى نهايتها .  
اضافة الى ذلك فان هذا النهج نفسه هو الذي سمح لقوى الثورة المضادة  
ان تنمو من داخل النظام نفسه وان تتحالف مع القوى الرجعية خارج  
النظام لكي يفرضوا عليه التراجع امامهم مستفيدين من العدوان الاميركي  
الصهيوني عام ١٩٦٧ والذي كان بمثابة حليف مباشر لهم ، ثم ليطيحوا  
بهذا النظام بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر وليضعوا الآن ، وبعد ان  
تزايد نفوذهم في السلطة ، برنامجا متكاملا للانتكاس بحركة الثورة  
الديموقراطية الوطنية ولتصفية ما أنجزته .

كانت قضية توفير الظروف والضمانات لاستمرار الثورة نحو  
استكمال اهدافها التاريخية هي موضوع الخلاف الرئيسي بين الشيوعيين  
المصريين وبين نظام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر . ربما لا توجد  
هناك من وثائق الحركة الشيوعية السابقة واحدة تصوغ القضية على  
هذا النحو ، ولكن النضال من أجل الديمقراطية ضد أسلوب الوصاية  
السياسية كان مظهر هذا الخلاف حول هذه القضية الجوهرية

\*\*\*

لقد كانت كارثة كبرى لشعبنا ولسيره الثورة الوطنية الديمقراطية  
في مصر وفي الوطن العربي ان الحركة الشيوعية المصرية السابقة نكست  
راية الديمقراطية التي كانت ترفعها بقوة حينما قبلت ان تحل انظمتها  
المستقلة في اغسطس ( آب ) ١٩٦٤ . فلقد كان معنى ذلك ان قوى اليمين  
داخل النظام وخارجه اصبح في وسعها ان تنشط وان تضم صفوفها  
وتدعم مواقعها داخل النظام وفي المجتمع دون مقاومة ، كما كان ذلك يعني  
ان عوامل الفساد تستطيع ان تستشري وان تسود دون رقابة او حساب  
او على الاقل دون صوت يحذر من النتائج . ان الهزيمة المروعة في يونيو  
( حزيران ) ١٩٦٧ والنكسة الحسالية التي تجري صناعتها على كل  
المستويات الوطنية والاقتصادية والاجتماعية هي دليل على ان الحركة  
الشيوعية السابقة حينما تخلت عن مسؤولياتها فانها في الواقع تكون قد  
شاركت في تسليم الوطن وتسليم شعبنا وتسليم الثورة الوطنية الديمقراطية  
لقوى الهزيمة والاستسلام والارتداد .

\*\*\*

ويبقى بعد ذلك سؤال : رغم كل مظاهر الصمود والبسالة التي واجه  
بها الشيوعيون أعمال التعذيب والتنكيل في المعتقلات والسجون ، كيف

تخلوا ببساطة عن مواقعهم وقبلوا أن يحلوا تنظيماتهم المستقلة ؟

وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال فإننا لا نريد ان نخوض في تفاصيل كثيرة ربما ليس هذا مكانها ، ولكن ينبغي الإشارة الى ان الناس وهم في السجن كانوا يخوضون معركة تحت راية مختلفة اختلافا واضحا عن راية النظام . لقد كان الناس في السجن وتحت التعذيب شيوعيين خلفهم تراث طويل من النضال في السجن والمعتقلات ، وكان اسلوب النظام في محاولة تصفية المعتقلين جسديا او معنويا اسلوبا فجا يستفز في الناس كل عوامل المقاومة . لذلك فلقد كان ضروريا لكي يتخلى الناس عن مواقعهم ان تطمس الفوارق بين رايتهم وراية النظام ، وهذا ما قامت به بجهد غير عادي قيادة الجماعة التي انقسمت عن الحزب حينما بدأت تروج لفكرة ان السلطة الناصرية سلطة على رأسها مجموعة اشتراكية وان واجب الثوريين هو الاندماج في هذه المجموعة الاشتراكية . كذلك عملت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري على انتزاع بهدوء عن مواقعها السياسية وبدأت تشد اعضاء الحزب شيئا فشيئا الى نظرة غير علمية وغير طبقية للسلطة باعتبارها سلطة ( العناصر الوطنية المستنيرة والتقدمية ) ، وبدأت تركز في بياناتها وقراراتها على الجوانب الايجابية في سياسات النظام مخفضة صوتها شيئا فشيئا عن سلبيات هذه السياسات ، كما سمحت لبعض العناصر بالترويج لافكار تحريفية مثل القول بأن التأثير المتزايد للاشتراكية على النطاق العالمي يسمح بالانتقال للاشتراكية دون حاجة لحزب مستقل للطبقة العاملة ، ثم توجهت جهودها بعد الافراج عن الشيوعيين في منتصف ١٩٦٤ بالترويج لفكرة « وحدة القوى الاشتراكية » .

ويثور سؤال جديد : ولكن كيف يقبل شيوعيون لهم في النضال باسم الشيوعية حوالي ربع قرن مثل هذه النظريات غير العلمية ، وكيف تخدعهم محاولة « تدويب الفوارق » بين راية الطبقة العاملة وراية التكنوقراط ؟ . .

ان خمس سنوات من التعذيب والحرمان والمنفى والتفسخ الداخلي وتمييع علاقات التنظيم الحزبي وروح الحزبية وسيادة اساليب الصراع اللامبدئية بين مختلف الاجنحة ، داخل السجن ، كل ذلك ولا شك كان له تأثير سلبي على نضالية اعداد كبيرة ، حينما ، يخرجون من السجن مفصولين من اعمالهم ، محرومين من مصدر للقوت ، تنتظرهم مشاكل

اجتماعية واقتصادية تراكمت طوال سنوات ، وصاحب العمل الوحيد هو الدولة ، فان هؤلاء سيقبلون بسهولة اي نظرية تعفيهم من مسؤولياتهم النضالية ، وتسهل وتبرر لهم السعي للتعاش مع النظام . قد يبدو ذلك تبسيطا للامور ، ويبقى ان نبحث عن الجواب الجوهرى فى البنية الفكرية للحركة الشيوعية المصرية السابقة ، فلقد كانت تلك البنية ضعيفة على اندوام ، ومصدر الضعف الرئيسى فيها هو ان الحركة الشيوعية السابقة لم تستخدم النظرية الماركسية اللينينية اداة لقراءة الواقع المصرى وتحديد المرحلة الاستراتيجية التى كانت تمر بها الثورة ، ولوضع برنامج يستوعب احتياجات ومهام هذه المرحلة ، ويكون اساسا لحركة جماهيرية بين كل قوى الثورة . وكما اشرنا من قبل فان الحركة الشيوعية المصرية قبيل ١٩٥٢ - ورغم ان كل فصائلها كانت تتحدث نظريا عن ضرورة الحلف العمالي الفلاحى ، لم تقدم برنامجا فلاحيا يمكن ان يستقطب جماهير الفلاحين وأن يكون اساسا للنضال فى الريف المصرى باستثناء فقرة هنا أو هناك تطالب بجعل الحد الاقصى للملكية الزراعية خمسين فدانا أو ثلاثين فدانا ، دون مسح كامل لطبيعة العلاقات فى الريف ولا انواع المعاناة فيه ، ومن ثم استخلاص مهام نضالية محددة قصيرة الامد أو طويلة الامد ، يمكن تجميع الفلاحين حولها ويمكن للفلاحين ان يقتنعوا بأنها حيوية بالنسبة لهم ومن ثم يتولد لديهم الاستعداد للتنظيم والنضال من أجلها .

ان الحركة الشيوعية المصرية السابقة رغم تعدد تنظيماتها كانت تنقسم من الناحية الفكرية الى اتجاهين رئيسيين :

١ - اتجاه يمينى يفرق فى العمل اليومى وفى المهام الآنية دون رؤية استراتيجية يسترشد بها ويسعى الى مراكمة الخبرة والقدرة النضاليتين من أجل تحقيق الهدف الاستراتيجى ويوظف الممارك التكتيكية ويوجهها لخدمة المعركة الاستراتيجية ، ومن ثم فان هذا الاتجاه كان ذليلا للاحداث يحدد مهامه يوما بيوم حسب ما تمليه التطورات ، ومن هنا فان شعارات ومواقف هذا الاتجاه كانت لا تتخطى حدود الحركة الليبرالية للبرجوازية الوطنية .

٢ - اتجاه يسارى متطرف يركز على الهدف الاستراتيجى ويفرق فى نقاش طويل حول تحديده ، ويهمل النضال التكتيكي ومن ثم تسيطر عليه النزعة الحلقية الانعزالية وعدم القدرة على التعامل مع الواقع اليومى

ومع الجماهير ، ويواجه أية تطورات تتطلب شعارات تكتيكية بشعارات استراتيجية ، فليس لديه لتفسير أي شيء أو لمواجهة أي موقف الا ان السلطة رجعية ، ولا بد من اسقاطها لاقامة سلطة ثورية .

اما كيف يتم ذلك وكيف يمكن تجميع وتنمية القوى القادرة على اسقاط السلطة الرجعية واقامة السلطة الثورية فذلك امر لا يحظى بكثير من الاهتمام !

كلا الاتجاهين غير علمي وغريب على الماركسية اللينينية التي هي علم قراءة الواقع وتغييره . ولذلك عجز كل من الاتجاهين عن فهم طبيعة المرحلة الثورية التي كان يمر بها المجتمع المصري ووضع برنامج يستجيب لطبيعة المرحلة واحتياجاتها تكتيكية واستراتيجية .

ان افتقاد مثل هذا البرنامج هو الذي ادى الى تخبط الحركة الشيوعية المصرية في موقفها من حركة الثالث والعشرين من يوليو وتأرجح هذا الموقف من التأييد المطلق تارة الى المعارضة المطلقة تارة اخرى .

ان اختزال العلاقة مع حركة ٢٣ يوليو في صيغة ضيقة من التأييد او المعارضة كان في حد ذاته شيئا غريبا على الموقف الطبقي المبدئي ، فالاصل في تحديد موقف الطبقة العاملة من القوى الاخرى هو اولا ان يكون تأييد الطبقة العاملة كله لبرنامجها هي الذي تطرحه للمجتمع كله ، وان يكون هو محور حركتها السياسي ، وان تحدد علاقتها بأية قوى اخرى على ضوء اقتراب هذه القوى من هذا البرنامج او ابتعادها عنه ، واذا ما كانت سياسات هذه القوى تساعد على نمو القوى المؤيدة لهذا البرنامج او تعاكس هذا النمو . ان مثل هذا النهج هو الذي يحفظ للطبقة العاملة استقلالية رايتها وبرنامجها ويميزهما عن أية رايات أو برامج اخرى . كما ان هذا النهج هو الذي يضمن قيام علاقات تحالف سليمة معروفة حدود الاختلاف والاتفاق فيها ، ويضمن الا يتبدد نضال الطبقة العاملة ويتحول الى رصيد لصالح احدى الطبقات الاخرى المشتركة في التحالف . لقد كان افتقاد هذا البرنامج المتميز استراتيجيا وتكتيكية للطبقة العاملة سببا رئيسيا في تسهيل عملية طمس الفوارق بين راية الطبقة العاملة وراية التكنوقراط ، فالموقف الطبقي لا يتحدد فقط بالمنطلقات النظرية التي يحملها المرء، وانما ايضا وبدرجة لا تقل عن ذلك ، يتحدد الموقف الطبقي

ببرنامج واضح محدد قابل لان يتحول الى حركة في الواقع ، وبرؤية واضحة ومحددة لاحتياجات الواقع تكتيكية واستراتيجية وبمهام نضالية واضحة ومحددة على المستويين التكتيكي والاستراتيجي .

\*\*\*

ان هذا الكتاب يصدر في وقت يحدث فيه الصراع الطبقي في مصر وفي المنطقة العربية كلها ، وتتضح فيه الجذور الطبقيّة للمناهج المتصارعة بشأن مواجهة تحرير الارض وبناء المجتمع ، وهي ظروف تجعل بروز حزب جديد للطبقة العاملة في مصر ضرورة موضوعية متزايدة اللاحاق .

ان بعض قوى اليسار يقترب من هذه القضية ، ويتعامل معها باوهام كثيرة عما يسمى بامكانية الانفراج الليبرالي ، والبعض الآخر يقترب منها دون رؤية واضحة لطبيعة الصراعات الاجتماعية والسياسية التي تشهدها بلادنا ، وأخطر ما في الامر هو ان هذا البعض او ذاك لا يمي ، عن عمد او عن غير عمد ، ذلك النقص القاتل الذي اودى بالحركة الشيوعية السابقة ، اي افتقاد الرؤية الواضحة للواقع المصري ، وافتقاد البرنامج المتكامل المستقل للطبقة العاملة . وكما ادى ذلك في السابق الى تميع نضال الطبقة العاملة المصرية والحاقه بالحركة السياسية لفئة التكنوقراط ، فان تكرار هذا الخطأ القاتل سيؤدي في هذه المرة الى تسليم الطبقة العاملة وجماهير الكادحين في الريف والمدينة لأكثر الطبقات تخلفا ورجعية في مجتمعنا التي تحاول ان تغطي سعيها لانجاز الردة الكاملة بحدث زائف عن ليبرالية زائفة .

ان الليبرالية البرجوازية هي في تاريخ مجتمعنا تلك الفترة التي كانت فيها البرجوازية الوطنية جزءا من المعسكر الوطني الديموقراطي الذي كان يناضل ضد الاستعمار والاستبداد السياسي الاقطاعي . لقد انتهت هذه المرحلة تاريخيا بقيام حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولا يمكن ان تعود . وحينما يتحدث راسماليو القطاع الخاص والمتعاونون مع راس المال الاحتكاري العالمي او الخليجي ، وكبار الملاك في الريف عن الديموقراطية او الليبرالية ، فانما يعنون الديموقراطية لهم وحدهم ، والحرية لهم وحدهم في اعادة تشكيل المجتمع وفقا لمصالحهم الانانية الضيقة ، ولا ينبغي ان تكون هناك اية اوهام بشأن ذلك . انهم مصممون على انتزاع حريتهم كاملة في اخضاع المجتمع لاستغلالهم حتى ولو اضطروا في سبيل ذلك لفرض ديكتاتورية عسكرية يمينية .



ان مجتمعنا ليس امامه الا واحدا من اختيارين لا وسط بينهما : اما الديموقراطية للحزب الرجعي الذي يعمل على الارتداد بمجتمعنا الى عهد استغلال الرأسمالية المطلق والتبعية للامبريالية العالمية ، وخاصة الامبريالية الاميركية ، واما الديموقراطية للطبقة العاملة ولكافة القوى الوطنية الديموقراطية المصممة على السير في معركة تحرير الارض وفي مقاومة الامبريالية الاميركية والرجعية المحلية والعربية وتطوير المجتمع على أسس ديموقراطية .

ان الرؤية الواضحة المحددة هي وحدها التي تساعد القوى الوطنية الديموقراطية في مصر على ان تخوض نضالا منتصرا وان تتجنب نكسات الماضي ، وان تقوم بمسؤولياتها التاريخية في انجاز الثورة الوطنية الديموقراطية مصريا - وعربيا .

\*\*\*

من هذه الزاوية فان هذا الكتاب ليس محاكمة للنظام الناصري .. انه مجرد تسجيل للعلاقة بين هذا النظام والشيوعيين في فترة محددة - ما بين يناير ١٩٥٨ ومايو ١٩٦٤ ، وهي فترة كان النظام فيها مصمما على تصفية اية قوة سياسية مستقلة عنه ولا تدين بالولاء المطلق له ، ولان هذا الكتاب وضع في السجن ، فانه كان ولا بد ان يعكس طبيعة العلاقة بين السجن وسجانه ، بين من يتعرض للتعذيب وبين من يتم هذا التعذيب بأمر منه ، بين من يتهدد بهم الموت ، وبين من وضعهم على حافة الموت ، وكل ما حول ذلك من دلالات وأبعاد سياسية وطنية وقومية عامة.

وصحيح ان الرئيس جمال عبد الناصر اصدر أمرا بالافراج الشامل عن المعتقلين الشيوعيين والديموقراطيين والنقائيين في مايو ١٩٦٤ ، وأعقبه بعفو عام عن كل الشيوعيين الذين صدرت بحقهم احكام بالسجن من المجالس العسكرية او المحاكم الخاصة ، وقد اقترن ذلك بتخفيف النظام من بعض العناصر الموغلة في اليمينية التي كانت في قيادته من أمثال عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم ، وبالزبد من بعض الاصلاحات الداخلية ، وبتحسن كبير في العلاقات المصرية السوفياتية تجلت في الاستقبال المشهود الذي أعد لنيكيتا خروشوف .. ولكن كان هناك يمين آخر يتجمع في النظام حول كل من المشير عبدالحكيم عامر ، وزكريا محيي الدين ، ومحمد حسنين هيكل .. كذلك ظل النظام في مجموعه معاديا لفكرة وجود تجمع سياسي مستقل عنه ، ومن هنا كان

الضغط المستمر والمتصاعد ، من أجل حل الحزب الشيوعي ، وقد وصل هذا الضغط الى حد اعادة اعتقال بعض اعضاء اللجنة المركزية ، وبعض الكوادر الحزبية كتحذير للجنة المركزية بالعودة الى الاعتقالات بالجملة ان لم تسارع في اتخاذ قرارها بحل الحزب. كما ظل النظام معاديا للماركسية اللينينية بدليل عدم السماح لاعضاء الحزب - بعد حله - بدخول الاتحاد الاشتراكي ، ولم يبدأ قبول بعضهم أعضاء الا في عام ١٩٦٨ ، وبدليل حملة الاعتقالات التي تمت في عام ١٩٦٩ بين اعضاء اللجنة المركزية لمنظمة الشباب التابعة للاتحاد الاشتراكي وكثير من اعضاء المنظمة بحجة انهم يشكلون تيارا ماركسيا ، وممارسة التحقيق معهم في قباء المباحث الجنائية العسكرية وادارة المخابرات العامة وسط كل مظاهر الارهاب والتخويف ..

وحتى في مرحلة ما بعد عدوان ١٩٦٧ ، والوطن في حاجة الى تجمع كل القوى الصحية فيه ، فان قرارات الفصل من الاتحاد الاشتراكي ، او تجميد العضوية فيه ، او الاعتراض على الترشيح للمراكز القيادية فيه صدرت بحق العديدين من اعضاء الاتحاد الاشتراكي الذين تبنا سياسات اكثر جذرية من سياسات النظام لمواجهة العدوان .

ان هذا الكم الرهيب من اليمين الذي نما في باطن النظام ، وبرز منه بعد موت عبد الناصر ، وانقض على السلطة ، ثم انقض على عبدالناصر نفسه ، وينقض الآن على ما تم انجازه في عهد عبدالناصر من اصلاح اجتماعي ، كل هذا هو الثمرة الطبيعية للسياسة التي التزمها النظام في صرامة منذ أيامه الاولى ، وهي سياسة عدم السماح لاية قوة تقدمية او ديموقراطية بحرية العمل السياسي خارج اطار النظام فكرا وتنظيما .

\*\*\*

بقيت مسألة اخيرة ..

ان كثيرين من الذين تتالق صفحات هذا الكتاب بمواقف بطولية لهم في مواجهة كل صنوف التعذيب ، قد سقطوا فيما بعد .. ولم يقف سقوطهم عند حد مشاركتهم في حل الحزب ، وانما تعمداه لتبني كل سياسات النظام ، ايجابيا وسلبيا ، بشكل مطلق ، ثم بمحاولة البحث عن موقع لهم في موكب اليمين الزاحف اليوم ..

وهم يوم سجلوا تلك المواقف الباسلة انما سجلوها باسم شعبنا ، وباسم مثله وامانيه وقيمه النضالية . . ومن ثم فان هذه المواقف ليست ملكية خاصة لهم ، وانما هي ملك لشعبنا ، وهي ليست رصيذا شخصيا لهم يستثمرونه تحت اية راية شاءوا ، ولكنها رصيذ اضياف الى تراث شعبنا النضالي . . وهم يوم تخلوا عن شعبنا ، وغيروا مواقعهم يكونون قد قطعوا اية صلة بينهم وبين ذلك الرصيذ النضالي . .

ومهما كانت قسوة التجربة ومرارتها فان ذلك لا يشفع لهم في ان يغيروا مواقعهم . . فالاصل ان من حمل راية يجب ان يكون مستعدا منذ اللحظة الاولى ان يموت دفاعا عنها . . وهناك من اختاروا الموت حتى لا يسقطوا رايتهم . . ولم يكن موتا مباغتاً ، ولكنه كان موتاً مجسداً في كل ضربة كان الواحد منهم يتلقاها . . واختيار الموت قمة التضحيات . . يهون بالقياس اليها اي عذاب آخر .

ان « مصداقية » هذا الكتاب ، باعتباره تاريخاً لفترة محددة من تاريخ شعبنا هي التي اقتضت ان تقترن الوقائع بالاسماء الحقيقية .

ولكن المواقف الحقيقية التي يقف فيها هؤلاء الناس الان في الحياة هي وحدها تكشف اين هم من تلك المواقف النضالية التي وقفوها يوماً ، وبأية مسافة كبيرة ابتعدوا عنها .

**طاهر عبد الحكيم**

# الذين صنعوا النصر من كلمات عبد المنعم ستد امام المحكمة العسكرية العليا

السادة اعضاء هيئة المحكمة :

تدعي المباحث العامة في شهادتها امام هذه المحكمة ، ان الشيوعيين المصريين لم يشتركوا في المقاومة الشعبية داخل بور سعيد اثناء العدوان الثلاثي ، وهذا محض افتراء وكذب ، فالجميع يعلمون بما فيهم رئيس الحكومة وكبار المسؤولين ، ان الشيوعيين كان لهم الدور الاساسي والفعال في حركة المقاومة الشعبية داخل بور سعيد والتي تجسدت في الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية التي قادها الشيوعيون بنجاح منقطع النظير .

لقد اتصلنا بقيادة المنطقة الشرقية حالما بدأ العدوان ، وبدأ ضرب القاهرة ، وبور سعيد ، والمدن المصرية الاخرى بالقنابل ، ولقد كان لي شرف الاتصال كمنذوب عن الشيوعيين ، باليوزباشي محمد ابو نار ممثل قيادة المنطقة الشرقية ، وذلك في مقر قيادة المنطقة في مدينة الزقازيق ، ولقد عرضت عليه الموقف على النحو التالي :

قلت له في وضوح ، ان الخلافات القائمة بيننا وبين الحكومة ينبغي ان تطرح الآن جانبا ، اذ لا معنى ان تشغلنا الخلافات الان وهناك عدو يهددنا جميعا . وحددنا مطلبنا من قيادة المنطقة الشرقية في التعاون معنا من اجل تعزيز قوات المقاومة الشعبية في بور سعيد وكافة مدن القنال

باعتبارها اكثر المدن تعرضا لخطر الغزو .  
لم نجد استجابة اول الامر . ولكن ازاء ضغط الاحداث من جانب  
وضفطنا من جانب آخر استطعنا ان نصل الى اتفاق بعد مناقشة طويلة  
عن أهمية توحيد الجهود لمواجهة العدوان الاستعماري .

سألنا اليوزباشي محمد ابو نار وهو أحد المقربين للحكام الحاليين  
سؤالاً صريحاً : ماذا لو رفضنا التعاون مع الشيوعيين ؟ ..  
وكانت اجابتي حاسمة : اننا سنبدل قصارى جهدنا لتوحيد كافة  
القوى الوطنية بما فيها الحكومة لمواجهة قوات المعتدين .. وبالطبع فإن  
رفض احدى هذه القوى التعاون معنا لن يثنينا عن المضي قدماً من اجل  
تطهير البلاد من الاستعماريين المعتدين .

كان عزمنا نحن الشيوعيين واضحاً على ان نقسوم بواجبنا قبلت  
الحكومة ام لم تقبل ، وكان واضحاً لممثل الحكومة ان الشيوعيين سينفردون  
بشرف قيادة المقاومة الشعبية ضد قوات المعتدين وخاصة داخل مدينة  
بور سعيد التي كانت قد وقعت في يد القوات المعتدية .. وأبلغنا ممثل  
الحكومة انه لا يستطيع ان يبت في الامر الا بعد الاتصال بالقيادة  
بالقاهرة ..

وبالفعل اتصل بالمشير عبد الحكيم عامر بالقاهرة ، فأعطاه المشير  
تعليمات بالتعاون معنا . وبدأ رجال المنطقة الشرقية يتفاهمون معنا حول  
كيفية المقاومة وأساليبها ..

لم تكن لديه أية فكرة عن التسلل الى بور سعيد المحتلة ، أو أية نية  
له ولكن عرضنا خططنا لذلك . وبالفعل .. بينما كان مئات من الرفاق  
الشيوعيين يعدون لجان المقاومة الشعبية في المدن والقرى المصرية أخذ  
حوالي مائتين من الرفاق أماكنهم في معسكرات شعبية في منطقة الشرقية  
والقنال ، بينما توجهنا حوالي ستين رفيقاً الى بلدة المطرية على شاطئ  
بحيرة المنزلة في مواجهة بور سعيد ، وأقمنا بها مركز اتصال وتموين  
وفي ملابس الصيادين بدأنا نتسلل في القوارب بالعشرات الى بور سعيد  
ومعنا السلاح والذخيرة ، والقنابل ، والمنشورات الثورية ، والمطابيع  
الخاصة ، كلها مخبأة تحت السمك في أماكن سرية أعدت لذلك الغرض .

وخلال احدى تلك الرحلات كاد أمرنا ينكشف ، اذ لاحظ أحد  
الجنود لقوات الاحتلال ان لون بشرتنا وحالة أقدامنا العارية على عادة

الصيادين يختلفان عن لون بشرة الصيادين وشكل اقدامهم ، ولكن بعد جهد يسير استطعنا بالتفاهم مع أحد المصريين السذي كان يعمل مع المخابرات الانكليزية ، أن تقنع الجنود الانكليز بأن ظنهم ليس له أساس ، وهكذا افلتنا . . .

لقد واجهتنا بور سعيد بعاصفة من التذمر والسخط على الحكومة وعلى سياستها التي جرت على البلاد الدمار والخراب . . كان الاهالي يتحدثون بمرارة عن طيراننا الذي لم يظهر على الاطلاق للدفاع عن المدينة، عن الاميرالاي محمد الموجي قائد حامية بور سعيد والقائمقام عبد الرحيم قدري قائد اللواء السابع والسبعين الموكل له الدفاع عن المدينة الذين فروا ومعهم ضباطهم ، ومعظم رجالهم في ثيابهم المدنية وتركوا المدينة تواجه قوات الاحتلال ، عن رجال « هيئة التحرير » (١) الذين مخدعوا شعب بور سعيد واوهموه ان الدبابات الانكليزية التي نزلت الى البر هي دبابات سوفياتية مما تسبب في مذبحه شارع محمد علي . . كما كانت الدعاية الاستعمارية والانهازامية قد لعبت دورا خطيرا واسعا بين اهالي بور سعيد الذين تحملوا العبء الاكبر في مواجهة قوات المظلات وسقط منهم الآلاف في محاولة صدهم عن المدينة .

وكم كان سكان بور سعيد يذكرون بمرارة كيف لم يوزع السلاح عليهم الا في آخر لحظة . . كيف كانت البنادق تلقى في الشارع بلا نظام، وهي ما زالت مشحمة ، كيف انه نتيجة لذلك كان البعض يجد البندقية ولا يجد لها الذخيرة ، بينما البعض يجد ذخيرة ولا يجد لها بندقية ، كيف اضطر المئات من الرجال والنساء الى مواجهة قوات المظلات بالمطارق او الآلات الحديدية أو أواني المطبخ الحادة . . ولذا وجدنا ان نقطة البداية في عملنا هي مواجهة حملات الدعاية الاستعمارية والعمل على توحيد كافة القوى الوطنية في جبهة متحدة واحدة .

لم يكن هذا العمل بالشيء السهل ، خصوصا اذا علمنا ان المخابرات الفرنسية والبريطانية كانت نشطة للغاية ، كما قامت المباحث السامة في بور سعيد بتسهيل مهمة المخابرات الاستعمارية ، وذلك عندما رفض حسن رشدي رئيس المباحث العامة بالمدينة اعدام الاوراق والملفات الخاصة

---

( ١ ) هيئة التحرير هي اول تنظيم سياسي تقيمه سلطة ٢٢ يوليو بعد ان أصدرت قانونا بحل الأحزاب السياسية وتحريم نشاطها .

بالشيوعيين قبيل العدوان على المدينة ، وتركها كي يتسلمها منه مستر ويليامز قائد المخابرات البريطانية ، ومن المعروف ان مستر ويليامز هذا كان قائد المخابرات البريطانية في المنطقة لمدة عشرين سنة قبل جلائها وهو يعرف كل شبر في ارض القنال ، ويتكلم اللغة العربية بلهجاتها الدارجة كأحد المصريين ، ثم كان عملاؤه طوال تلك السنين في انتظاره ببور سعيد حينما عاد مع القوات المعتدية .

لقد كان لفصيلة المقاومين من طلبة الجامعة ، وهي احد تشكيلات الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية ، شرف اغتيال المستر ويليامز كأحد مهامنا الاولى وذلك عندما اخرج احد افرادها قبيلة يدوية كان يخفيها في رغيف وقذف بها سيارة المستر ويليامز فأصابه بجراح خطيرة توفي على اثرها .

لقد اتصلنا بهيئة التحرير في مدينة بور سعيد ، وطلبنا من رئيسها امين العصفوري التعاون معنا ، ولكنه رفض ، وقال انه لا تعاون عن طريق جبهة ، ومن يريد العمل فليتنضم الى هيئة التحرير فهي الهيئة الوحيدة الرسمية والمثلة للحكومة .

ولم تقبل بالطبع هذا الطلب من رئيس هيئة التحرير ، فهي هيئة لا يثق فيها شعب بور سعيد ، ونحن نريد خلق هيئة يثق فيها شعب المدينة .

وقررنا ان نعمل في تكوين الجبهة وحدنا ، فاتصلنا بمختلف الشخصيات والهيئات في بور سعيد . . التي سارعت كلها بالانضمام للجبهة ، وبذلك التف حول قيادة الجبهة كل النقابات العمالية والهيئات الاجتماعية والشخصيات الوطنية ، وأصبح لها الكلمة المسموعة والسلطة الحقيقية في المدينة المحتلة .

وبينما ترك رئيس هيئة التحرير زوجته واولاده في بور سعيد ، وتسلك هاربا من المدينة ، قمنا نحن بتنظيم لجان الجبهة في كل ركن من المدينة . كانت هناك اللجان الجماهيرية التي تنظم المظاهرات واخفاء رجال المقاومة وتهريب الاسلحة ، والاعمال الواسعة كالاحتفالات والمهرجانات لتكسير اوامر حظر التجول ، بينما كانت هناك لجان المقاومة السرية وهي تشكيلات كل منها صغيرة العدد وتتبع قيادة الجبهة مباشرة ، ومهمتها ان تقوم بدور القناصة لجنود الاحتلال ، واختطاف الضباط ،

وقد قامت احداها بحادث الاختطاف الشهير للكابتن مور هاوس قريب ملكة انكلترا ، وقامت بقتله .

ولا املك هنا الا ان احني راسي اجلالا لذكرى الرفيق الشهيد حسن حمود اصفر المقاومين سنا ، الذي سقط برصاص احد الضباط الفرنسيين .  
السادة اعضاء هيئة المحكمة .

لقد كان من نتيجة اشتداد العمليات العسكرية التي قامت بها الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية في بور سعيد ، ان اضطرت القوات المحتلة الى الجلاء عن الحي العربي ، وهو الحي الوطني والزاهر بالسكان .

ولقد حاول المحافظ ان يلعب دورا سيئا في تلك الفترة ، ففرض حظر التجول في هذا الجزء من المدينة بعد ان اخلته القوات المحتلة ، مما اثار نائرة الاهالي ، التي لم تجد فارقا بين سلطات الاحتلال والسلطات المصرية ، واعطينا توجيهاتنا الى الاهالي بعدم الانصياع لامر حظر التجول الذي انطلقت احدى سيارات المحافظة تديعه على المواطنين ، وبالفعل استمر الاهالي في الشوارع وفي متاجرهم واعمالهم ، وذهبت كمندوب عن الجبهة للملاقة لمحافظ والتفاهم معه في خطوة تصرفه ، وقال المحافظ انه لا بد من حظر التجول للمحافظة على الامن في الحي العربي حيث لا توجد قوات بوليس تكفي لحفظ الامن ، ولكنني ابلغته ان الجبهة ستأخذ على مسؤوليتها مهمة المحافظة على الامن ، وبعد تردد طويل اضطر المحافظ لالغاء حظر التجول ، وقد ساعد ذلك على تدعيم مركز الجبهة والتفاف الجماهير حولها ...

ولقد قمنا بالفعل بزيارة لعزبة فاروق ، وهي احدى ضواحي بور سعيد تقطنها كل العناصر الخارجة على القانون ، كما كان بها في ذلك الوقت مئات من اللصوص والقتلة الذين هربوا من سجن بور سعيد اثناء ضرب المدينة من الجو ، وعقدنا معهم اتفاقا على ان يمتنعوا عن ارتكاب اية سرقات او مخالفات قانونية ضد امن الاهالي في الحي العربي وانهم يستطيعون ارتكاب ما شاءوا من اعمال السرقة في الحي الافرنجي الذي تحتله القوات المعتدية ، ولقد احترم اللصوص بالفعل هذ الاتفاق وحتى دخول قوات البوليس المصري مدينة بور سعيد لم تقع حادثة سرقة واحدة بينما لم يحترم المحافظ اتفاهه معنا ، وحاول العودة مرارا الى فرض حظر التجول .



ولا يمكن ان يذكر المرء الجبهة الوطنية المتحدة للمقاومة الشعبية دون ان يذكر جريدة « الانتصار » التي اصدرتها الجبهة والتي لعبت دورا هائلا في رفع معنوية سكان بور سعيد وشحذ روح المقاومة لديهم ، وتجميعهم حول الجبهة .

السادة اعضاء هيئة المحكمة :

لا اود هنا ان اطيل كثيرا في الحديث عما فعله الشيوعيون اثناء العدوان الثلاثي ولكن يكفي ان اقول انهم قد قاموا بالدور العظيم في المقاومة الشعبية ، سواء في مدينة بور سعيد او في بقية مدن وقرى مصر ون اي ادعاء غير هذا فهو ادعاء رخيص مبتذل ، ويكفي ان تستدعي احد ضباط المنطقة الشرقية للتأكد من صحة ذلك .

ان انتصارنا في معركة بور سعيد انما يرجع الفضل فيه الى الوحدة الوطنية، ووحدة الشعب بكافة طوائفه وهيئاته لمواجهة قوى العدوان، ان هذا الدرس لا يجب ان يغيب عن اذهاننا واخشى ما يخشاه المرء في هذه الظروف التي تجتازها البلاد اليوم الا يكون حكام البلاد قد استفادوا من دروس بور سعيد ، وبذا تتعرض البلاد لآخطار شديدة .

ولا يجب ان نغفل ايضا من تضامن الشعوب العربية معنا خلال هذه المعركة . فقد لعبت هذه الشعوب دورا متعاظما خلال العدوان ولن ننسى ما قام به الشعب السوري الشقيق في منعه سفن الاعداء من التزود بالبتترول وتدميره لانابيب البترول التي تمر باراضيه وكذلك هبه شعب العراق وغيره من الشعوب العربية لمناصرتنا .

ان تضامن الشعوب العربية كان له اقوى الاثر في صد المعتدين وسحقهم . كما اثبتت معركة بور سعيد ان الشعوب الصغيرة لا تقف وحدها بل توأزرها قوى سلامية ضخمة .

ان المعسكر الاشتراكي وعلى راسه الاتحاد السوفيتي ، لم يرض باية معونة او تضحية من اجل نصره شعبنا وسحق العدوان الثلاثي .

كلنا نذكر الانذار السوفيتي ، وكيف اجبر قوات المعتدين على وقف غزوهم ، ثم الى الانسحاب ، هذا الموقف العظيم الذي كان له ثر كبير على كافة ثورات التحرر الوطني في العالم كله .

ثم تحدث عبدالمنعم شتلة عن الحملة المعادية للشيوعية وعن تصعيدها واستشهد بواقعة اغتيال الرفيق محمد عثمان في مدينة طنطا ، حيث عذب

تعديبا وحشيا ادى الى موته .

( وبعد ان سجل ابرلرفيق عبدالمنعم شتلة تفاصيل تعذيب المناضل محمد عثمان و ( اغتياله ) استرسل :

من هو الجدير اذن بالوقوف موقف الاتهام .. الجاني ام المجنى عليه ؟  
العناصر الوطنية الشريفة التي تقدم حياتها رخيصة من اجل الوطن ام تلك  
العناصر التي لا هم لها سوى الدس والتآمر ، والتي يشهد تاريخها بالصلات  
المريبة مع المستعمرين وعملائهم .

وينبيري رئيس المجلس مرة اخرى بالمقاطعة .. آمر الرفيق بالتوقف  
عن الكلام ، ولكنه يستمر متحديا :

( انني اتهم المباحث العامة بارتكابها جريمة قتل احد رفاقنا .. الشهيد  
محمد عثمان ، واطالب بالتحقيق في هذه الدعوى .. كما اتقدم للنيابة  
الموجودة هنا بطلب استدعائي والتحقيق معي فيما نسبته للمباحث  
العامة ..

رئيس المجلس : اسكت والا امرت باخراجك ..

الرفيق شتلة : طبقا للنظام المطبق في المجالس العسكرية يحق لسى ان  
اتقدم بدفاعي بالطريقة التي اراها مناسبة لابرار وجهة نظري ، كما اني  
مستعد لكي يحقق معي في اية عبارة اقولها وتعتبر ماسة باي شخص  
من الاشخاص رئيس المجلس : اجلس ولا تتكلم ، والا طبقت عليك المواد  
الخاصة بالاخلاق بنظام الجلسة ..

الرفيق شتلة : اني احتج شديد الاحتجاج على هذا الاسلوب ، واطلب  
تسجيل احتجاجي في المحضر الرسمي للجلسة » .

وحسب طلب الرفيق شتلة استدعي للشهادة البكياشي لطفى واكد  
المسئول السياسي من قبل عبدالناصر لقيادة المنطقة الشرقية اثناء العدوان ،  
ورئيس تحرير جريدة الشعب فيما بعد ، وكان مما ورد في شهادته :

رئيس المجلس : هل تعرف الشيوعيين .

البكياشي لطفى واكد : نعم ، وهم اول من فكر في دخول بور سعيد ،  
وهم اول من فتح لنا الطريق الى بور سعيد المحتلة .

كما استدعي ايضا للشهادة الاستاذ محسن لطفى مدير الشركة المتحدة  
للنشر ، والذي تبرع باموال طائلة للانفاق على المسكرات الشعبية في  
منطقة القنال ، كما انضم الى قوات المقاومة في بور سعيد . وهو ابن

خالة لطفي واكد .

رئيس المجلس : هل تعرف ان عبدالمنعم شتلة وزملاؤه هؤلاء شيوعيين؟  
الاستاذ محسن لطفي : نعم ...

رئيس المجلس : وماذا تعرف عنهم اثناء العدوان ؟

الاستاذ محسن : كنت اعمل اثناء العدوان بالتنسيق مع قادة المنطقة الشرقية ، ولم يكن لدينا اية فكرة عن دخول بور سعيد وهم الذين اقترحوا ذلك ووضعوا خطته ، وهم الذين فتحوا لنا الطريق الى بور سعيد ، كما انهم هم المحركين لجهة المقاومة الشعبية التي كانت تضم كل شعب بور سعيد ، والتي تحملت عبء كافة العمليات العسكرية والجماعية هناك .



# الجزء الاول

في ظلال الراية السوداء

## الفصل الاول الذين يخافون النور

منتصف الليل ..

نهاية عام ، وبداية عام جديد .

والناس في الجمهورية العربية يتبادلون التمنيات بعام جديد سعيد .  
ولكن في حذر وترقب ، اذ لم يكن قد القضى بعد سوى اسبوع واحد  
على ذلك الخطاب الذي القاه عبدالناصر ، رئيس الجمهورية في بور سعيد  
في الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٥٨ .

والثالث والعشرون من ديسمبر هو عيدالنصر ، تحتفل فيه بور سعيد،  
ويحتفل معها الشعب المصري كله ، وتحتفل معها كل البشرية التقدمية  
بذكرى انتصارها على العدوان الانجلو فرنسي ، كما تحتفل بذكرى  
مقاومتها الياسة تحت قيادة الشيوعيين ، وتحتفل بذكرى شهدائها ،  
وفي مقدمتهم الشهيد الرفيق حسن حمود الذي سقط في صفوف المقاومة  
ولم يكن قد تعدى بعد الخامسة عشرة من عمره .

في هذا اليوم من كل عام تحتفل بور سعيد ، ويحتفل الشعب المصري  
وتحتفل البشرية التقدمية بذكرى الانذار السوفيتي للمعتدين ، ذلك  
الانذار الذي سيظل رمزا خالدا للتضامن الوثيق بين المسكرا الاشتراكي  
والشعوب المناضلة من اجل تحررها .

في العيد الثالث للنصر ، في الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٥٨  
جاء خطاب عبدالناصر في بور سعيد معاكسا لكل تلك المعاني الجميلة في  
وجدان المواطنين فلقد اعلن في خطابه « ان المعركة مع الاستعمار قد  
انتهت وان المعركة مع الشيوعية قد بدأت » . لقد سقطت تلك الكلمات  
على شعب بور سعيد اقسى من قنابل المعتدين ، وتساقطت على قبور

الشهداء اقسام من حمم الجمر .

وبينما كان الناس في بلادنا يحتفلون بالعام الجديد ، وحينما كانوا يتبادلون التمنيات بعام جديد سعيد. كانوا يحسون لكلمات عبدالناصر تلك ظللا كئيبة تخنق بسمة العيد ، وتجعل التمنيات تخرج من الشفاه اشبه بالدعوات لحماية الوطن من كارثة كانت تنبئ بها كل كلمة من خطاب عبدالناصر ...

كانت المعركة بين عبدالناصر والشيوعيين لا مفر منها ، لم يدبها الشيوعيون الذين ظلوا في مواقعهم مدافعين عن الاستقلال ، يقظين لمواسرات المستعمرين .. وانما فرضها عبدالناصر ..

لقد سعى عبدالناصر للتهذئة مع المستعمرين ، وكانت بينه وبين راوتري وكيل الخارجية الامريكية في نوفمبر ١٩٥٨ محادثات سرية . لم يدر احد ما دار بينهما فيها ، وان صدرت بعدها تعليمات من عبدالناصر للصحف بعدم الهجوم على الولايات المتحدة الامريكية او نقد سياستها ، وان اقترنت تلك المحادثات بحملة مسمورة من ابواق الدعاية التابعة للنظام على العراق ، وعلى الشيوعيين العراقيين امتدت الى الشيوعيين السوريين كما شملت الشيوعيين العرب جميعا، وانطلقت كل الاقلام الرجعية والاقلام العميلة، محمد حسنين هيكل ، والتابعي ، ومصطفى امين ، وعلي امين ، والعقاد، وماهر نسيم ، وانيس منصور ، وغيرهم تتهجم في قحة وبداء على الشيوعيين وعلى تعاليم الشيوعية ، وتردد افتراءات الامبرياليين عن المعسكر الاشتراكي ..

ظل الشيوعيون في مواقعهم مدافعين عن الوحدة الوطنية ، عن وحدة كل القوى الوطنية على النطاق العربي .

وكان عبدالناصر هو الذي بدأ عقب هزيمة العدوان يفتت الوحدة الوطنية بالاجراءات التشريعية والادارية ، فهو الذي امر بحل لجان المقاومة الشعبية بعد ان حملت العبء الاكبر من تنظيم الجماهير وتعبئتها ضد العدوان ، بينما بان جليسا افلاس هيئة التحرير التي اقامها نظام ٢٣ يوليو كبديل للنظام الحزبي ، وانفضحت كهيئة معزولة عن الشعب لا تحظى بثقته او احترامه ولا تضم الا مجموعة من الوصليين والافاقين والجواسيس . لقد عمل عبدالناصر على ازاحة الشيوعيين من كافة التشكيلات والتنظيمات والمؤسسات ذات الطابع الجماهيري ، فمن فصل لما يقرب

من مائة من الصحفيين الشيوعيين والديموقراطيين من جريدة الجمهورية والمجلات التي تصدر عنها ، الى فصل الطلبة الشيوعيين والديمقراطيين من الجامعة ، الى تحريم الوظائف العامة على الشيوعيين ، ووضع قائمة باسماء العمال الشيوعيين في المصانع حتى لا يسمح لهم بالعمل ، وتوج كل هذا بالقرار الجمهوري رقم ٨ الذي يقضي بالحاق النقابات المهنية والعمالية بالاتحاد القومي (١) ، وهو حزب الحكومة ، وتحريم عضوية مجالس الادارات فيها على غير اعضاء ذلك الاتحاد .

وعلى النطاق العربي كان عبدالناصر هو الذي عمل على تفتيت الجهات الوطنية في البلاد العربية بتحريض حلفائه انذاك على الانسحاب من الجهات الوطنية في الاردن ولبنان والعراق وسوريا .

ظل الشيوعيون في مواقعهم مدافعين عن مطالب الجماهير الاقتصادية والديمقراطية ، مطالبين بتوجيه خطة التنمية الاقتصادية نحو رفع معيشة الجماهير وتخفيف عبء تكاليف الحياة عنها ، وحماية الاقتصاد الوطني من التسلل الاستعماري .

ولكن عبدالناصر اصر على ان تتحمل الجماهير عبء خطة التنمية وعلى ان تسير تلك الخطة بما يحقق اعلى ارباح للمؤسسات العامة والخاصة ، بينما تتدهور مستويات معيشة المواطنين ، تكاليف المعيشة في ارتفاع مضطرد والدخول الفعلية في انخفاض متزايد ، كما انه هو الذي فتح الباب امام القروض الامبريالية مبتدئا بالقروض من المانيا الغربية وبفائض الحاصلات الزراعية الامريكية .

ظل الشيوعيون يطالبون للشعب بحقه في حرياته العامة ، حرية العمل والتنظيم السياسي ، حرية النشر والصحافة والاجتماع وظلوا يطالبون بانتخاب جمعية تأسيسية تضع للشعب دستورا وطنيا ديموقراطيا ، ولكن عبدالناصر اصر على مصادرة الحريات العامة وتحريم التنظيم السياسي ، وفرض الرقابة على الصحف وكافة المطبوعات وحظر الاجتماعات العامة والاعتداء على ما يتم منها بواسطة قوات الامن ، وفي مواجهة المطالبة

---

(١) الاتحاد القومي هو المحاولة الثانية من سلطة ٢٣ يوليو لاقامة تنظيم سياسي خاص بها ينفرد وحده بالعمل السياسي، وذلك بعد فشل هيئة التحرير وحلها في اوائل ١٩٥٨ .



بجمعية تأسيسية اوضع دستور ديمقراطي حل عبدالناصر مجلس الامة الذي ضاق به ذرعا ، على الرغم من ان حوالي مائة نائب فيه عينوا تقريبا بواسطة ما يسمى بحق الاعتراض الذي بمقتضاه شطبت اسماء المرشحين المنافسين لهم في انتخابات يوليو ٥٧، وعلى الرغم من انه بمقتضى حق الاعتراض هذا استبعد عبدالناصر كافة المرشحين الشيوعيين والديمقراطيين والتقدميين .

واصر عبدالناصر على فرض نظام الحزب الواحد ،وعلى مد فترة الانتقال التي استمرت الان عشر سنوات ، وعلى الحكم بالاساليب البوليسية،بالمباحث العامةوالمخابرات والنيابة الادارية ، وقوانين الطوارئ .

لقد ظل الشيوعيون ينادون بسياسة خارجية اساسها النضال الحاسم ضد المستعمرين والصداقة الوطيدة مع المعسكر الاشتراكي ، والمساندة الحازمة لحركات التحرر الوطني .

ولكن النظام الناصري اتبع،على النطاق العالمي ،سياسة تتسم بالتهدة مع المستعمرين ، بينما سلط كل نيرانه على الحركة الوطنية الديمقراطية في العراق .

ولقد ظل الشيوعيون ابدا يندفعون بثبات من اجل وحدة عربية ديمقراطية تحترم فيها ارادة الشعوب العربية في شكل الوحدة الذي تريده ، وفي نظام الحكم الذي تختاره .

ولكن النظام الناصري قاتل بشراسة من اجل فرض الوحدة على سوريا بشروطه : حل الاحزاب ، وحل البرلمان واقامة اتحاد قومي تخضع له كل اشكال النشاط السياسي والاجتماعي . ولم تكذ تتم الوحدة حتى استبعد قادة ضباط الجيش السوري ، وحلت النقابات واتحادات الطلبة . واعيد تكوينها تحت اشراف المباحث . واخضعت كل مجالات الحياة في سوريا بما فيها الوزراء السوريون انفسهم لاشراف المخابرات الناصرية .

وهو الذي رفض الاتحاد الفدرالي الذي عرضته العراق مسلمة له برئاسة الاتحاد ، وبقيادة جيوش الاتحاد وبسياسة خارجية واحدة للاتحاد مقابل السماح لشعب العراق بحقه في تكوين احزابه الوطنية ، وانتخاب برلمانه والتمتع بحرياته العامة .

لقد رفض النظام الناصري الوحدة مع العراق الا اذا خضعت لشروطه

والا اذا اسلم شعب العراق ثورته كاملة لعبدالنصر .  
وكما اصر عبدالناصر على طريق غير ديمقراطي لمصر المستقلة، يحقق  
للفئات العليا من الرأسمالية المصرية اعلى درجات ديكتاتوريتها كذلك  
اصر على ان تسير الوحدة العربية في مسار غير ديمقراطي يحقق للفئات  
العليا من البورجوازية المصرية اوسع تسلط وتحكم على مقدرات  
البلاد العربية . (1) .

وفي مصر تجمعت العناصر الوطنية الديمقراطية حول الحزب الشيوعي  
المصري من اجل مسار ديمقراطي لمصر المستقلة .  
وفي سوريا تجمعت القوى الوطنية الديمقراطية حول الحزب  
الشيوعي السوري من اجل ديمقراطية الوحدة .

وفي العراق تجمعت الاحزاب والقوى الوطنية الديمقراطية حول  
الحزب الشيوعي لحماية الثورة من محاولات عبدالناصر الانقلابية ولم يكن  
الناصريون بقادريين على خوض المعركة ضد تلك الجبهة الوطنية  
الديمقراطية المتعاضمة على النطاق العربي ، معركة شريفة مفتوحة تقول  
فيها الجماهير كلمتها ، لم يكن للناصرين قبل بمعركة تدور تحت انوار  
الحقيقة لان هذا كان يعني هزيمتهم المحققة .

وعليه فقد قرروا ان يخوضوها معركة سوداء ، يتسلحون فيها بكل  
ما وعوه من تجارب الانظمة البالية المعادية للشعوب : البطش البوليسي ،  
الاغتيال والتعذيب ، والاكاذيب والافتراءات .

وكان منتصف الليل .  
كانت نهاية عام ١٩٥٨ ، وبداية عام ١٩٥٩ .  
وتبادل الناس في ج.ع.م التهاني والتمنيات بعام جديد سعيد ..  
ولكن اولئك الذين ظلوا ابدا يخشون الشعب ولا يؤمنون به ..  
اولئك الذين لا يستطيعون العمل الا في الظلام ..  
كانوا يرفعون من خلف مكاتبهم بسراري القبة الخناجر التي مزقوا بها  
احلام العام الجديد .

ففي الظلام ، وقبل ان تبرز الخيوط الاولى لفجر اليوم الاول من العام  
الجديد ، كان النظام الناصري يمزق راية الوحدة الوطنية التي حمت البلاد

---

(1) بعد انفصال سوريا قدم عبدالناصر نقدا ذاتيا اعترف فيه بعدم اليقظة لتلك  
الفئات اليمينية ولؤامراتها ، واضطر بعد ذلك لتأميم معظم استثماراتها .

من العدوان الاستعماري ، وانتي مزقت مشروع ايزنهاور كان يمزق راية التضامن العربي وراية الصداقة العربية السوفيتية اللتين ضمننا احباط كل المؤامرات الاستعمارية .

كان يمزق كل الرايات الشريفة التي رفعها الشعب ، ليرفع مكانها راية كرهية لدى كل المواطنين الشرفاء ، راية لم يرفعها من قبل الا اعداء الانسانية ، رايه الاستعمار المهلهلة ، رايه السواد والشؤم التي لا يستظل بها الا اعداء التقدم البشري : تلك الراية التي نشرت على البلاد ظلها الاسود الكئيب .. راية مكافحة الشيوعية .

في صباح اليوم الاول من يناير ١٩٥٩ ، استدعي مراسلو الصحف الامريكية - والامريكية فقط - الى مقر رئيس الجمهورية بـراي القبة حيث افضى اليهم احد كبار المسؤولين باناء الحملة البوليسية التي شنتها اجهزة الامن على الشيوعيين المصريين والتي تم فيها اعتقال ما يقرب من مائتين من الشيوعيين بينهم معظم القيادات . لقد حظر على الصحف المصرية نشر اي شيء عن تلك الاعتقالات ، الا ان الاخبار انتشرت بسرعة مذهلة برغم ذلك الحظر ، واصابت الدهشة البالغة كافة المواطنين لذلك التصرف المفاجيء من جانب سلطات ج.ع.م. وعم القلق انحاء البلاد ، لان الناس في بلادنا يعلمون من خبرتهم الطويلة ان اعتقال الشيوعيين يكون عادة بداية عهد من الارهاب وخنق الحريات والاعتداء على حقوق المواطنين .

سيق المعتقلون الى سجن القلعة وهو مكان كئيب مظلم ، يقع داخل اسوار قلعة صلاح الدين على قمة جبل المقطم . ان اول من استخدم القلعة معتقلا للوطنيين هم الفرنسيون الذين غزوا مصر بقيادة بونابرت عام ١٧٩٨ . واستخدمته قوات الاحتلال البريطانية سجنا حربيا لجنود الاحتلال ، واول من استخدمه بعد ذلك معتقلا للسياسيين هو عبدالناصر .

ما يكاد المرء يدخل من بوابة ضخمة حتى يجد نفسه في فناء صغير يؤدي باب فيه الى حجرة بها ضابطان يقومان بتفتيش المعتقلين واستلام ما معهم من نقود ثم تسجيل الاسماء في سجلات المعتقل ، ويؤدي باب اخر في الحجرة الى دهليز ضيق مظلم ، على كل من جانبيه صف من الزنازين الضيقة لكل منها باب مزدوج ، واحد من القضبان الحديدية واخر من الخشب السميك ، ولا ينفذ اليها الهواء الا من كوة ضيقة في السقف . بدأ التحقيق مع المعتقلين منذ اليوم الاول ، واتسم التحقيق باهدار

ركنين قانونيين اساسيين :

اولا : اجري التحقيق بحضور ضباط من ادارة المباحث العامة كانوا يسجلون ملخصات باقوال المعتقلين بحجة نقل صورة عن التحقيق اولا باول الى رئيس الجمهورية .

ثانيا : حرم المعتقلون الذين اجري معهم التحقيق من استدعاء محامين لحضور التحقيق .

وفضلا عن ذلك فقد سار التحقيق في طريق غير قانوني من زاويتين :  
اولهما : ان وكيل النيابة لم يكن يحق بناء على اداة مادية امامه ،  
وانما بناء على تبليغ من المباحث العامة .

وثانيهما : ان الاسئلة التي كان يوجهها وكيل النيابة لم تكن حول وقائع مادية ، وانما حول مسائل تتعلق بالعقيدة وحرية الضمير ، من امثلة ذلك :

ما رايك في الشيوعية ، ما رايك في القومية العربية ؟

ما رايك في الاشتراكية الديمقراطية التعاونية ؟

بقى المعتقلون في سجن القلعة حتى ٢١ مارس ١٩٥٩ محرم عليهم الاتصال بدويهم ، محرم عليهم الاطلاع على الصحف او الاستماع للاذاعة ، محرم عليهم الاتصال بمحاميههم رغم انه قد اجري معهم تحقيق نيابي .

## الفصل الثاني

### على الطريقة الامريكاني

هبت كل الاحزاب الشيوعية العربية تحذر من سياسة مكافجة الشيوعية ، وتحتج على تلك الحملة الفادرة على الحزبين الشيوعيين المصري والسوري ، وادانت الاحزاب الشيوعية العربية في مراکش والجزائر وتونس والاردن ولبنان والعراق خطب عبد الناصر الذي القاه في بور سعيد وحملته على الشيوعيين العرب .

ورغم اعتقال ذلك العدد الكبير من كوادر الحزب الشيوعي المصري وعناصره القيادية والجماهيرية ، انطلق الحزب في عمله الدعائي والتنظيمي وفي اثاره الجماهيرية انطلاقا هائلة افزعت النظام ، وجعلته يدرك ان حملة بناير لم تحقق ما اراده من شل الحزب وافزاع اعضائه الذين لم يلق القبض عليهم .

وازداد سعار النظام الناصري عقب هزيمة حركة الشواف في الموصل في اوائل مارس ١٩٥٩ وكان قد القى بكل ثقله خلف تلك الحركة . هزت الصفعة الحكم الناصري من اساسه هذا عنيقا فاتجه لتأمين نفسه بمزيد من الارهاب ، وشهدت الاسابيع التالية لفشل مؤامرة الشواف اعتف حملة هستيرية ضد الشيوعية :

فبعد الناصر في سوريا يلقي بمعدل خطابين في اليوم يهاجم فيهما الشيوعيين والاتحاد السوفييتي ، والصحف الناصرية تمتلئ بالاكاذيب والافتراءات عن الشيوعية وتنشط كل الاقلام المأجورة والعميلة التي تتلقى وحيها من دوائر فيما وراء الاطلنطي ، اقلام مصطفى وعلي امين وحسين هيكل ، والتابعي وانيس منصور وماهر نسيم وعباس العقاد .

وصدرت تعليمات صريحة للصحف بعدم مهاجمة الولايات المتحدة،

وعدم التعرض للحلف المركزي وازدادت قبضة الرقابة على الصحف وازدادت تدخلها في توجيه الصحافة ، فلم تعد تقتصر على مجرد حذف الاخبار او المقالات التي لا تغدّم حملة النظام بل تعدت ذلك الى تليفيق اخبار عن العراق وعن الاتحاد السوفيتي وفرضها على الصحف وتحديد المكان والصفحة والمساحة ونوع الحروف التي تنشر بها تلك الاخبار .

استدعى انور السادات سكرتير الاتحاد القومي في ذلك الوقت السيد خالد محيي الدين رئيس تحرير جريدة المساء في ٨ مارس ١٩٥٩ فرفض خالد محيي الدين الذهاب اليه في مكتبه، فارسل السادات قوة من المخابرات احضرت خالد محيي الدين شبه مقبوض عليه الى مكتبه .

قال له السادات : ان الرئيس عبدالناصر يطلب منك الكتابة ضد العراق وضد الشيوعية : فلما رفض خالد محيي الدين ، قال له السادات : « ان هذا الرفض يعني انك مستقيل من رئاسة التحرير » فاجاب خالد : « نعم انا مستقيل » . وعين مصطفى المستكاوي وهو احد ضباط المخابرات رئيسا لتحرير المساء .

كان قد اعتقل في حملة يناير ثلاثة من محرري جريدة المساء ولكن ذلك لم يرهّب بقية المحررين الشيوعيين والتقدميين في الجريدة بل ظلوا يناوئون الرقابة ويتحايلون عليها ويواصلون تحرير الجريدة وتوجيهها وجهة وطنية ديمقراطية بأقصى ما يستطيعون من جهد . وعلى اثر كلمة لسكرتير التحرير الاستاذ سعد التائه عن ضرورة الوحدة الوطنية وضم الصفوف في مواجهة الاستعمار ، القي القبض عليه هو الاخر في ٧ يناير وسيق الى المعتقل، ولم يرهّب ذلك بقية المحررين ، ولم يلق احد منهم قلمه ولم يسلم احد منهم ضميره ، فقامت السلطات بفصلهم جميعا من وظائفهم بالجريدة ، ووضعت مكانهم عددا من الصحافيين التابعين لها .

لقد ظلت تلك الجريدة لمدة سنتين ونصف منارة للفكر التقدمي في مصر ، تسطع على صفحاتها كلمات الكتاب الوطنيين والديمقراطيين ، وعلى اثر محادثة تليفونية بين عبدالناصر من دمشق والمشير عبدالحكيم عامر في القاهرة ، قال له فيها عبدالناصر ان محرري المساء لا يقفون معه وانه لا بد من تطهير تلك الجريدة ، امتد ظل راية مكافحة الشيوعية الاسود اليها وتحولت الى بوق رجمي يردد نفس ما تردده ابواق الدعاية الاستعمارية ضد الشيوعية وضد المعسكر الاشتراكي .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه عبدالناصر يصعد حملته على الشيوعيين

في خطبه التي اتسمت بمصيبة حادة بعد فشل مؤامرة الشواف ، كانت الباحث العامة في مصر تنظم المظاهرات من الشراذم المأجورين لتجوب الشوارع تهتف ضد الشيوعية وضد السلام وضد الاتحاد السوفيتي . واخذت الصحف المصرية تومئ ايماءات خبيثة باستباحة دم الشيوعيين محروسة على ذبحهم مستعينة على ذلك بفتاوى من بعض رجال الدين المأجورين ولكن الشعب الطيب الذي عرف الشيوعيين لم يستجب اطلاقا لتلك التحريضات الاجرامية .

وهنا نجد الاشارة باعتراز لموقف كلية الاداب بجامعة القاهرة وكلية الفنون الجميلة . اللتين رفض طلبتهما الانضمام لتلك المظاهرات المفتعلة . ومما له دلالة خاصة ذلك الحادث الذي وقع للمناضل محمد علي فخري في مدينة بني سويف ، حيث نظم بعض المأجورين مظاهرة انجذب اليها بعض البسطاء المتدفعين ، وحاصروا منزله ، فخرج اليهم ، وخاطب وشرح لهم الى اين يستدرجهم اولئك الاستفزازيون المأجورون فانفضت المظاهرة . وفي المساء حضر بعض ممن اشتركوا في تلك المظاهرة الى منزله واعتذروا له عما بدر منهم .

في ذلك الوقت كان مكتب زكريا محي الدين (١) مضاء حتى ساعة متأخرة من الليل وهو مجتمع برجال مكتب مكافحة الشيوعية لاعداد القوائم باسماء من يجب القبض عليهم .

وفي ٢١ مارس بدء في اخلاء سجن القلعة من المعتقلين الموجودين به تمهيدا لاستقبال المعتقلين الجدد ، فاطفئت الانوار في منطقة القلعة بأسرها ، وقيد المعتقلون كل اربعين بسلسلة واحدة ، ثم حشروا في سيارات مغلقة مغطاة تغطية كاملة بستائر من قماش سميك ، وسار ذلك الموكب الاسود تحوطه عربات البوليس المسلحة متجها الى محطة سكة حديد الجيزة .

كان الميدان امام المحطة . قد تحول الى شيء اشبه بميدان قتال . فقد حظر التجول في المنطقة ، واخليت المقاهي من روادها وصدر امر السى المنازل باغلاق نوافذها المظلة على الميدان ، واصطف الجنود في ملابس الميدان مسلحين بالبنادق سريعة الطلقات ، ومدافع البرن : جنود ينبطحون

---

(١) وزير الداخلية في ذلك الوقت ، وقد اختلف معه عبدالناصر فيما بعد بسبب الاتجاهات اليمينية المتطرفة والموالية للغرب التي كشف عنها زكريا محي الدين .

مصوبين اسلحتهم ٠ او خلف مدافع البرن ، وفي وضع استعداد ، وصفوف من الجنود اصابعهم على ارندة بنادقهم .

كل شيء كان مهيبا للايحاء للمعتقلين انهم سائرون الى الموت .  
وفي قطار خاص ، في عربة مغلقة لا مقاعد فيها ولا نوافذ ، اللهم الا كوات مغلقة بانقضبان، قطع المعتقلون تلك الرحلة الطويلة الى سجن الواحات الخارجة ، على بعد ثمانمائة كيلومتر من القاهرة في الصحراء الغربية واقرب نقطة اليه على النيل تقع على بعد ٢٠٠ كيلومتر .

وعلى باب سجن الخارجة الذي وصل اليه المعتقلون في مساء اليوم التالي ، كان اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون ، وعدو الشيوعيين رقم واحد في تلك المصلحة ، ينتظر على راس قوة ضخمة من الجنود المسلحين وقفوا صفوفًا ، وسار المعتقلون بين تلك الصفوف الى داخل السجن ، حيث جردوا من امتعتهم وملابسهم ، والقي بهم كل اربعة عشر في زنزانة ضيقة ، فراشهم بطانيتين وحصير رقيق من اللوف (برش) ومتاعهم جردل لمياه الشرب ، واخر اللبول ، والزنزانة مغلقة ليل نهار ، لا تفتح الا بضع دقائق في الصباح للذهاب الى دورة المياه .

وفي فجر يوم ٢٨ مارس تحركت قوات الامن المصرية في كل ركن من اركان مصر ، في المدن والريف ، من الاسكندرية الى اسوان فهاجمت خمسمائة منزل . وبدا معتقل القلعة يستقبل افواج المعتقلين الجدد . لقد صدق ما حذر منه بيان الحزب الشيوعي المصري في ٩ يناير ١٩٥٩ من ان الحملة ضد الشيوعية هي حملة ضد كل القوى الوطنية والديمقراطية ، اذ ضمت حملة الاعتقال الاخيرة الى جانب المئات من الشيوعيين ، عشرات وعشرات من العناصر النقاوية الشريفة والشخصيات الديمقراطية وانصار السلام وعددا كبيرا من الصحفيين الديمقراطيين والتقدميين الذين كانوا يعملون بمجلة روز اليوسف والرسالة الجديدة ، وبصحفتي الجمهورية والشعب ، وكل محرري القسم الخارجي بجريدة المساء ، كما ضمت هذه الحملة ولاول مرة في تاريخ مصر عشرات من الانسات والسيدات ، امهات، وطالبات ، وموظفات زج بهن جميعا في سجن القناطر الخيرية حيث يقين يعانين الاعتقال دون تحقيق قضائي او محاكمة لمدة اربع سنوات .

ولقد شهدت الشهور التي تلت حملة مارس عملية غريبة لم تشهد بلادنا لها مثيلا من قبل ، تلك هي عمليات الاختطاف .

كانت دوريات المباحث العامة تجوب شوارع القاهرة والاسكندرية



والمدن والقرى في عربات خاصة وفي كل يوم تنقض هذه العربات على بعض المواطنين وتحملهم الى معتقل القلعة او الى ادارة المخابرات او الى دار المحافظة حيث يجري عليهم التعذيب بهدف استخلاص اعترافات منهم .

واصبح حتى كل من تصادف في فترة من حياته ان كان يحمل رابا سياسيا ذا ميول ديمقراطية يخشى على نفسه ان تنقض عليه احدى تلك السيارات لتختطفه اثناء سيره .

ولقد تم اختطاف عشرات بهذه الصورة . اختطف فيليب جلاب المحرر بالمساء اثناء سيره بشارع النيل في ١٣ ابريل ١٩٥٩ ، واختطف مؤلف هذا الكتاب وكان محررا سياسيا بجريدة المساء اثناء سيره بشارع رمسيس في التاسعة من مساء ٢٧ يونيو ١٩٥٩ .

واختطف فخري لبيب ونبيل صبحي من ضاحية مصر الجديدة ، واختطف الدكتور حسين كمال الدين المحرر العلمي بجريدة المساء من وسط زوجته واطفاله وهم على شاطئ البحر بالاسكندرية كما اختطف بنفس الاسلوب المناضلون عدلي جرجيس ، ومحمد مختار جمعة ، عبدالله كامل، منصور زكي ، وعشرات غيرهم .

وفي الاول من ابريل ١٩٥٩ بدأ ترحيل مئات المعتقلين الذين ازدحم بهم سجن القلعة الى معتقل العزب بالقبوم . .

## الفصل الثالث

### أكذوبة

وصل عدد الذين ساقتهم اجهزة الامن الى المعتقلات والسجون فيما بين يناير وابريل ١٩٥٩ حوالي سبعمائة مواطن . ومع ذلك فلقد كان الناس في كل مكان يتداولون قصة ان اختلفت في تفاصيلها من حي الى حي ، ومن مدينة الى اخرى فانها في كل اشكالها تدور حول محور واحد ، هو ان عبدالناصر استدعى كبار رجال مكافحة الشيوعية في مصر وانها عليهم تعنيفا وتوبيخا ، لانه برغم ذلك العدد الهائل من ابناء الحزب الشيوعي ومن المناضلين الديمقراطيين والناقلابيين الذين اعتقلوا ، كانت منشورات الحزب الشيوعي المصري وبياناته واسعة التداول في المدن والقرى .

لم يكد يمر الاسبوع الاول بعد حملة يناير الا وكان بيان من السكرتارية المركزية للحزب ، والمشهور ببيان ٩ يناير ، في ايدي ابناء الشعب في المدينة والريف يحذر من سياسة مكافحة الشيوعية ويبين ان تلك السياسة موجهة في الاساس ضد الحياة الديمقراطية وضد حريات الجماهير بهدف تثبيت النظام الديكتاتوري في مصر وسوريا ، كما حذر من ان تلك السياسة لا تبدأ الا من نقطة التقاء مع المستعمرين ، ولا يعني الاصرار عليها الا الانعطاف نحو الغرب والتهادن مع الامبرياليين .

ودعا البيان جماهير الشعب : عماله وفلاحيه ومثقفيه وكافة القوى الوطنية والديمقراطية الى تكوين جبهة وطنية ديمقراطية تعمل من اجل ديمقراطية الحياة السياسية في البلاد وديمقراطية الوحدة مع سوريا ، ورفع مستوى الجماهير المعيشي والثقافي .

وفي ٢١ فبراير صدر بيان اخر من السكرتارية المركزية يرد على

الخطاب الذي القاه عبدالناصر في العيد الاول للوحدة ، محملا عبدالناصر مسئولية تدهور حركة التحرير العربية ، ويدعو الى التضامن مع شعب العراق ، والى ديمقراطية الحياة السياسية ممثلة في الفاء حالة الطوارئ وانفاء الاحكام العرفية والافراج عن المعتقلين والمسجونين السياسيين ، واطلاق الحريات العامة واطلاق حرية التنظيم السياسي والنقابي ، ووضع دستور ديمقراطي عن طريق جمعية تأسيسية منتخبة انتخابا حرا مباشرا .

وفي النصف الاول من شهر مارس صدر بيان ثالث من السكرتارية المركزية يفصح دور النظام في مؤامرة الموصل ضد شعب العراق ، ويدعو الجماهير للنضال ضد التدخل في العراق بهدف تخريب التطور الديمقراطي لثورة ١٤ تموز .

وفي ابريل صدرت رسالة القاهرة تتحدث عن المعتقلات والسجون والتحقيقات التي تدور تحت اشراف المباحث العامة ، والرهائن من آباء وابناء وزوجات المناضلين الهاربين .

ونشطت اجهزة الحزب المحلية في اصدار المنشورات وكتابة الشعارات على الجدران ، وتضاعفت اعمال الاثارة والدعاية والتنظيم بين العمال والفلاحين ضد تزايد الارهاب .

لم يكن للفلاحين في جلساتهم امام دورهم في المساء ، ولم يكن للعمال وهم منصرفون من مصانعهم ، ولم يكن للطلبة في مدارسهم وكلياتهم ولم يكن الموظفين حينما يجتمعون على المقاهي ليلا ، لم يكن لهؤلاء جميعا من حديث سوى منشورات الشيوعيين ، وحملات القبض على الشيوعيين والانباء التي يلتقطونها من الاذاعات الاجنبية - فشعبنا لم يكن يثق فيما يتعلق بانبائه المحلية بالصحف ولا بالاذاعة المصرية - والانذار السوفيتي الذي رنح المعتدين في ١٩٥٦ واكذوبة الاعلام الرسمي حينما قال : ان الانذار جاء بعد ان توقف العدوان .

ان نظام عبدالناصر لم يخنه ذكاؤه بقدر ما خانته حينما انكر دور الانذار السوفيتي ، وحينما هاجم الاتحاد السوفيتي ، فالانذار وصدقة السوفيت حقائق في تاريخ شعبنا ، عاشها وما زال يعيشها .

.. ان عاملا هاما من شعبية عبدالناصر ومكانته لدى الجماهير كان يكمن في صداقته مع الاتحاد السوفيتي وتأييد الشيوعيين المحليين له ، وبانهيار هذه الدعامة انهار جانب هام من مكانته في قلوب المواطنين ، فصداقة السوفييت والشيوعيين كانت مطلبا شعبيا عند بداية الحركة الوطنية

بمد الحرب العالمية الثانية ، والعداء للشيوعية وللاتحاد السوفيتي لم يعرفه شعبنا الا مرتبطا باسماء السياسيين المعادين للشعب من امثال اسماعيل صدقي و ابراهيم عبد الهادي وعلي ماهر ومرتبعا بالنظام الاقطاعي وعلى قمته الملك المخلوع فاروق .

ومن هنا كان حماس الناس لبيانات الحزب الشيوعي ، ومن هنا كان تناولهم في شماتة لقصة غضب عبدالناصر على رجال مكافحة الشيوعية . ومن هنا كانت ضراوة حملة البحث عن الهاربين من المناضلين من اعضاء الحزب الشيوعي .

## الفصل الرابع

### أريد جثة ولدني

وكان العشرات من اعضاء الحزب الشيوعي المصري قد افلتوا من حملات المباحث العامة في يناير ومارس .. وبينهم عدد من اعضاء اللجنة المركزية وعضائها الاحتياطيين ..

وانطلق رجال المباحث يتقبون عن الشيوعيين انهاريين في كل شبر من الجمهورية العربية .. احياء بأسرها كانت تحاصر بقوات الامن ويجري تفتيشها بيتا بيتا ، كانت القرى تحاصر ليلا باعداد غفيرة من السيارات المسلحة وبرجال الامن المسلحين بالاسلحة سريعة الطلقات ، ويجري تفتيشها ، كثير من الاباء والابناء والامهات والزوجات والاخوات كانوا يساقون الى مراكز البوليس ويلقى بهم هناك اسابيع رهائن تعارس ضدهم اسوا انواع المعاملة لارغامهم على الادلاء باماكن اقاربهم من المناضلين الهاريين ..

وفي قرية على مقربة من مدينة طنطا استطاعت قوات الامن ان تلقي القبض على المناضل الشيوعي الهارب محمد عثمان ، كما القت القبض في مكان اخر على عامل النسيج احمد عيد ، وعلى احد موظفي وزارة الصحة ويدعى سعيد النحاس ، واقتيد الجميع الى قسم اول بوليس طنطا . لقد احيط مكتب مكافحة الشيوعية المركزي في القاهرة علما بالقبض على الرفيق محمد عثمان فور وقوعه في يد مباحث طنطا .. اذ ان سقوط محمد عثمان في يد المباحث العامة كان يعني بالنسبة لرجال مكافحة الشيوعية امرا هاما .. فمحمد عثمان هو من الجيل الاول من الشيوعيين المصريين ، هو واحد من الطلائع الاولى التي رفعت راية الشيوعية في مصر في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، ومن ذلك الوقت ومحمد عثمان

يناضل في صفوف الطلبة حيث كان منتسبا بكلية التجارة ، ويناضل بعد ذلك بين صفوف الطبقة العاملة ، ويلقى القبض عليه في مايو ١٩٥٤ ، ويقدم للمحاكمة فيدافع عن الشيوعية امام المحكمة ويحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات . يخرج بعدها ليواصل النضال بين صفوف الطبقة العاملة متفرغا للعمل الثوري ، وهو واحد من الذين وضعوا نصب اعينهم الى جوار مهامه النضالية اليومية ، النضال بحزم من خلال المنظمة التي كان ينتمي اليها من اجل توحيد الشيوعيين المصريين في حزب واحد للطبقة العاملة .

حينما هاجمت البورجوازية الحزب الشيوعي المصري ، الذي تأسس في ٨ يناير عام ١٩٥٨ كان هو احد المسؤولين الحزبيين عن منطقة شبرا الخيمة ، ويسجل له بكل تقدير انه هو ورفيقه الشهيد رشدي خليل بادرا باصدار اول منشور حزبي من منطقتهم في ٣ بنابر ، اي بعد الحملة بيومين ، موجّهين فيه النداء لعشرات الالاف من العمال في منطقة شبرا الخيمة بالوقوف ضد حملة اعتقالات الشيوعيين ، شارحين الاخطار التي يتعرض لها الوطن وتعرض لها حريات المواطنين من جراء رفع راية مكافحة الشيوعية ، وعقب هذا المنشور تحركات السيارات المصفحة والدبابات لمحاصرة المنطقة ، وجد البحث عن الشيوعيين فيها وحينما اصبح وجود الرفيق في هذه المنطقة محفوقا بالخطر انتقل الى الوجه البحري حيث اسندت اليه اللجنة المركزية مسؤولية التنظيم الحزبي هناك . .

وهكذا يتضح لنا لماذا كان سقوط محمد عثمان في يد العدو امرا له اهميته بالنسبة لرجال مكافحة الشيوعية ، وبينما علم مكتب مكافحة الشيوعية المركزي بذلك كانت تعليماته لرجاله في طنطا هي الحصول منه على خريطة التنظيم واماكن الهاربين باي ثمن . .

ان كلا من احمد عيد وسعيد النحاس ، اللذين القي القبض عليهما في نفس المنطقة يحكيان ما حدث لهما منذ القاء القبض عليهما . .

لقد طلب منهما البكباشي انور منصور رئيس مباحث طنطا ان يقدموا اعترافا بان محمد عثمان هو المسئول الحزبي لهما ، فلما رفضا ، ادخلا ، واحدا بعد الاخر ، الى غرفة مغلقة ، بها اثنا عشر جنديا بيد كل منهم هراوة غليظة انهاوا على كل منهما ضربا حتى يعترفا ، ولكنهما صمدا للضرب ولم يعترفا .

الا ان التعذيب الوحشي المركز كان من نصيب محمد عثمان ، الذي

استهان بتهديدات رجل المباحث ان لم يدل له باماكن الهاربين ويعطيه خريطة القوات الحزبية في تلك المنطقة .. ادخل محمد عثمان الى تلك الفرفة . وانهار عليه زبانية انور منصور ضربا بالعصي الفليضة وبكعوب البنادق والاحذية . وكلما سقط مفسيا عليه القوا على وجهه الماء ليفيق ، ثم يسأله ضابط المباحث ان كان سيترف فيجيب بالرفض ، فيأمر رجال المباحث باستئناف الضرب .. واستمرت تلك العملية الاجرامية حتى الرابعة صباحا الى ان فقد محمد عثمان النطق . فألقوا به في مؤخرة احدى السيارات اليوليسية ووضعوا الاثنىن الاخرين في سيارة اخرى ، وانطلقوا بهم الى القاهرة ، وامام ادارة المباحث العامة في شارع خيرت توقفت السيارات ، وانزلوا الرفيق الشهيد محاولين اسناده ، ولكنه سقط منهم فجره الحراس من قدميه على الارض حتى وصلوا به الى حجرة في قبو اسفل مبنى المباحث العامة .

وفي تلك الحجرة حاول رجال المباحث العامة ان يعيدوا الى الرفيق وعيه حتى يعاودوا استجوابه ، ولكنه كان قد لفظ اخر انفاسه .. وفي الظلام نقلت الجثة الى مكان مجهول ..

ان الام العجوز المريضة لا تزال تلح عليهم ان يرشدوها الى قبر ابنها .. ولكنهم يرفضون ، بل وهددوها اكثر من مرة باعتقالها ان لم تكف عن الحاحها . وقدمت الام طلبا الى النائب العام تطلب فيه تسليمها جثة ابنها والتحقيق في مقتله ، ولكن النائب العام اشر على الطلب بأن يهمل .. والمحاكم رفضت ان تأمر بالتحقيق في تلك الجريمة . حينما سجل الشيوعيون الذين حوكموا امامها وقائمها طالبوا بالتحقيق فيها . والام العجوز المريضة لا زالت تسعى بين المباحث العامة ومكتب النائب العام ومقابر المجهولين .. تسأل عن ابنها ..

لقد سلمت جثث الشهداء الذين سقطوا بعد ذلك الى ذويهم ولكن لا زالوا يرفضون الادلاء بكلمة واحدة عن جثة الشهيد محمد عثمان .. والسؤال عند رفاقه الان ، هل اذيت في الاحماض من ذلك النوع الذي اذيت فيه جثة الرفيق الشهيد فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني ، الذي قتل في احد سجون دمشق تحت وطأة التعذيب بعد ان القي القبض عليه في ظروف غامضة .

هل مزقت جثة محمد عثمان كما مزقت جثة فرج الله الحلو حتى يسهل ذوبانها في الاحماض ؟ ..

## المصّل الخامس

### الباستيل الجديد

كان صوته يرتمش وهو يلقي خطابه في احدى فرق الجيش بالمباسبية في ابريل ١٩٥٩ ، كانت الكلمات تخرج من بين شفثيه مصطكة وهو يقول : « ساقضي على هؤلاء انعملاء ، وسالقم الشيوعيين درسا لن ينسوه . » .  
كان الخطاب والرمشة التي خرجت بها كلماته لا يبطيان الا انطباعا واحدا . . .

ان جمال عبد الناصر يخوض معركة حياة او موت بالنسبة لنظامه ، انه فير واثق من نتيجة المعركة خاصة وقد خسر جولة هامة فيها وهي انقلاب الموصل الذي كان يستهدف من ورائه اقامة نظام موآل له على انقاض الحريات ، وعلى انقاض الحزب الشيوعي والقوى الديمقراطية في العراق . . كان النظام يخوض معركة انتحارية تخلى فيها عن كل عرف وقانون ، كما تخلى فيها عن كل التزاماته الادبية ازاء الراي العام المحلي والعالمي ، وعن كل التزاماته بمقتضى المعاهدات والمواثيق الدولية التي وقعتها الدولة من اتفاقية مونترو الخاصة بالمتعقلين السياسيين واسرى الحرب ، الى وثيقة حقوق الانسان . .

لقد دخل النظام واجهزته تلك المعركة متخليا عن كل ما ينبغي ان يتحلى به نظام متمدين في النصف الثاني من القرن العشرين .

كان عبد الناصر يتجه بخطابه هذا ذي الكلمات المرتعشة الى قوات الجيش ، لانه كان قد نقل المعركة الى داخل الجيش .

لم يكن النظام من الثقة بمركزه للدرجة التي يستطيع بها اجراء عمليات الاعتقال داخل الجيش بصورة علنية ، فاولئك الذين طلبت ادارة المخابرات



العامة القاء القبض عليهم من المجندين كانوا يتمتعون بثقة وحب كافة زملائهم المجندين ، وكانت اية محاولة للقبض عليهم داخل وحداتهم كفيلة باثارة المتاعب . . وكثيرون منهم كانوا نشيطين في كافة المجالات وخاصة في المجالين الثقافي والسياسي ، فلقد قاموا باصدار جرائد حائط في وحداتهم يقدمون عليها تعليقاتهم السياسية على الاحداث وموضوعات تعالج الكثير من المشاكل المحلية الخاصة بالجنود او المشاكل القومية المتعلقة بقضايا الوطن المختلفة . . وحينما احس اولئك المجندون ، ان النية مبيتة للقبض عليهم كانوا يتحركون بكل نشاط داخل الوحدات شارحين المخاطر التي يتعرض لها الوطن بسبب سياسة مكافحة الشيوعية ومعاداة الديمقراطية والانعطاف نحو الغرب تحت شعار انتهاء المعركة مع الاستعمار وبدء الحرب ضد الشيوعية ، كما فضحوا الاخطار التي تهدد حركة التحرر العربي بسبب سياسة التآمر على الثورات الوطنية لاختضاعها للنموذج الناصري مثل ما حدث بالنسبة لثورة العراق ، مما كون حولهم رأيا عاما قويا داخل وحداتهم . .

هذا بالاضافة الى الاحترام الذي اكتسبته الاشتراكية كحليف للشعوب المناضلة بين رجال جيشنا وخاصة بعد ان اخذت البلدان الاشتراكية تمد جيوش البلاد المناضلة ، ومن بينها جيش بلادنا بالاسلحة الحديثة . هذا الاحترام تأصل في النفوس بحيث لم يكن من السهل تقبل هذا التحول المفاجيء في سياسة عبد الناصر .

لكل هذه الاعتبارات وجدت المخابرات العامة ان مهمتها في اعتقال رجال الجيش الموضوعين في قوائمها السوداء لن تكون بالامر الهين وانها لا بد وان تلجأ الى الخديعة لانجاز تلك المهمة .

## ١ - الوجه الآخر

استدعي الجنود الذين طلبت المخابرات اعتقالهم الى مكاتب قادة الوحدات ، وابلغوا انه قد صدرت اوامر بنقلهم الى وحدات اخرى وعليهم ان يحزموا امتعتهم استعدادا للانتقال الى الوحدات الجديدة .

لم تتوجه السيارات التي اقلتهم الى الوحدات الجديدة التي قيل انهم قد نقلوا اليها ، ولكن ذهبت بهم الى ادارة المباحث الجنائية العسكرية في ميدان قصر عابدين .

وتحتل تلك الادارة مبنى بديعا مهلبا يوحى مرآه انه قد مسته اخر لسات المدينة . ولكنه من الداخل شيء بشع . . ان مجرد ذكر اسم تلك

الإدارة يثير الفزع ، او هذا ما تريد اجهزة القمع ان تدخله في روع الناس ،  
اذ تروج بين افراد القوات المسلحة اقاويص شتى حول تلك الادارة ، كلها  
تشير الى ان من يدخلها متهما لا يخرج منها حيا . . .

وصلت الدفعة الاولى من المعتقلين وعددهم عشرة ، فاستقبلهم  
ضابط تحيط به جماعة من انجنود ضخام الاجسام ، وبادرهم قائلا : انتم  
لسه عايشين ، حظكم كويس ، الدفعة التي قبلكم اعدمت بالرصاص في  
الصحراء . كان المقصود بذلك طبعاً هو ارهابهم قبيل التحقيق ، ثم سيقوا  
فورا الى قبو في اسفل المبنى حيث اجبروا على مشاهدة بعض الجنود ممن  
ارتكبوا جرائم مختلفة كالهروب من الخدمة تمارس عليهم انواع مختلفة من  
التعذيب . وصراخهم يدوي بين جدران القبو . وجرى تفتيش المعتقلين  
وسط مظاهرة هستيرية ، فلدى العثور على اية ورقة عادية ، خطاب عائلي  
مثلا او مذكرة ما تصايحوا « لقد وجدنا الخطة الصهيونية » او « هذا هو  
الدليل على انه جاسوس اسرائيلي » او « ها هي خطة الانتقالات في الجيش »  
ثم يعقبون « لقد وقعتم ولن تخرجوا احياء » .

القي بكل واحد من المعتقلين في زنزانة اسفل المبنى يحرسه من الداخل  
جنديان ومن الخارج جنديان مسلحون بالبنادق سريعة الطلقات والصرخات  
المتقطعة تنبعث من غرفة التعذيب ، ومن حين الى اخر يرتفع صوت من  
خارج الزنازين صائحا : « ان من يقدم اعترافات كاملة هو الذي يضمن الخروج  
حيا من هنا » .

استدعي المعتقلون واحدا اثر الاخر الى غرفة المدير العام للمباحث  
الجناية العسكرية ، البكباشي حسين عرفه ، والذي جلس الى مكتب فاخر  
وامامه يقف المعتقل بين مجموعة من الجنود فارعي الاجسام ضخامها ،  
يرتدون ملابس خفيفة تكشف عن عضلات قوية لا يكفون عن استعراضها  
. . . وتبدأ اسئلة البكباشي حسين عرفه : « هل في اسرتك او معارفك  
واحد من الشيوعيين او انصار السلام ؟ » ، « هل قابلت في حياتك واحدا  
من الشيوعيين ؟ » ، « هل انت شيوعي ؟ : « هل تحب روسيا ؟ » ، وبإشارة  
من البكباشي حسين عرفه ينهال اولئك « الفتوات » ضربا على المعتقل اذا لم  
ترق اجاباته لمدير المباحث الذي يختتم استجوابه بقوله : « لا تظن انكم  
ستخرجون احياء . . . سنرسلكم الى مكان حتى اللباب لا يعرف اليه  
طريقا ، واذا قدر لاحدكم ان يخرج حيا فلكي يرى اخر شيوعي في العراق  
وهو يموت » .

ان هذا البكباشي الدموي ، حسين عرفه ، مدير المباحث الجنائية العسكرية واحد البارزين في مخابرات النظام والذي يجري هذا التحقيق المكارثي ، هو بعينه الذي اوفده النظام الناصري رئيسا لوفد مصر في مؤتمر الشباب العالمي بوارسو عام ١٩٥٥ ، وهو احد المشرفين على تجارة مصر الخارجية ، والقصص كثيرة في الاوساط المالية عن عمليات تهريب واسعة النطاق يقوم بها لصالحه ولصالح من يدفع الثمن .

قضى المعتقلون العشرة على هذا النحو عشرين يوما ، الزنازين مغلقة عليهم ، ليل نهار ، الصراخ ينطلق بلا انقطاع من غرفة التعذيب . الشتائم والكلمات الاستفزازية .. الضرب في كل مرة يستدعى فيها المعتقل للتحقيق ... احد الضباط يلقي بمسدسه للمعتقل ويسبح به « انتحر ، فالانتحار اهون عليك من المصير الذي ينتظرك » .

ورغم كل هذا انتهت هذه الجولة بفشل رجال المباحث الجنائية العسكرية اذ لم ينطق واحد من المعتقلين بكلمة ...

في هذه القلاع التي ، رغم مظهرها المتمدين ، تعيش من داخلها اساليب العصور الوسطى ، حشد النظام لممارسة التعذيب والارهاب جنودا تلقوا تدريبات خاصة تنتزع منهم كل المشاعر والنوازع الانسانية ولكن حتى في هذه البقع حالكة السواد كان هناك رجال لم يستطع النظام ان يجردهم من طباع شعبنا وسماحته ، وحيه وتقديره للذين يواجهون الاهوال كرجال .. بل كان هناك ايضا من يحملون للشيوخيين ما يحمله شعبنا لهم من تقدير ... في وسط هذا الظلام كانت هناك ايد طيبة تمتد خلسة في المساء للمعتقلين بالطعام الذي منع عنهم ، او بالماء .. بكلمة تشجيع .. باخبار ما يبث لهم .. او يحكون لهم عن اعجاب الجنود الذين يعملون في الادارة بشجاعتهم وصمودهم ..

وكانت لحظة لن ينساها هؤلاء الرفاق ، حينما فوجئوا بحراسهم الذين كانوا يبدون غاية في الفلظة يحتضنونهم ، ويعتدرون عما بدر منهم من تصرفات عنيفة ، فالوامر والارهاب يجعلون الناس ، يعيشون بطبيعة غير طبيعتهم .. وبعد ذلك الوداع السريع ، اقتيد المعتقلون خارج زنازينهم وسار بهم حرس مدجج بالسلح الى الخارج .. وعلى طول طرقات المبنى كانت هناك عيون تطل عليهم بنظرات الاسى ، ومن هنا او هناك كان هناك من يلوح بيده من الحراس خلسة ، وبحركة خفية مودعا ومشجعا ...

ومن بعيد ، وفي ركن قصي وقف بعض الحراس يلوحون بايديهم خلسة

لرفاقنا العشرة وهم يصعدون الى سيارة حربية كانت تنتظر امام الادارة، كان الحراس يحاولون التزود بنظرة اخيرة من المعتقلين قبيل رحيلهم الى مصير لا يعلمونه ، كان من بينهم من لم يستطع ان يحبس دموعه، وآههم رفاقنا وهم يرفعون مناديلهم الى عيونهم ليخفوا قطرات دمع تساقطت منها . . كل شيء كان يشير الى ان المصير الذي يسرون اليه مصير رهيب جعل اغلظ الحراس يودعونهم بنظرات حزينة .

انطلقت السيارة تخترق شوارع القاهرة ، ورفاقنا يلتهمون باعينهم كل ما يمرون عليه . . الشوارع ، الواجهات الزجاجية . . الاعلانات الكهربائية . . الحدائق والناس . . الاطفال والنساء . . فاقد تملكهم شعور انهم لن يروا من كل ذلك شيئاً . . والحراس الذين معهم في السيارة يرقبون كل ذلك ويتألمون ولا يملكون الا كلمات التشجيع . . « شدو حيلكم » .

خرجت السيارة من القاهرة ، واطبق رفاقنا اعينهم على اخر صورة منها ، والسيارة تنعطف بعد العباسية الى داخل الثكنات ، وتظل تتجول بهم من ثكنة الى اخرى مدة ساعتين ، تخرج بعدها الى الصحراء .

وظلت تسير ، ولا يبدد السكون سوى صوت المحرك . . وفي داخل العربية قلق . . وترقب . . واعصاب متوترة . . وافكار شتى تراود اذهان المعتقلين العشرة . . وصور كثيرة تتراعى لهم . . وتلج على خيالاتهم دورهم التي خلفوها ، بها ام او اب . . واخوة واخوات . . واماكن ارتادوها مع اصدقاء او خطيبات . . ورفاق هاربون . . يناضلون في اقصى الظروف ويوصلون كلمة الشيوعية بكل وسيلة الى الناس في بلادنا . . حتى يؤكدوا ان الشيوعية لم تمت ولن تموت في ارضنا . . . . . وبعد بضعة كيلومترات مرت السيارة ببوابة عسكرية عليها حراسة مشددة ، وبعد فترة اخرى مرت ببوابة ثانية . . ثم ثالثة ورابعة . . وادرك رفاقنا الى اين يساقون . . فامام البوابة الاخيرة توقفت السيارة ، واستطاع الرفاق ان يقرأوا في اعلاها لافتة كبيرة كتب عليها بحروف كبيرة .

## ( ٢ - السجن الحربي )

هاتان الكلمتان لم تكونا لتعنيا اي شيء غير عادي قبل يوليو ١٩٥٢ فلم يكن السجن الحربي سوى سجن كفيره من السجون ولكنه مخصص لرجال الجيش الذين تصدر ضدهم احكام من المجالس العسكرية .  
ولكن منذ جاء الناصريون الى الحكم في ٢٣ يوليو اكتسب هذا السجن

سمة سيئة في طول البلاد وعرضها . فلقد غدا بالنسبة لمصر بعد ٢٣ يوليو كما كان الباستيل بالنسبة لفرنسا ما قبل الثورة . لقد غدا هذا السجن مكانا يمارس فيه النظام عمليات التأديب والانتقام ضد كل معارضيه .

لم يكن قد مر على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اكثر من شهرين حينما سيق الى هذا السجن اعضاء اللجنة التحضيرية لاتحاد عمال مصر في سبتمبر ١٩٥٢ على اثر العدوان الوحشي على عمال كفر الدوار وشنق العاملين البطلين مصطفى خميس ومحمد البقري ، على اثر الاضراب الذي قام به عمال كفر الدوار من اجل مطالبهم . . وفي ذلك السجن مورست عمليات التعذيب على اعضاء اللجنة التحضيرية لاتحاد عمال مصر لانهم احتجوا على اعدام خميس والبقري . . ولانثائهم عن المضي في تكوين الاتحاد . . والى هذا السجن سيق الصحفيون المعارضون للنظام ، ففي مارس ١٩٥٤ سيق احسان عيد القدوس رئيس تحرير مجلة روز اليوسف انذاك اسى السجن الحربي لتأديبه على اثر مقال كتبه عن « العصابة السرية التي تحكم مصر » منددا باتجاه مجلس قيادة الثورة غير الديمقراطي ، ومن يومها الى احسان عيد القدوس بكل ثقله خلف النظام وتخلي عن كل آرائه السابقة

والى هذا السجن ايضا سيق عبد الرحمن الشراوي الكاتب المعروف لما لسوا فيه من اتجاهات مناوئة لهم عام ١٩٥٤ ، وفي اعقاب محاولة احد اعضاء جماعة الاخوان المسلمين اغتيال جمال عبد الناصر في اكتوبر ١٩٥٤ سيق الى هذا السجن ما يزيد على ٨٠٠ من اعضاء هذه الجماعة، ومورست عليهم عمليات التعذيب الجماعي راح نصحيتها عشرات منهم دفنوا سرا . لقد كان في السجن الحربي يومها الصول محمد مختار جمعة تحت التحقيق لنشاطه الشيوعي . وقد شهد هجوما وحشيا بالسناكي والقضبان الحديدية على معتقل الاخوان المسلمين بعد ان قيدوا كل واحد منهم من خلف بقيد حديدي ، ومات يومها متأثرا بجراحه ستة من هؤلاء الاخوان واصيب حوالي ثمانون بجراح خطيرة ، وكان ذلك كله انتقاما منهم لان احدهم وهو يوسف طلعت اتهم في قضية الجهاز السري تجراً على ان يسجل امام محكمة الشعب العسكرية تفاصيل التعذيب الذي مورس ضده . . .

اما الصول محمد مختار جمعه فقد جلد على قدميه اكثر من الف جلدة ، وبات ليلتين في زنزانة محكمة عاريا وسط مياه تصل الى صدره، وكوي جسده بالاسياخ الحديدية المحماة لدرجة الاحمرار ، واطفئت اعقاب السجائر في اجزاء مختلفة من جسده وربط بين لوحين من الثلج حتى ذابا،

وعلق من قدميه وضرب بالسياط .. ومنع عنه الماء لمدة يومين .. كل ذلك لكي يوقع على قائمة اعدوها وقدموها له تحوي اسماء عدد من الضباط يريدون التخلص منهم ، وذلك باجباره على التوقيع تحت اسمائهم بانهم اعضاء شبكة شيوعية داخل الجيش ... ورفض ..

ان السجن الحربي معرض لكل اساليب التعذيب البدني والنفسي تقف على راسها ما يسمى « طاقية الثورة » وهي عبارة عن طوق حديدي تحاط به رأس الضحية ثم يقفل بمفاتيح زمبركية حتى يضغط تماما على الراس وهنا تبدأ المساومة مع الضحية فاما الاعتراف او مزيد من احكام العتق وتزداد لغات المفتاح حتى يكاد ذلك الطوق بنفوس في عظام الجمجمة، ان كل من مورست ضده هذه العملية البشعة انتهى امره بالجنون ..

والكلاب الوحشية المدربة التي تطلق على الضحية فتلقيه ارضا وتأخذ في نهش لحمه .. والكي بالكهرباء .. لقد تحول هذا السجن الى مكان تنبعث منه على الدوام رائحة الارهاب ، ولم تعد هذه المعاملة الهمجية قاصرة على الخصوم السياسيين بل حتى على الجنود المحكوم عليهم بعقوبات يقضونها في السجن الحربي ، حيث ينهال الضرب والتعذيب على كل منهم لى وصوله السجن الحربي ، ولا يتوقف الا اذا اختار لنفسه اسم انثى لكي ينادى به طول اقامته في السجن ...

ان العمليات الانتقامية تصل الى حد اجبار الجنود المعاقبين على التخلي عن رجولتهم ...

في عام ١٩٥٤ تمكن ثلاثة من هؤلاء الجنود من الصعود الى سطح السجن وظلوا هناك الى ان حضر الصاغ حمزه البسيوني قائد هذا السجن فألقوا بانفسهم من سطح السجن الى الارض وسقطوا جثا هامة احتجاجا على ما لاقوه من معاملة مخزية ...

وفي عام ١٩٥٩ وبينما كان رفاقنا الشيوعيون في ذلك السجن تمرد الجنود الذين يقضون عقوباتهم به .. وتم اخماد تمردهم بكل وحشية وسقط من الجانبين في ذلك الصدام عشرات من القتلى .

ان هذا السجن هو الباستيل الذي يحلم الشعب بتحطيمه كأعلان عن نهاية الارهاب في مصر ...

نزل الرفاق العشرة من السيارة ، وتمائق ضباط الحرس المرافق لهم مع ضباط السجن الذين كانوا في الانتظار ، وارتفعت ضحكاتهم وتعليقاتهم كلها استخفاف واشمئزاز ... ثم بدأت « حفلة الاستقبال » ...

و « حفلة الاستقبال » هذه هي احد المراسيم التي لا بد من القيام بها عندما يصل وارد جديد الى السجن الحربي ، وهناك فرقة خاصة مكونة من ستمائة جندي مخصصة لهذه « الحفلات » .

حينما خطا رفاقنا المشرة باب السجن برز عشرات من الحراس فارعي الطول ، ضخام الاجسام وانهالوا على الرفاق العشرة بكرابيح من السلك المجدول وبالعصي الفليضة .. ضربا .. ضربا متصلا : على الوجه ، على الراس ، على الرقبة ، على الصدر ، على اي مكان بلا تمييز ، كانوا يضربون وكان ضرباتهم لا تهوي على اجساد بشرية لها طاقتها المحدودة على الاحتمال .. ومن كان يسقط ارضا كانت تنهال عليه ركلات الاحذية العسكرية الثقيلة ، في وجهه ، وبطنه ، ومن فقد الوعي كمن لم يفقده .. لا يعفيه هذا من سيل الضربات المنهمر .. وينادي الحراس المكلفين بالاستقبال زملاءهم ايشاركوهم ذلك الحفل .. ومن كان يمر من الحراس ويشهد ذلك الحفل كان يتقدم متطوعا للمشاركة فيه ، ففي هذا المكان تجري عملية من اخس ما عرفه التاريخ . ان النظام يشترى من الحراس آدميتهم ويمنحهم ما يسمى «علاوة اجرام» زيادة على راتبهم الشهري ، وتزداد قيمة تلك العلاوة بقدر ما تتزايد بشراسة الحارس ، ويقدر ما يشهد له رؤساؤه ، بقلظة الطباع وقسوة القلب .. سباق في التخلص من الطبيعة الادمية من اجل بضعة جنيهات تساعد هذا الحارس او ذلك على اعالة أسرته ..

وتنتهي الفقرة الاولى من برنامج الاستقبال بالمعتقلين وقد تمزقت ملابسهم وتمزقت من تحتها جلودهم ، وتكسرت من تحتها ضلوعهم .. وسالت دماؤهم ، وفورا ودون ان يمنح الضحايا لحظة واحدة يستردون خلالها انفاسهم تبدأ الفقرة الثانية من الاستقبال .. مرحلة الضرب المنظم .. يلتف عدد من الحرس بالضحية ، ويلقونه ارضا ، وبما يسمى بالفلكة ترفع قدماه عاريتين ليضرب عليهما لا خمسين ، ولا مائة ، بل ثلاثمائة ، واكثر من ضربات الكرياج المصنوع من السلك المجدول .. ان الحارس الواحد لا يستطيع ان يضرب اكثر من خمسين كريجا يتخلى بعدها الحارس اخر ، والمعتقل المسكين مفروض فيه ان يتحمل مئات الضربات ..

والفلكة هذه عبارة عن عصا غليظة يتدلى من وسطها حبل مربوط بهما من طرفيها بحيث يتدلى فيما يشبه نصف الدائرة ، تدخل قدما الضحية فيها ثم تبرم العصا حتى يحكم وثاق القدمين جيدا بالحبل ، ويرفع العصا من كل من طرفيها احد الحراس فترتفع معها القدمان

مما يضمن بقاءهما في وضع ثابت تحت الكرياج ، واسم الفلكة اسم شائع في بلادنا منذ عهد بعيد ، ولا يتحدث مؤرخ عن الاضطهاد الذي لاقاه فلاحونا طوال القرون الا ويذكر الفلكة والكرياج . فايم الممالك حينما كانوا يمهدون لن سماوا في ذلك الوقت بالمتزمين بتحصيل الضرائب من الفلاحين ، كانت الفلكة والكرياج هي وسيلة اجبار الفلاح على الدفع ، او عقابه ان عجز عن الدفع .. وحينما وزع سعيد باشا الاراضي الزراعية على اقربائه ومعاويه ، وبدا هؤلاء يبنون القصور في الريف كان بكل قصر قبو تمارس فيه عمليات الجلد بالفلكة والكرياج لتأديب اي فلاح يأتي ما من شأنه اغضاب السيد سواء بالتقصير في العمل ، او بالامتناع عن تقديم زوجته او ابنته او اخته له . .

انتشرت الفلكة والكرياج بحيث لم تعد قاصرة على السادة اصحاب القصور بل انتقلت العدوى الى اغنياء الريف وعمد القرى ، فلجأوا الى وسيلة تأديب الفلاحين بالفلكة والكرياج .. ورغم القضاء على الكثير من اثار العصور الوسطى في بلادنا فما تزال الفلكة والكرياج باقيتين ، وكما كان السادة الاقطاعيون والعمد يؤدبون الفلاحون بهما في افنية القصور او في الدوار الملحق ببيوت العمدة ، كان النظام الناصري يؤدب معارضيه بهما . لقد ظل عمالنا يتحدثون طويلا عن ذلك اليوم من عام ١٩٥٣ حينما القي القبض على حوالي ٤٠ نقابيا كانوا قدموا عريضة بطالبون فيها باصدار قانون للتأمين ضد البطالة ، وذهب بهم رجال الامن الى وزارة الداخلية حيث علقوا جميعا واحدا بعد الاخر بالفلكة في فناء وزارة الداخلية ، وضربوا على اقدامهم تحت اشراف محمد وفاء حجازي ضابط المخبرات ومما يدعو للسخرية ان محمد وفاء حجازي هذا اصبح ممثلا لمصر في مكتب العمل الدولي التابع للامم المتحدة - ثم اخلى سبيلهم .

وبانتهاء الفقرة الثانية من حفل الاستقبال - اي الفلكة والكرياج - يزحف كل من المعتقلين الى زنزانة عارية تماما ، ولا يكاد يلقي بنفسه على ارضها الحجرية حتى يقفز الى داخلها وحشان .. كليان ضخمان مدربان ، ما يكاد الحارس يهوي بسوطه على رأس السجين حتى ينقض عليه الكلبان يعملان في جسده التمزيق ويأمر الحارس السجين بخلع كل ملابسه حتى يصير عاريا تماما . . ان قصص الاعتداء على رجولة من يلقي به حظه التمس الى هذا السجن كثيرة ، ولذلك فقد رفض الرفاق بكل



اصرار خلع ملابسهم ، فينهال الحارس بسوطه وتثور نائرة الكلاب على صوت السياط ، وتنقض مسعورة على السجين اتعص الى ان يرقد كومة لحم دائمة لا حراك فيها .  
وهكذا ينتهي حفل الاستقبال .

ان المعتقل ليس له بعد ذلك ان ينام نهارا او ليلا ، فكل نصف ساعة اثناء الليل ينادى على اسماء المعتقلين واحدا واحدا ، وعلى كل منهم ان يجيب بأعلى صوته « افندم » انا في زنزانة رقم .. وويل لمن يغلبيه النوم ولا يرد ... الحارس والسوط والكلاب مرة اخرى ..

اما النهار فيبدأ بفتح الزنازين في الصباح ، وجبة الفطور كما يسميها الحراس ، هي جولة اخرى من الحارس ، والسوط والكلبين .. وبعد ذلك يساق المعتقلون بالخطوة السريعة حاملين كل امعتهم الى فناء السجن تطاردهم سياط الحراس ، ويصطف المعتقلون ووجوههم الى سور الفناء واقفين في وضع « انتباه » ، ثماني ساعات ، من الثامنة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر ، تحت الشمس المحرقة ، والجروح التي لم تضمد ولم تحظ حتى بمن يفسل عنها ما علق بها من اتربة .. وبالملابس العسكرية الثقيلة .. ومن حين الى اخر يمر بهم من الحرس من يفاجئهم بضربات من سوطه ، وويل لمن يتحرك ..

كان سعيد الحظ من يقع منهم مفضيا عليه ، فعلى الرغم من ان ذلك كان يجلب له اثنين من الحرس ينهالون عليه ضربا بالسياط وركلا بالاحذية الا ان ذلك كان يعطي عضلات جسده ، فرصة ان تسترخي ولو للحظات بعد ان تصلبت بسبب تلك الوقفة .. ويمر بهم من يقول : ليس هنا ابطال .. البطل هو من يعترف ويقدم معلوماته ، كل من يعترف يخرج ونكافئه بالمال ايضا . لقد بلغ عدد من حشدوا في السجن الحربي من المجندين المعتقلين سبعين مجندا ، وكان بينهم من تهاوى تحت وطأة هذا التعذيب المركز ..

كانوا ياتون باولئك الذين انهاروا ليقفوا الى جانب الاخرين ، ولكن يسمح لهم بالوقوف في وضع « استرح » .. ان مجرد تلك الوقفة كانت تمثل حلما للذين يقفون « انتباه » . فالواقف طوال تلك الساعات الثمانية يوميا لا يفكر في شيء .. لا في الحياة .. ولا في الشارع .. لا يفكر في اهله ولا في اصدقائه ولكن تتركز كل احلامه وخيالاته في دقيقة ، بل في ثانية يربح فيها عضلاته بالاسترخاء في وقفته كما يقف

اولئك المنهارون .. وطبقا للتعليمات يتحدث اولئك المنهارون ، ويصل صوتهم الى الرفاق كفحيح الافاعي .. « لماذا تضحي بنفسك .. لماذا تحاول ان تكون بطلا ؟. لقد سمعت ان الكثيرين اعترفوا ونجوا بجلدهم .. اعترف .. اعترف .. ان الحياة حلوة .. لم يعد هناك امل .. لقد اعتقاوا الجميع .. ليس هناك امل .. لقد انتهى كل شيء .. وسنموت من اجل لا شيء .. لماذا تضحي بنفسك .. اعترف .. اعترف ... »

يقول رفيقنا الذي يروي قصة السجن الحربي : « لم يكن يمنعني من ان ابصق في وجه ذلك الذي يصدر هذا الفحيح الا ان لعابي قد حفر تماما فلا ماء طوال تلك الساعات الثمانية ، بل لا ماء طوال اليوم كله الا نصف كوب كنا نشربه ونحن نؤدي خطوة تنظيم عسكرية سريعة مما يجعل الماء يتناثر ولا ينال الواحد منه سوى قطرات ، ومن تسقط كوبه من يده فلا ماء له طوال اليوم ، طوال الاربع والعشرين ساعة بكل ما فيها من اجهاد واعياء .. كان هناك من استبد به العطش فتبول في حذائه وشرب بوله ... »

وبعد ايام جاء رجال المخابرات للتحقيق مع المعتقلين على رأسهم اليوزباشي شمس الدين بدران مدير مكتب المشير عبدالحكيم عامر . وجيء بالمعتقلين فوقوا صفا في حديقة امام مبنى ادارة السجن ، بها زهور جميلة ، بنفسج ، وقرنفل ، واركاديا ، وبها ورود يختلط اريجها برائحة الزهور بهواء الصباح الرطب .. لقد اخذ الرفاق يملأون صدورهم من كل ذلك .. وكان له فعل السحر .. وكأنه اشبع جوعهم .. وكأنه روى ظمأهم .. وكأنه غسل جروحهم من كل ما تجمع عليها من صديد ودم واطربة .. وواحدا بعد الاخر يدخلون المكتب ويخرجون ، انهم طبعاً يرفضون الكلام فيلقى بالواحد منهم بين تلك الزهور والورود ، لتنفض عليه الكلاب تمزق جسده ، وصوت يصيح : « الموت لمن لا يعترف » ، « لا شيوعية في بلادنا .. سنقضي على كل الشيوعيين هنا وفي العراق .. سنذبهم .. » . ان الامر يحتاج الى صلابة غير مادية حتى يواجه المرء ذلك التعذيب دون ان يفتح فمه .. ولكن المجند محمد طه ، وهو مثقف ريفي من الدقهلية ، حينما يأتي دوره يواجه شمس الدين بدران قائلاً : « انني احتج على هذه الاعمال الاجرامية .. انكم تنسبون للعراق كل الجرائم التي ترتكبوها هنا .. انكم تدعون ان هناك سحلا وذبحا في العراق ، بينما تمارسون انتم ذلك هنا ... » ويجن جنون شمس الدين

بدران ورجاله .. فهذه اول مرة تقريبا يسمعون فيها كلمات مثل هذه في السجن الحربي .. ولا يجب ان تمر في سهولة ، فان هذا يعنى ان سمعة السجن الحربي كمكان لاذلال اشجع الرجال ستندهور ...

لقد كان يوما من الايام المدودة في السجن الحربي .. حيث عربدت كل قوى الشر ، وانطلقت تعبت باجساد المجندين السبعين وبنال محمد طه النصيب الاوفى ، اذ يضرب ثلاثمائة كبرياج ثم يطرح ارضا ليركل بالاحذية ثم تطلق عليه اربعة كلاب ، ويقف شمس الدين بدران ، وحزمة البسيوني قائد السجن ، وحسن طاهر رئيس الامن الداخلي بالمخابرات يرقبون المنظر حتى اذا احسوا انهم قد غسلوا الاهانة يامرون بالقائه في زنزانه .. كتلة من اللحم تنزف دما وصديدا ، ولحظات رهيبة تلك التي عاشها بعد ذن .. « حينما استطعت تحريك احد ذراعي اخذت اتحسس جسدي ، فاذا بالجزء الذي لم يصب بجرح قد تورم ، واذا بالجرح الذي ينزف دما ينزف صديدا » .

« كان الالم يشتد بي لدرجة الجنون ، وكنت اتطلع حولي فأرى بقع الدم تلتطخ ارض الزنزانة وجدرانها ، دم ما زال حارا نزف مني ، ودماء قديمة سالت من تعساء ساقهم حظهم قبلي السى هذا المكان .. كنت اعلم انهم سيستدعونني بعد ساعتين او ثلاثة للتحقيق ، رغم ما بي ، وكنت اعلم انهم سيعاودون التعذيب .. كان الصوت الذي يشبه فحيح الاعمى يطن في اذني « الحياة حلوة .. لم تضح بنفسك ؟ ستموت ، ولن يذكر احد ، فلم يعد هناك احد ، لا امل .. اعترف .. اعترف .. »

وتبرز امام عيني صور العالم فيما وراء الاسوار .. شوارع القاهرة مليئة بالحياة .. النيل والكاзино الجميل عند اسفل الكوبري . والانوار تنعكس على صفحة الماء .. والاطفال والرجال والنساء .. واهلي .. وبلدتي .. وشبح كوب من شراب بارد .. ووجبة دسمة .. وسيجارة ، ويعود الطنين .. « الحياة حلوة » .

ولكن اذا ما خرجت .. ويقول كل من رأني اني اشترت الحياة بضميري .. وبحياة الآخرين الذين اعترفت عليهم .. اني زحفت الى الحياة تحت اقدام من يكون لسى الكراهية والعداء ، هل ستكون هذه حياة حلوة .. والذين منحوها لي هم احط المخلوقات ؟ . واصدقائي ورفاقي .. الذين عشت بينهم دائما رجلا .. هل ستكون الحياة

حلاوة ، وانا اعيشها بينهم مهزوما .. ستكون هذه حياة وانا اموتها كل لحظة .. اموتها كلما سألني انسان كيف نجوت بحياتك من السجن الحربي ؟ اموتها كلما سألني انسان عن السجن الحربي فأطرق براسي ولا استطيع ان اقول له كيف خرجت منه .. وماذا كان الثمن .. وكلمات التشجيع التي سمعتها من الحراس في ادارة سجن المباحث الجنائية .. هل اخذل تلك الكلمات .. لن تكون هذه حياة ، بل ستكون موتا متكررا وضيعا ، الموت هنا خير منها ، فهو على الاقل هزيمة لاولئك الذين يبقونني على حافته حتى اتكلم .. ولكن طالما اني لن اعترف ، وطالما سيستمرون في تعذيبني الى ان اموت ، فلماذا لا اسارع بالموت .. فكرت في الانتحار وبحثت جديا عن وسيلة انتحر بها ، الا ان خاطرا عسادا فأقعدني عن الانتحار .. اذا مت من ذا الذي سيحكي للعالم تلك الجرائم .. من الذي سيكشف للعالم وجه النظام الدموي ، من ذا الذي سينتقم .. وقررت الا اموت ، وان اقاوم ... وان اتشبث بالحياة .. حتى استطيع ان احكي للعالم عن تلك العصابة الدموية .. »

### ٣ - في ادارة المخبرات

واذا كان من العسير على المرء ان يتصور ذلك الذي حدث في السجن الحربي ، فسيكون اكثر عسرا ان يتصور ان مرحلة اخرى كانت تنتظر الرفاق .. فلقد توقف التحقيق في السجن الحربي ، لينتقل الى ادارة المخبرات بكوبري القبة ، كان المعتقلون ينتقلون من السجن الحربي الى ادارة المخبرات جماعات حيث يجلسون القرفصاء في دائرة ، وكل بدوره ، يعلق الواحد من قدميه ويربط في سقف الحجرة بحيث يتدلى جسده كذبيحة ورأسه الى الارض وينهال الضرب على كل جزء من جسده ، ثلاث ساعات او اربع ، وعلى زملائه الجالسين القرفصاء ان يظلوا شاخصين بابصارهم اليه ، ومن اشاح بوجهه ، او خفض بصره يردده كرباج يهوي على رأسه الى الوضع المطلوب .. ثم تفك الضحية بعد تلك الساعات الطويلة من الضرب ، وتؤخذ الى الفناء حيث يربط الى ساق شجرة ويظل هكذا حتى صباح اليوم التالي ويوكل به الى احد الحراس ليذيقه من حين لآخر بعض السياط . حتى اذا كان الصباح يجر من قدميه الى مكتب ضابط التحقيقات ، ويطلب منه الاعتراف-، وبصمت ، وكثيرون هم الذين صمتوا ، فتأتي الوان اخرى من الكي بالكهرباء في الاماكن الحساسة من الجسد .. ويعاد الى السجن الحربي ، ثم يسود الى ادارة المخبرات في اليوم التالي ، وتكرر العملية

الاجرامية بالنسبة للجميع ..

ان السجن الحربي بكلابه المتوحشة وكرايجه وكل ما به ، كان بمثابة الراحة للمعتقلين بين كل مرة واخرى يذهبون فيها الى ادارة المخابرات .

كثيرون كانوا يضربون رؤوسهم في جذوع الشجر الذي ربطوا اليه محاولين الانتحار ، كثيرون من الذين تركوا ملقون على ارض الفناء عاجزين عن الحركة .. كانوا يملأون افواههم بالرمل والحصى على امل ان يؤدي ذلك الى موتهم ..

ان كل واحد من السجين معتقلا على استعداد ان يؤكد هذه الجرائم البشعة .. المجند محمد طه .. المجند عاطف بسيوني ، فوزي عطية ، محمد فوزي عبدالحى ، طه محمد طه ، عبدالخالق خضير ، حلمي المطار، صفوت العباسي وعشرات غيرهم . البعض ذهب التعذيب بصوابه ، واصيب بالجنون .. البعض تهشمت جمجمته وتعفنت جراحها وانتشر فيها الدود ..

الجندي المتطوع محمد هلال ذاق كل مراحل التعذيب هذه ، وبترت ساقه بعد ان اصيب بالفرغرينا ، لم يكن شيوعيا ، ولم يكن له اي نشاط سياسي ، كل جريمته ان اخاه شيوعي ، وتمكن من الهرب ، فالقي القبض عليه رهينة وذاق كل هذا التعذيب انتقاما من فرار اخيه .

#### ٤ - عملاق من الصعيد .

مثل الالاف من ابناء الصعيد ، هاجر من قريته في مديرية جرجا ، هربا من الفقر ، لكي يبحث عن عمل في القاهرة ، وانتهى به المطاف الى احد مصانع النسيج ، وهناك تلقى اول دروسه في الصراع الطبقي، رأى الاله تعصر دمه ودماء الالاف ذهباً تصبه في جيوب الراسماليين ، ورأى الدولة تقف الى جانبهم ضد العمال بقوانينها وقضاتها ، وبوليسها وجيشها ، وشاهد الدبابات تحاصر المصانع حينما يضرب العمال من اجل مطالبهم ، ومن خلال كل ذلك ادرك اهمية التنظيم السياسي للبروليتاريا ، فانضم الى احدى المنظمات الشيوعية التي تكون من مجموعها الحزب الشيوعي المصري فيما بعد ، وظل يناضل وسط العمال لربط حركتهم بالحركة الاشتراكية ، الى ان طلب لاداء الخدمة العسكرية . وذات ليلة وبعد ان عاد الى وحدته في الاسكندرية من زيارة زوجته الحامل ، القي القبض عليه ، وجيء به الى ادارة المخابرات في القاهرة ، في ٢ يوليو ١٩٥٩ ، كانت عمليات التعذيب ما زالت

مستمرة ضد المجندين المعتقلين من اوائل ابريل ، وفي ادارة المخبرات مورست ضده كل صنوف التعذيب المركز، حتى يعوضه مافاته طوال الشهرين الماضيين ، لقد دهش حراس السجن الحربي حينما نقل الى هناك من ادارة المخبرات اذ راوا اثار التعذيب بصورة لم يكونوا يتصورونها، فهم كما قال احدهم لم يكونوا يتصورون ان هناك في اماكن اخرى قوما اشد منهم اجراما .

وفي اليوم التالي أعيد الى ادارة المخبرات حيث علق من قدميه ، واستمر ضربه لمدة اربع ساعات ، ثم انزل وسئل ان كان سيعترف فاجاب في كل اباء ابناء الصعيد : « لن تأخذوا مني كلمة واحدة » فعلق في شجرة بالفناء وواصلوا ضربه ، ثم توقف الضرب ليسألوه ان كان سيعترف فكرر اجابته ، انهم لن يأخذوا منه كلمة .. فربطوه في مؤخرة سيارة جيب ، وواصلوا ضربه حتى فقد وعيه ، فلقوا به ارضا الى جوار زميل له هو المجند فوزي عطية الذي سمع حشرات تصدر منه وتنم عن أنه يحتضر، فجاهد بقدر ما سمحت به حالته ، وكان هو الاخر قد انتهى من جولة تعذيبية ، حتى اسند راسه الى صدره واخذ يهش عن وجهه الذباب .. ولم تمض لحظات حتى لفظ المناضل الرفيق مصطفى شوقي البهنساوي نفسه الاخير على صدر زميله .. فمدده على الارض ..

وحضر ضابط المخبرات فضربه بحذائه على رقبته قائلا : يا ابن الكلبة لا تتصور انك ستخدعنا بتظاهرك بالموت فسنتلك حقيقة .. وانها عليه هو وبعض الحراس ضربا .. الى ان اكتشفوا انه قد مات حقا ، فحملوا الجثة بعيدا ، ودفنت سرا ...

## الفصل السادس

### الموتى يتكهدون

كانت السيارة تملو وتهبط مع مرتفعات الطريق الصحراوي ومنخفضاته الكثيرة ، ومع كل مرتفع كانت الانوار الامامية للسيارة يتسع مداها فيستطيع المرء ان يرى جزءا من الصحراء على جانبي الطريق ، حتى اذا استوى الطريق ضاق ذلك المدى وانحصر الضوء في الطريق الاسود ، ومع الصعود والهبوط ، ومع اتساع مدى النور وضيقه ، كان المرء يحس وكأن غربانا ذات اجنحة هائلة ترفرف بأجنحتها وتنشر ظلالات سوداء على كل شيء . . حتى صوت المحركات غدا ، بفعل رتابته ، اشبه باطار لتلك الصورة المقبضة من الظلام والصمت . . مائة وعشرون مواطنا ، كل اربعين مقيدين في سلسلة واحدة ، حشروا في ثلاث سيارات نقل كبيرة مغلقة وتقدم القافلة سيارتان من سيارات البوليس المسلحة وفي مؤخرتها ثلاث سيارات مماثلة ، يخلفون وراءهم القاهرة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، يخلفونها هادئة صامتة ، هدوءا وصمتا لا كذلك الذي تأتي به تلك الساعة المتأخرة من الليل ، ولكن هدوءا وصمتا من ذلك النوع الذي يحل بجسد انتزع منه القلب ، ولقد كانوا قلب الحياة ، ولقد انتزعوا منها حتى تعربد المأساة ، وتعمل التمزيق في ذلك الشعب الحبيب ، دون ان يستطيع المقاومة وقد جردوه من قلبه . . كانت الصحراء تبتلعهم بصمتها وظلامها ، التي مصير مجهول ، والعيون تتشبث باخر خيط من اضواء القاهرة ، فلا احد يدري متى يراها ثانية . . ولكن ابدا سيظل القلب ينبض . . مهما كان عدد الذين اعتقلوا من ابناء الحزب ، فهناك رفاق ما يزالون بين صفوف الشعب ، ومهما كان ظلام المأساة ، فالشيوعية لم تمت ولن تموت .

ولقد خلف الشيوعيون خلفهم في وجدان الشعب رصيذا هائلا من

الاعزاز والحب ومن الوعي بحقيقة من يعادون حق الشعب في ان يكون سيد نفسه ، رصيذا هائلا من الثقة بالشعب وقدرته على ان يقول كلمته في مقدراته ، رصيذا ستصطدم به كل المحاولات لفرض الوصاية على ذلك الشعب العملاق .. وبهذه وغيرها من الكلمات كان الرفاق يتحدثون بعد ان غابت القاهرة تماما عن الابصار ، وانطلقت الحناجر من العربة الاولى ...

الحزب الشيوعي المصري

نبيه بعزيمتنا

ونذك الاساس خرسانه

من وحدة ارادتنا

وتعالى الحناجر من السيارتين مرده نسيده الحزب :

من بين الجموع بنيجي

ولبين الجموع بنمود

وننظم عتر (1) طبقتنا

في جيش الطليعة جنود

ويصدر امر بان تتوقف القافلة وينزل الجنود من السيارات البوليسية ويحتاطون بالسيارات التي تقل الرفاق ، ويصيح احد الضباط المسؤولين عن الرحلة بالحراس الذين في السيارة : « مش عاوز اسمع صوت ، اللي يرفع صوته اضربه بكمب البندقية في وشه » .

اذن فهم يريدون ان يفرضوا علينا الصمت كما فرضوه على بلدنا .. ولكن لا .. وترتفع الحناجر متحدية ملتبهة حماسا تستمد تحديها من عظمة شعبنا الذي قاوم الطغيان اجيالا .. ومن عمال دار السلام الذين تجمعوا امام قصر الجمهورية يوم الخميس ٢٧ مارس ، قبل ان تبدأ الاعتقالات بيوم واحد ، يهتفون ورساص النظام ينهال عليهم « يسقط الطغيان .. تسقط الديكتاتورية » وترتفع الحناجر منتشية بفعل حملة الاحتجاجات الفاضبة التي اجتاحت كل الاوساط التقدمية في العالم على الحملة ضد الشيوعية والشيوعيين في مصر ، وترتفع الحناجر شامخة وكلمات خروشوف في المؤتمر الواحد والعشرين تدوي مدافعة عن الشيوعيين العرب :

---

(1) العترة بالمربة الدارجة تعني الفتى الشجاع المقدم .



القيد اللي كان بيكتف  
والسجن اللي بابه حديد  
والظلم اللي قام يتحكم  
من تحته الاساس بيميد  
شيوعية تضامن اممي  
حرية ونصر اكييد  
خروشوف الرفيق اتكلم  
من موسكو ومد الايد

وكان على الضباط المرافقين للرحلة ان يختاروا بين واحدة من اثنين  
.. ان يفامروا بمعركة في ذلك الطريق المهجور وسط الصحراء ويتحملوا  
مسئولية كافة ما يترتب عليها من نتائج ، او ان يحنوا رأسهم للعاصفة،  
وينجزوا مهمتهم المحدودة بتسليم هؤلاء المعتقلين الى حيث صدرت الاوامر  
بترحيلهم وهناك فليتكفل مسئولون اخرون بمهمة تعويدهم الصمت .

ان البيروقراطية الرهيبة التي تسيطر على اجهزة الحكم في بلادنا  
تلقي في النفوس خوفا لا حدود له من المسؤولية ،ولذا فانها ظاهرة عامة في  
اجهزة النظام الناصري مما دون عبدالناصر وجماعته. ان كل موظف كبير او صفر  
يحاول دائماً ان يلقي بمسئولية البت في امر ما من امور عمله على  
موظف اخر . وهكذا اختار الضباط المرافقون للرحلة ان يلقوا بمهمة تأديب  
هؤلاء المعتقلين والزمامم الصمت للاخرين الذين سيتسلمون القافلة .  
وصدر الامر بان تسير القافلة .. وامتلا الليل وامتلات الصحراء بدوي  
الحناجر تردد نشيد الحزب ...

من بين التاريخ بيدوي  
من فوق التاريخ اعصار  
والدنيا بتولد دنيا  
مصنوعة بايديين ثوار  
بالناس القوية الحرة  
بدراع الاسى والنار  
نفحت تربة الرجعية  
ونكفن في الاستعمار  
الحزب الشيوعي المصري  
بنينه بعزيمتنا

## وندك الاساس خرسانه من وحدة ارادتنا

ومالت القافلة من الطريق الصحراوي الى طريق جانبي بين المزارع التي ظهرت لأول مرة منذ ساعات ، ومن ذلك الطريق الجانبي دخلت السيارات مدينة الفيوم في الهزيع الاخير من الليل ، فاخترقتها الى طريق اخر سار نحواً من خمسة عشر كيلومترا ، حينما لاحت الصحراء مرة اخرى ، وعلى مبعده بانث مصابيح كهربية مثبتة في اعمدة خشبية مرتفعة ظهرت على ضوئها اسوار من الاسلاك الشائكة تعلوها ابراج وقف بها جنود يحملون بنادقهم في وضع استعداد ، واضواء كشافة في الاركان الاربعة ترمي بدوائر كبيرة من الضوء القوي تتحرك من داخل الاسوار الى خارجها وتقوم بدورة واسعة في المنطقة المحيطة . .

الفجر يغمر المكان بأضوائه الاولى المترددة ، وواضح انه لم تكن هناك ضرورة عملية للانوار الكشافة ، بيد انهم كانوا يريدون استخدام كل المؤثرات الممكنة بحيث يصفون على المكان رهبة تصدمنا في اول نظرة تقع منا عليه .

ثلاثمائة جندي او يزيد كانوا يقفون صفوفا في الفضاء الواقع امام السجن منهم من يحمل البنادق ، ومنهم من يحمل العصي الفليضة ، والوجوه جامدة ، بليدة ، وجوه مصرية من اعماق الريف ، فيها شحوب وهزال ، وعيون باهتة النظرات . . هل حقا يحمل هؤلاء الرجال لنا نفس الحقد الذي تعب عنه خطابات عبدالناصر الاخيرة ؟ وطابور اخر من جنود سلاح الحدود ، ضخام الاجساد اشدأؤها ، سود البشرة بنادقهم معلقة في اكتافهم خلف ظهورهم ، وسياط مطوية في ايديهم ، ومن الصعب ان يلمس المرء في تقاطيع وجوههم القاسية اي شيء ، سوى نظرات خاوية ، ولكن هؤلاء على وجه التحديد هم الذين كانوا مصدر القلق ، فلطالما استخدمتهم الحكومات الاستبدادية ضد شعبنا ، ولو انهم من اقليم النوبة في جنوب مصر الا انهم نظرا لسواد بشرتهم الداكن ، عرفوا بين شعبنا بالمساكر السودانيين ، وقد سرت المواويل الشعبية تحكي في بعض مقاطعها عن قسوتهم ودمويتهم ، والموال الشعبي يلقي عليهم مسؤولية قتل ياسين ، وهو بطل شعبي من ريف الصعيد ، قتل لانه كان يقاوم ظلم الاقطاعيين للفلاحين .

يابيهة وخبريني  
ع اللي قتل ياسين

## قتلوه السودانية

من فوق ظهر الهجين (١)

احاطت العين بذلك المنظر الممد في انقاف لحظة ان توقفت السيارات امام بوابة المعتقل وقد كان لفراملها صرير كئيب انقبضت له النفوس ، فلقد كان اشبه بانين يشكو فيه الفجر ذلك الجرح الذي اصابته به تلك الاستعدادات الدموية .

وكم من فجر ائخنه النظام بالجراح ..

لقد طعنوا فجر النصر على العدوان الثلاثي بحل لجان المقاومة الشعبية ، وفصل الطلبة الذين ايدوا الحكم الوطني في الاردن ضد انقلاب ابريل ١٩٥٧ وحرمان الشعب من اختيار ممثليه الحقيقيين حينما اصدر عبدالناصر قرارا بشطب اسما: مرشحين الشيوعيين والديمقراطيين لمجلس الامة في يونيو ١٩٥٧ .

وفي فجر الوحدة المصرية السورية امتدت مخالبتهم لتدسي سوريا الوطنية الديمقراطية بابعاد ضباط الجيش السوري الوطنيين وعلى رأسهم الفزيق عفيف البزري من مناصبتهم ، وفجر العام الجديد عام ١٩٥٩ ، ائخنها جراحا بحملتهم البوليسية على الشيوعيين ، وفي فجر ٢٨ مارس تركوا في كل بيت جرحا حينما جرى اعتقال زوج ، او ابن ، او اخ ، او اخت ، او زوجة ، وفي فجر ذلك اليوم السادس من ابريل ١٩٥٩ ها هي الانياب والاظافر مشرعة في الفجر امام بوابة معتقل العزب .

كان هناك بعض رجال في ثياب مدنية انيقة ، وقفوا يدخنون في هدوء وكان هذا الذي يجري الاستعداد له شيئاً لا يثير اهتماما لديهم . فهم من رجال المباحث وبطبيعة الحال قد تركوا مهمة التنفيذ لقائد المعتقل ، ذلك الرجل الضخم ، ذو الرأس الكبير يمتد اسفل منها وجه متفطن قميء ، تبدو تقاطيعه وكان كلا منها قد صنعت على عجل من صلصال رديء ، ثم لحمت الى بعضها البعض دون عناية .

كان الشعر الابيض الذي كسا فوديه متناقضا مع النسر الذي يحمله على كل من كتفيه دليلاً على رتبته كصاغ فهذه الرتبة بين العسكريين يصل اليها المرء قبل تلك السن بوقت طويل ، ولربما كان هذا احد دوافع مشيته اللبثة بالاهمية ، واصداره التعليمات بعنجهية وخيلاء مبالغ

---

(١) الهجين هو اسم الجبل الذي يستخدم للركوب ..

فيهما ، كان رجال الباحث يبتسون لذلك فسي سخرية وكان يظنهم يبتسون رضا .

فيما وراء صفوف الجنود كان سور من الاسلاك الشائكة ، تليه منطقة محرمة ، ثم سور آخر من الاسلاك الشائكة ، ثم اربعة عنابر يفصل بين كل منها ممر عرضه حوالي ثمانية امتار ، والى يمين البوابة الرئيسية كان مكتب الضابط النوبتجي ، ثم مبنى الادارة وهو اشبه باكواخ المستعمرين في مزارع وسط افريقيا . وفي الجانب الاخر من المعتقل اربعة عنابر اخرى في محاذاة العنابر الامامية يفصلها منطقة اخرى محرمة محوطة بالاسلاك الشائكة . المباني القديمة للعنابر ، يوحى مرآها بحظائر الماشية في قرانا المصرية .

الى اليمين ، على مبعدة ، كان مبنى قديم تهدمت بعض جدرانه ، انه دير قديم ، وعلى مقربة منه مقابر ارتفعت فوقها بعض الصلبان ، وفيما وراء المعتقل كانت تبرز بعض القباب مما يشير الى وجود مقابر للمسلمين ، وبعد ذلك الصحراء .

الموتى يحاصرون المكان . . والعنابر اشبه بمقابر هائلة سيفيب فيها المئات ، نزلنا من السيارات ، كل اربعين في سلسلة يسمونها «الحجلة» ولم تكد اقدمنا تلامس الارض حتى بدأ ترويضنا على الإقامة في تلك المقابر : شتائم ، وكلمات بذية تتناول الاب والام والجدود . . وصفان اخران من الجنود على جانبي البوابة ينهالون علينا بالصفعات واللكمات ونحن نمر بينهما مغللين . . ونقف لتفتيش امتعتنا ، رجال الباحث يفتحون الحقائب ويفحصون الملابس ثم يلقونها على الارض ، واثناء ذلك يتم فك من تم تفتيش امتعته من « الحجلة » فينحني لالتقاط ملابسه ، واللكمات والصفعات ، والركلات تتوالى عليه ، ويأتي مسرعا كلب عقور ، يحمل جبلا مجدولا من الاسلاك الكهربائية ينهال به علينا واحدا واحدا على الرأس والرقبة والوجه . . انه محمد غطاس الامياشي المكلف بالاشراف على النظام داخل العنابر .

بعد ان تم توزيع المعتقلين على العنابر دخل القائد يحمل بيده كرابجا ، وخلفه ذلك الغطاس بوجهه الذي يشبه كثيرا وجه « البول دوج » وقال : « انا هنا جمال عبدالناصر ، جمال عبدالناصر اعطاني سلطات كاملة لعمل اي شيء معكم مفهوم ؟ » .

كانت الاوامر ان يلزم كل منا مكانه ولا يفادره ، لا تجمعات ، لا حركة

داخل العنابر ، لا حديث .. الصمت .. كصمت المقابر المحيطة .. والكرباج يحمي ذلك الصمت ، ويفرضه .. لا تطل من خلال قضبان النافذة، لا تلقي بتحية الصباح لرفيقك في عنبر اخر اذا ما لمحتك وانت في طريقك الى دورة المياه .. لا توميء برأسك ، بل حذار ان ترفع يدك لتسوي شعرك بعد غسله . انهم يفسرون ذلك على انه اشارة ما لسكان العنبر القريب من دورة المياه .. وكل يوم كان عدد من الرفاق يقتادون الى الادارة ليجلدوا لمثل تلك الاشياء اربعين جلدة او خمسين لكل منهم ..

وتتوالى الدفعات من الرفاق قادمين من معتقل القلعة ، وتزدحم والعنبر ضيق ؟ لا يجب ان تشكو للادارة فردها « النوم » « ناموا زي ماتناموا ، والعنبر ضيق ؟ لا يجب ان تشكو للادارة فردها « النوم » ناموا زي ما تناموا ، انشالله ما نمتوا » . ليس بالعنبر سوى اناء فخاري يتسع لثلاثة جرادل من ماء الشرب سرعان ما كانت تنفذ ونبقى نعاني العطش ونتناول الوجبة تلو الوجبة من نفس الاواني دون غسلها ، ايس بالعنبر دورة مياه ، مجرد جردلين وسط العنبر للتبول تتصاعد منهما الابخرة والروائح الكريهة ليل نهار ، والدين تمتلئ امعائهم ، عليهم ان يظلوا يتلون الما طول الاربعة والعشرين ساعة حتى يفتح العنبر لبضع دقائق في صباح اليوم التالي ، ولا تكاد تدخل دورة المياه حتى يفتحها الحراس عليك بالكراييج مجبرين اياك على الخروج والعودة الى العنبر قبل ان تكون قد فرغت من قضاء حاجتك ، انهم يطاردونك بالسياط الى داخل العنبر كما يطاردون قطيعا من الماشية ، ويفلق الباب .. الصمت .. والعزلة .. الباب مغلق .. والنوافذ محرمة .. وسور بعده سور .. واميال شاسعة بينك وبين ذوبك ، لا صلة لك بالحياة .. لا صحف ولا اذاعة .

كان معسكر العزب هذا الذي نقلنا اليه من القلعة ، معتقلا لاسرى الحرب الايطاليين اثناء الحرب العالمية الثانية ، وتحول بعد ذلك الى معتقل لتجار المخدرات .

صحيح ان السلطات الناصرية اعدت ذلك المعسكر كمكان الارهاب والتجويع ولكن كان هناك عامل اخر يدفع بادارة المعتقل الى الابداع في تنفيذ تلك الخطة . فالادارة الحالية هي ذاتها التي كانت تشرف على المكان اثناء وجود تجار المخدرات ، وكانت لديها وقت وجودهم فرص هائلة للاثراء ، هذا ما كان يحكيه لنا الجنود الذين عاصروا المعتقل في عهده .

كان تجار المخدرات يلقون من الادارة كل التسهيلات اللازمة للاشراف على تجارتهم من داخل المعتقل ، فكان القائد والضابط يأتون لهم بعمالهم الى داخل المسكر ليناقتشوا معهم امور تجارتهم ، كان الواحد من هؤلاء التجار يخرج مع القائد او الضابط في سيارة المعتقل بعد تمام المساء ، ويذهب الى بيته ، ان كان من سكان المنطقة او الى احد بيوت الدعارة في الفيوم حيث يقضي وقتا طيبا ثم يعودون عند الفجر .

وفي مقابل ذلك كانت هناك هدايا تقدر بمئات الجنيهات للقائد وضباطه ، وكانت لهم رواتب شهرية من تجار المخدرات ، كما كان هؤلاء يتخلون للقائد وضباطه عن المبلغ الذي رصده وزير الداخلية لاطعامهم معتمدين في غذائهم اليومي على اموالهم الخاصة . ولا شك ان اخلاء المسكر من هؤلاء الذين كانوا يضعون البيض الذهب كل يوم للادارة وضياع تلك الثروة كان دافعا لحقد اسود على اولئك السياسيين القادمين من القلعة والذين يضمون بين صفوفهم مئات من العمال والمثقفين وصغار الموظفين والفلاحين الذين لا يملكون شروى تغير ولا يشرون بأي فائدة مادية يمكن ان تعود على ادارة المعتقل .

رصدت المباحث العامة مبلغ ٥٦ مليما لكل فرد لتقديم الوجبات الثلاث يوميا ، وتبدو تفاهة ذلك المبلغ اذا ما قيس بما كان يخص لكل فرد من المعتقلين في معسكرات الاعتقال اعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٤ ، فقد كان مخصصا لكل فرد يوميا مبلغ يتراوح بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ مليما ، وبرغم تفاهة المبلغ المخصص في معسكر العزب كانت ادارة المعتقل تتحايل بحيث لا تقدم للواحد منا طعاما طوال اليوم الا في حدود ٢٥ او ٣٠ مليما ، ومعنى ذلك انه بجانب الخبز لم يكن يقدم عمليا سوى بضع حبات من الفول صباحا تسبح مع عديد من الحشرات في بعض الماء الساخن ، وفي الظهيرة بعض الحساء وقطعة من اللحم لا يزيد وزنها بضع جرامات تقدم ثلاث مرات في الاسبوع ، وفي المساء قطعة هزيلة من الجبن لا تكفي غموسا للقميتين .

كان معظم الرفاق يشعرون بالدوار كلما وقفوا على اقدامهم ، وكان عليهم اذا ما اراد الواحد منهم ان ينهض ان يفعل ذلك بحذر وتؤده خشية ان يصاب بدوار او اغماء فالجميع قد اصيب بالانيميا بدرجة او باخرى .

كثيرة هي القصص التي كان الرفاق يتهايمسون بها عن الحساء النازي ، وعن معتقلات بوخنوالد وداخاو ، ولكن معتقل بلسن وما تردد عنه اثنائه

محاكمات نورمبرج كان يحظى بالجانب الاكبر من احاديث الرفاق . .  
كان معسكر بلسن مخصصا لقتل المعتقلين ايام النازي بالجوع ،  
وتركهم فريسة للأمراض دون علاج ، وكل الدلائل كانت تشير الى ان بعض  
رجال النظام قد عكفوا على دراسة الاساليب التي اتبعت في معتقل بلسن ،  
ويعدون الان الى تطبيقها على الشيوعيين والديمقراطيين المصريين .

ان سوء المكان من الناحية الصحية ، والياب المغلق طوال الساعات  
الاربع والعشرين ، وعدم توافر الامكانية لانتظام عمليات الافراز ، وتشبع  
جو العنبر برائحة البول وبخاره ، وسوء التغذية ، كل ذلك ادى بسرعة  
الى ظهور كثير من الامراض كالدونتريا ، والتهاب القولون ، والسل ،  
والجيوب الانفية ، واحتقان اللوزتين ، وانتشار البثور على الجسم ،  
والانيميا الحادة ، والبواسير والتهابات اللثة والحلق . . .

وحيثما طلب بعض المعتقلين عرضهم على طبيب ، استدعى المأمور  
المرضى الى مبنى الادارة وامر بجلدهم .

البولدوج غطاس يعربد بين العنابر ، ما من مرة رايته وهو يسير  
بقامته الفارعة وجسده الضخم ، الا وعادت الى ذاكرتي صورة جوليفر في  
ليبيوت ، بلاد الافزام ، حيث كانت خطوة واحدة منه تنقله من اقصى المدينة  
الى اقصاها والافزام المساكين يتطلعون الى ذلك الشيء الهائل ويسارعون  
بالعدو هربا منه ولكن الى اين ؟ ان جوليفر يمد يده فيلتقط عددا من تلك  
المخلوقات يرفعها الى مستوى وجهه حتى ينظر اليها فتتملكها الرعدة ،  
وتخاله سيلتهمها ، واذا حانت منها التفاتة الى اسفل اصابها الدوار لانها  
ترى انها قد ارتفعت عن الارض ارتفاعا شاهقا ، لو سقطت منه لدقت  
اعناقها . كان جوليفر الذي صنعه جوناثان سويفت في روايته « رحلات  
جوليفر » رجلا طيبا محبا للخير وللناس اما هذا الجوليفر الذي رماه علينا  
النظام ، فكان بهيمة انانية ، كان يخطو بين العنابر فاذا بالاصوات  
قد خفتت ، والكل يترقب ، من ذلك المنكود الذي سيلتقطه غطاس ؟ كان  
غطاس يعود من جولته بثلاثة رفاق او اربعة ليجلدوا : هذا كان يطل من  
النافذة وذاك كان يتحرك في العنبر . . وهكذا . .

كان لغطاس هو الاخر اهداف من وراء عريده ، فلقد كان يلتقط بعض  
الانرياء من المعتقلين ، المستقلين على وجه التحديد ، ويفرض عليهم اناوة  
مقابل عدم التعرض لهم ، فاما ان يرسله الواحد منهم الى ذويه برسالة  
شفوية ان يمنحوه نقودا وهدايا ، او يتخلى له عن ساعته الذهبية ، ولقد

اجبر بعضهم على ان ينزعوا خواتم زفافهم الذهبية ويقدموها له رشوة مقابل اعفائهم من الجلد .

والصمت مفروض .. صمت كصمت المقابر المجاورة ، والكرياج حارس على ذلك الصمت ويجب ان ننام يوميا وفرقات الكرياج ملء اسماعنا .. علينا ان نتكفن بانصمت ونستسلم لحقيقة اننا قد هيل علينا التراب في مقبرة كتلك التي تحيط بنا في منطقة العزب .. او هكذا كانوا يريدون . وكان لا بد من تحطيم الاسوار واحدا .. واحدا .

الحراس المعباون ضدنا .. كم لاقينا منهم اهانات وشتائم وضرب .. ولكننا اصررنا على محاولة التفاهم معهم .. هل تصدقون حقا اننا عملاء ؟ .. بيننا مئات من العمال مثلكم .. واقد كنتم تعملون في المصانع ، وتعلمون ماذا يعانیه العمال .. ولم تات الى هنا الا لاننا نريد ان نرفع عنهم ذلك الاضطهاد .. وكثيرون منكم من الريف ، ترك وراءه اسرة تعاني البؤس والعمور .. ونحن هنا لاننا نريد لهم حياة افضل .. ليس صحيحا انكم تحقدون علينا ، ولا تحقدون على الذين انتزعوكم من ارضكم ودوركم كي يستخدموكم جلادين على زملاء لكم مقابل جنيتين شهريين ..

والعساكر السود ، هؤلاء الذين لا تستطيع ان تميز في ملامحهم شيئا غير القسوة .. بعد الحاح ، ومخاطرة ، خاطبناهم واستمعوا لنا .. لماذا تعادوننا ؟ لماذا تضربوننا بكرابيجكم ؟ عشرات السنين والحكام الطفافة يستخدموكم ضد الشعب لا يضربون بايديهم ، ولكن يضربون بايديكم انتم .. ومع كل هذا فما زلت كما كنتم ، وما زال اكم ابناء لا يستطيعون دخول المدارس او اتمام تعليمهم كما يفعل ابناء السادة الذين يحرضونكم علينا .. وما زال الواحد منكم يواجه مأزقا خطيرا اذا مرض له طفل .. هل حدث مرة ان مرض طفلك واستطعت الذهاب به الى طبيب ؟ لماذا .. ان الذين يستخدمونكم ضدنا يحتفظون بطبيب خاص لاطفالهم .. بل باكثر من طبيب . وبطبيب خاص اكلابهم وقططهم .

وبصبر واناة ومن خلال قضبان النوافذ المحرمة يذوب الجليد ، ويلين ذلك الجدار من القلوب الفايدة التي كانوا يحيطوننا بها .

والان فلنكسر الصمت ..

ونتجمع .. ونفسي لسيد درويش :

بلادي .. بلادي .. بلادي

لك حبي وفؤادي



بصوت هادئ ، ولكنه حار ومخلص . . ويتسمع الحراس له .

ونفسي :

ما تيليا أعمال

دي الثورة ثورتنا

نهزم رأس المال

ونبني دولتنا . . .

ويبدو رأس الحارس خلف النافذة ، وتوقف ، ويطمئنا . . ويطلب منا ان نستمر في غنائنا ، لانه يريد ان يسمع . . لقد لعب النظام الناصري بمشاعر الناس حينما لجأ الى الهجوم على رأس المال ، والراسمالية المستقلة ، والحديث عن تخليص المواطنين من استغلالها ، ولكن المواطنين ومنهم الحارس هذا ما يزالون يعانون شظف العيش ويرون باعينهم الاغنياء يزدادون تخمة ويركبون العربات الامريكية الفاخرة ويكثرون القصور ويطردون العمال من المصانع ، ويصادقون المحافظين ورجال الادارة ويستخدمونهم ضد المواطنين البسطاء من عمال وفلاحين . . لقد اكد لهم عبدالناصر ان الراسمالية والراسماليين يستغلونهم ولماذا اذن يعتقل هؤلاء الذين يعادون الراسمالية ، انهم هم هؤلاء النقيض يريدون جديا هزيمة رأس المال واقامة دولة العمال والفلاحين . . هذا ما فهمه حارسنا ، وهذا ما دفعه الى الطرب لاغنيتنا ، وبعد مدة يضرب بيده على النافذة في رفق هامسا: تفرقوا . . الضابط قادم .

وبلغت العريضة في معتقل العزب حدا كان فيها قادة المعتقل ومساعدتهم يجدون في عملية الجلد تسلية لهم ، بل وحدث ذات مرة ان كان احد القرويين المسنين يتجول بالقرب من المعتقل ، ولما كان الرجل لم يسمع في حياته شيئا عن معتقلين ولا معتقلات فانه لم يكن يعرف ما هي تلك المباني المقامة في ذلك المكان المهجور ، وتصادف لسوء حظه ان كانت العربة التي تأتي بالطعام تدخل المعتقل في ذلك الوقت فتصور الرجل انه يستطيع ان يجد لدى هؤلاء القوم من يبيعه بعض السجائر ، واخذ يقترب من بوابة المعتقل ، وبلا تحذير او اي شيء يفهم منه الرجل ان المكان محرم على المدنيين ، انقض عليه جنديان وسحياه الى الضابط حمدي نصار الذي امر بان يعلق في الفلكة وهو الشيخ الذي جاوز الخامسة والاربعين وان يجلس اربعين جلدة حتى دون ان يسأله عن سبب اقترابه ، والرجل يصيح ويصرخ ولا من يسمع له ، حتى اذا انتهى الجلد شيعوه بالصفعات والركلات ،

والشيخ يهرول وهم يهرولون ورائه ويفرقعون بالكرباج وضحكاتهم الهائلة  
تملا الجو .

كان المتبع أن يخرج من كل عنبر عند استلام اية وجية اثنان من  
المعتقلين لحمل الطعام من المطبخ الى العنبر ، وذات يوم عند الظهر فتح  
غطاس باب العنبر وطلب اثنين لحمل الطعام ..

وتقدم منه رفيق :

- احنا ممتنعين عن الطعام .
- انتم ايه يا روح امك ؟
- احنا ممتنعين عن الطعام وعاوزين نقابل القائد .
- يعني ايه فهمنسي
- يعني مش حنستلم الاكل ..

ويبدو ان غطاس لم يفهم جيدا ما المقصود بذلك فقد اغلق الباب قائلا :  
« انشالله ما كلمت .. » ولكن دهشته زادت عندما تقدم منه رفيق في  
العنبر التالي وكرر عليه نفس الشيء واندفع غطاس بدافع الفضول الى العنبر  
الثالث ليرى ماذا سيكون هناك وتزايدت دهشته عندما سمع نفس الشيء  
في العنابر الاربعة ، وانطلق عبر المنطقة الحرام الوسطى الى العنابر الاربعة  
في الجانب الاخر من المعتقل، ان هناك منطقة محرمة بين العنبرين ولا يمكن ان  
يكون ثمة وسيلة لكي يحذو المعتقلون في هذا الجانب حذو المعتقلين فسي  
الجانب الاخر ، ولكنه ذهل اذ سمع تقريبا نفس الكلمات في كل من العنابر  
الاربعة الاخرى .

اسرع غطاس الى القائد ، وتجمع الضباط حولهما ، لم تكن المسألة  
التي تشغل بالهم ان المعتقلين ممتنعون عن استلام الطعام ، ولكن المسألة  
التي حيرتهم جميعا هي كيف تمكن هؤلاء الشياطين ان يتفقا في كل  
العنابر وهي مغلقة عليهم وعلى كل منها حصار شديد يفرض عليه العزلة  
التامة عن كل العنابر واذا جاز بشكل ما او باخر ان يكون سكان العنابر  
الاربعة التي في الجانب الامامي من المستقل قد استطاعوا الاتصال ببعضهم،  
فكيف توصلوا الى الاتفاق مع سكان العنابر الاربعة الاخرى في الجانب  
الخلفي من المعسكر على كل شيء : على العمل ، والموعد ، والمطالب ، بل  
وبنفس الكلمات .

وكانت مشكلة امام القائد وضباطه ، كيف برغم كل ذلك الارهاب

والحصار والتضييق يواجهون السلطات باربعمائة وخمسين معتقلا قد اتفقوا فيما بينهم على ذلك العمل الجماعي ؟ ودارت في اذهانهم اسئلة .. ان الفشل قد يتسبب في اتيان ادارة اخرى وتضييع فرص النهب ؟ وتلك السرقات التي يقومون بها ، كيف يكون رد فعل السلطات لو تحدثت عنها المعتقلون ؟ واسئلة اخرى كثيرة .

توجه القائد الى العنابر ، ربما كانت تدفعه الرغبة في تلمس كيف استطاع هؤلاء الشياطين ان يتصلوا ببعضهم البعض ويديروا هذا العمل ، وفي كل عنبر سمع نفس الكلمات تقريبا بحرف واحد :

اننا نحتاج على الجلد ، ونطالب بوقفه ، كما نطالب بزيادة الزمن المقرر لنا في الفسحة ، وان يكون ذلك صباحا ومساء ، ونطالب بطبيب يعالج المرضى ونريد الاطلاع على الصحف والاستماع للاذاعة ، كما نطالب بتحسين الطعام .. ونريد الاعتراف بمندوبين عن كل عنبر يستطيعون اتفاهم مع الادارة في كل وقت حول مشاكلنا ومطالبنا ..

ويعود القائد الى مكتبه وقد تزايد احساسه بالهزيمة ويطلب من كل عنبر ان يعين له مندوبين ، ويذهب المندوبون ، ويعد القائد بزيادة الفسحة الى ساعة في الصباح ، وبوقف الجلد الا في المخالفات الصريحة ، وباحضار طبيب للكشف على المرضى ، وفيما يتعلق ببغية الطالب فانه سيرضها على المسؤولين ..

وفي المساء يسمع احد رفاقنا ممن كانوا يقضون فترة عقوبة في التأديب الى جوار مبنى الادارة ، حديثا بين القائد ووكيله عن ذلك الامتناع وبتحير ان في الوسيلة التي اتبعت في تنظيمه بين كل العنابر ، ويقول اليوزباشي عبدالمنعم التونسي وكيل القائد « دول جن ازرق ، دوخوا كل الحكومات اللي فاتت على البلد ، مش حيدوخونا احنا ؟ » .

ومن الواضح ان خطة اخرى قد اتبعت بعد بحث الامر مع السلطات ، فلقد جاء طبيب ، فحص المرضى واوقف الجلد ، واكتفى بعقوبة الحبس الانفرادي ، وشدت الحراسة بين العنابر ، وثبتت على باب كل عنبر ساعة تتوقف كل خمسة عشر دقيقة لكي يقوم الجندي المكلف بالحراسة ليلا بملئها ضمانا لاستمرار يقظته ، ونشطت عمليات التجسس ..

استطاع الرفاق ان يتحركوا بحرية داخل عنابرهم وان يسهروا حتى ساعة اطفاء النور ، وان يتجمعوا للمب الورق الذي كان يصنع من غلب السجائر بينما تجري اجتماعات حزبية في ركن اخر من العنبر ، وتكررت شكوى المندوبين من قلة الطعام من الكميات المقررة ، ورفضوا استلامه من

المطبخ الا بعد وزنه وتلك الاخيرة كانت تقض مضجع القائد لانها تنتقص من سرفاته ..

كانت المباحث قد انتقت ٥٩ رفيقا من بين العنابر بعد ذلك الامتناع ورحلتهم الى الواحات الخارجة باعتبارهم اخطر العناصر بين المعتقلين والذين بابعادهم - كما كانت تعتقد - يمكن السيطرة على المسكر .

ولقد تمت اثناء ترحيلهم في ٢١ يونيو ١٩٥٩ تلك المأساة التي هزت وجدان شعبنا ، كان المعتقلون المرحلون مقيدين في حجلتين ، ثلاثون منهم في واحدة ، وتسع وعشرون في الثانية . ووقف قطار الصعيد الذي يقلهم في محطة المواسلة جنوبي سوهاج . ونزل الرفاق المقيدون في الحجلة الاولى وبدأ المقيدون في الحجلة الثانية في النزول الى الرصيف . كان عشرة فقط هم الذين نزلوا حينما تحرك القطار ، جارا خلفه الرفاق العشرة ، وارتفع الصباح ، ولكن كانت العربة في المؤخرة ، بينها وبين الفاطرة ثلاثة عشر عربة ولم يسمع السائق شيئا ، وزاد القطار من سرعته ، والحجلة اللعينة تجر الرفاق العشرة على القضبان وتكسرت انضلوع .. وتمزقت الاجساد .. وانكسرت عظام الاذرع والسيقان .. وكان منظرا مثيرا .. عشرة آدميين يجرحهم قطار خلفه ، تصطدم ضلوعهم ورؤوسهم تارة بالقضبان وتارة بالارض ، والرفاق الآخرون المقيدون في نفس الحجلة ، والذين لم يكونوا قد غادروا العربة بعد ، يتشبثون بيابها حتى لا يتساقطوا واحد بعد الآخر .. كانت العربة معزولة عن اجهزة الانذار وغير مزودة بالفرامل الهوائية .

واطلق ضابط كان يقف على الرصيف اعيرة نارية فتنبه السائق واوقف القطار ، وبذلك توقفت مأساة الحجلة عند حد تمزيق اجساد هؤلاء الرفاق .. لقد بلغ الموقف من الهول والبشاعة درجة جعلت ضابط المباحث الذي كان ينتظر تلك الدفعة في محطة المواسلة يخر نفسه عليه ..

ظن القائد ان الامر استتب له بعد ان تخلص من هؤلاء التسعة والخمسين ، وبعد ان اطمان الى ان الحراسة مشددة بدرجة لا تسمح بأي اتصال بالعنابر ، بدأ ينفذ خطته في العودة الى الارهاب ، رفض مقابلة المندوبين ورفض السماع لاية شكوى خاصة ما يتعلق بالطعام ، واختلقت مشاجرة بين اثنين من المعتقلين في احد العنابر تبين فيما بعد انهما عميلين للمباحث العامة فاقتيدها الى الادارة حيث جلدوا ، وكان ذلك ايدانا بالعودة الى سياسة الجلد ، كما توالى على المسكر دفعات جديدة من رفاق اعتقلوا

في يونيو ويوليو ، واغسطس ١٩٥٩ ، وكان لا بد من زيادة عمليات الارهاب حتى لا يكون في مجيء الدفعات الجديدة حافزا لمعطيات مقاومة اخرى ، خاصة وانه من بين الذين جيء بهم اخيرا الى المعتقل مناضلون تعتقد السلطات ان وجودهم في اي معتقل كفيلا ان يسبب لها المتاعب .

زاد عدد الجلدات الى مائة ثم الى مائتين ، وقمنا ببعض المناوشات كانت تأتي بنتائج مؤقتة ولكن سرعان ما يعود الارهاب اعنتى واشد ، وبلغ الامر بهم حد حرمان الذين يقضون عقوبة التأديب في زنزانة انفرادية من الذهاب الى دورة المياه لتقضاء الحاجة .

بلغ الارهاب ذروته حينما عثر مع احد المعتقلين على رسالة مكتوبة على ورقة صغيرة ، وتحت اشراف رجال المباحث العامة تم جلده مائتي جلدة فانهار وادلى باسم واحد من المعتقلين وهو المهندس فوزي حبشي باعتبار انه هو الذي سلمها له ، فاقتادوه الى مبنى الادارة وطلبوا منه ان يدلي بمعلوماته عن التنظيم السري في المعتقل ، ولما لم يتكلم ، انهالوا على جسده الهاري بالسياط ، حتى تمزقت على جسده ست كراييج ، وكلما اغمي عليه القوا على جسده المتخن بالجراح ماء مشبعا بالملح .. الى ان يفيق فيستأنف جلده ..

والمرء لا ينسى للمساكر السود انهم رفضوا اعطاء كراييجهم لرجال المباحث ليواصلوا بها ضرب المهندس الجريح بعد ان تمزقت الكراييج التي كانت في حوزة الادارة ..  
وبدأت المعركة الفاصلة ..

في الثاني عشر من سبتمبر ١٩٥٩ اعلن المعتقلون جميعاً رفض استلام الطعام ، وطلب المناضلان عدلي جرجس ومحمد علي فخري من سكان العنبر رقم ٤ وهو اقرب العنابر الى مبنى الادارة مقابلة القائد، فاستداعهما القائد حيث امر الجنود بالاعتداء عليهما اعتداء بشعاً بالضرب ، ومن الطريف ان المتعهد الذي يورد الطعام للمعتقل ، وشريك القائد في سرقاته كان حاضرا وقتذاك فشارك في الاعتداء على المناضلين ، اللذين تعالت أصواتهما احتجاجا « يا مجرمين يا قتلة » ووصلت اصوات احتجاجهما للعنابر فضجت وعلا فيها الصخب .

استدمى القائد ، ازاء الموقف الجديد ، مندوبين عن العنابر لمقابلته وابلغه فخري لبيب اننا نرفض التفاهم معه لانه هو وسياسته واسلوبه موضع الشكوى واننا نطلب حضور احد كبار المسؤولين لعرض شكوانا عليه، اصفر

وجه القائد ، وارتعشت شفتاه ، ولا بد قد دارت في ذهنه سرقاته التي لا بد وستكون موضع الشكوى ، ولا بد سيفضح المعتقلون امام المسؤولين تواطؤه مع المتعهد ، ثم الفشل مرة اخرى على السيطرة على المسكر ، وكيف سيواجه المسؤولين بهذا العمل الجماعي الذي دبر من تحت انفه . . وحاوره وداور ولكن المندوبين تشبثوا بموقفهم .

ومر النهار ، والوجبات الثلاث مكدسة في المطبخ لم يتسلمها احد وفي المساء حضر وكيل حكمدار مديرية الفيوم ، وقامت مظاهرة ارهابية ، فجمع قوة الحراسة كلها المكونة من ثلاثمائة جندي ، والقى فيهم كلمة بصوت عال تعتمد ان يصل الى سكان العنابر ، قال لهم : « ان هؤلاء الشيوعيين اعداء للوطن ، واعداء للثورة ، واعداء للعروبة ، وانهم خونة يستحقون الاعدام » ، وطلب منهم الا تأخذهم بهؤلاء الاعداء رحمة ، واستشهد في كلمته بآيات من القرآن ، نطقها مغلوطة ، لم يجد حفظها وهو يستعد لتلك المناسبة ثم سلم جنبيين مكافاة للجندي الذي امسك بالرسالة المهرية .

وجاء اليوم التالي ، ووفدت على المعتقل عدة سيارات محملة بالجنود لابسي الخوذات الحديدية ، البعض مسلح بالبنادق والبعض مسلح بالقنابل اليدوية والبعض الاخر بالقنابل المسيلة للدموع ، وآخرون يحملون عصيا غليظة .

نزل هؤلاء الجنود واخذوا طريقهم الى منطقة العنابر ، وامام عنبرنا قاموا بمظاهرات ارهابية .

واخرج سكان عنبر (1) الى الفناء بين صفوف الجنود الذين وقفوا بينادقهم وقنابلهم وعصيهم في وضع استعداد ، وتقدم حكمدار مديرية الفيوم قائلاً : من يريد ان يتسلم طعامه فليتقدم خطوة . . ولم يتقدم احد . فعاد يقول : الممتنعون عن الطعام ياخذون خطوة الى الخلف . .

وخطا الجميع الى الخلف . . لم تفلح مناورته الارهابية في تفتيت وحدة المعتقلين . . وتصدى له واحد من المعتقلين فاضحا سياسة السرقات . . سرقات القائد ، وسرقات غطاس . . وقال : ان الارهاب كله مقصود به التفطية على تلك السرقات والاستمرار فيها . .

وبهت حكمدار الفيوم . . ووقف بعض رجال المباحث صامتين . . لم يستطع احد منهم ان يواجه التهم التي وجهت الى قيادة المعتقل . . وادخل سكان التنبر . . واخرج سكان عنبر (2) وغالبية من العمال . . كان الحكمدار يتصور بعقليته البورجوازية ان هؤلاء العمال سيرهبون رتبته

المسكرية ، فهو كثيرا ما رأى فقراء الفيوم يعملون لمثلي السلطة الف حساب .. وتقدم بكل شراسة الى المناضل محمود عطالله رئيس نقابة عمال النسيج بكفر الدوار الذي كان في مقدمة سكان العنبر وقال له في لهجة امرأة : اطلع استلم اكلك ..

ورد عليه المناضل النقابي : احنا ممتنعين عن الطعام ولينا شكاوى .. فرفع الحكمدار يده وانهال بصفعة قوية على وجه المناضل محمود عطالله .. فصرخ هذا في وجهه صرخة اذهلت الحكمدار : « احنا ممتنعين لاننا بنحتاج على الاعمال الاجرامية دي » .

واحس الرجل انه امام طينة اخرى من البشر . . وانسحب الى مكتب القائد وسحب جنوده ، وطلب مندوبين عن المعتقلين . . وشرحت له كل الامور : السرقات في الطعام . . والاتاوة التي يفرضها محمد غطاس على المعتقلين . . ومطالبنا في الصحف والاذاعة . . وفتشت على الفور الخيمة التي يقيم فيها محمد غطاس وعثر فيها على بعض المقتنيات الخاصة بالمعتقلين ، فامر الحكمدار بالقاء القبض عليه . . وصدر امر بوقف عقوبة الجلد نهائيا . . وبعدم صرف أي طعام من المطبخ الا بعد وزنه . . ووعد بالنظر في باقي المطالب . .

حقا انهم انتقوا اربعين رفيقا اخرين وابعدهم الى الواحات ولكن معتقل المزب كان قد تمزق وانهارت سياسة الارهاب فيه وتعالق هتافات الرفاق واناشيدهم تودع الرفاق المرحلين ، وتعالق هتافتهم واناشيدهم بعد ذلك في ذكرى بدء العدوان الثلاثي ، وفي ذكرى اول نوفمبر يوم بدأت ثورة الجزائر، وفي ذكرى الانذار السوفيتي وهزيمة المعتدين . .

وفي ٧ نوفمبر ذكرى ثورة اكتوبر العظمى . .

هل تمزقت سياسة الارهاب ؟ ام تمزق فقط معتقل المزب ، ولم يعد المكان المناسب لتنفيذ سياسة تصفية الشيوعيين ؟

## الفصل السابع

### من يحاكم من (١)

على مشارف الاسكندرية ، وفي اعقاب الفجر ، والصيادون يندفعون فرادى ، او جماعات قليلة العدد الى خارج المدينة ، وقد حملوا على ظهورهم معدات الصيد ، كانت قافلة السيارات تدخل المدينة ، سيارات صغيرة لكبار الضباط وللأسلحي ، وسيارات كبيرة مليئة بالجنود ، وكنا نحن جلوسا في سيارات كبيرة مغلقة ، مكبلين بالاغلال الحديدية ، وقد جلسنا متساندين ، وعلى أرض السيارات تكدست الحقائب ، واكياس الملابس ، والجنود بأسلحتهم .

كنا قد قضينا الليل بأكمله في السيارات ، وبعد مغادرتنا سجن القاهرة في الليلة السابقة ، وطوال الطريق الصحراوي لم نلتق بأحد ، سوى سيارات البوليس والحراسة . كان الطريق مقفلا في تلك الليلة ، وحالة الطوارئ معلنه في القاهرة ، فان اثنين وستين من قادة الحزب الشيوعي، وكوادره ، وعناصر نقابية وديمقراطية في طريقهم للمحاكمة .

لقد كان من بيننا من له في الاسكندرية نضال وتجارب كفاحية ولكن غالبيتنا كانت الاسكندرية بالنسبة لهم ذكريات حلوة ، وايام ممتعة ، كانت الاسكندرية بالنسبة لكثيرين منا هي الشاطئ الساهر ، وحدائق النزهة ، وانطونيادس والاجازة الصيفية مع مجموعة من الرفاق والاصدقاء .

ولكننا اليوم نصل الى الاسكندرية ، من اجل ان نقف وجها لوجه مع

---

(١) كاتب هذا التقرير عن المحاكمة هو الرفيق اسماعيل ، وكان هو المسئول السياسي للجنة المركزية داخل السجن ، ولماذا بعد فانه كان من المتحمسين لهل الحزب ، وكان من اوائل من قبلوا اعضاء في الاتحاد الاشتراكي .



النظام الناصري ، ومن اجل ان ننوب عن شعبنا في التعبير عن رفضه وادانته لتلك السياسات المعادية للديموقراطية .

ولم يكن احدنا قد نام اكثر من لحظات ، كان كلامنا يسند راسه على كتف جاره ، ويذهب في اغفائة قصيرة تنتهي باهتزازة من السيارة . وبالرغم من الارهاق والسهر ، كان يسيطر علينا انفعسال وحماس كبيران ، كنا في السيارات الكبيرة ، وعلى بعد عشرات من الكيلومترات من القاهرة ، ومع ذلك كانت آذاننا تمتلىء بالهتافات المدوية ، التي ودعنا بها الرفاق ونحن نغادر سجن القاهرة .. انها صيحات جنود شجبان لتحية رفاقهم المسافرين الى الجبهة .

ان مواجهة المجلس العسكري الذي سيحاكمنا ، والادعاء الذي يريد ادانتنا ، ونحن من جانبنا نريد ادانة سياسات النظام والدفاع عن سياستنا .. وقد تحدد لكل واحد دوره في ذلك .. كل هذا جعل رحلتنا الى الاسكندرية بالفعل اشبه بالسفر الى خط القتال .

وكانت الايام السابقة للسفر ، حافلة بكل ما يحرك المشاعر والاحاسيس لقد التقينا بعائلاتنا لاول مرة منذ اعتقالنا ، وزارنا المحامون ، ومع هؤلاء وهؤلاء ، اخبار واشاعات وامال وتأكيدات . كان الجميع ينظرون للامر ببساطة متناهية ، لم يكونوا يدركون حقيقة ما نحن مقدمون عليه ، كانوا يتحدثون عن طيبة رئيس المحكمة وشخصيته الجادة .

لم يكن في ذهن المحامين سوى خططهم لاجرائنا ، بينما نحن كنا نفكر في الطريقة التي تمكننا من القبض على خصمنا ، ووضعنا في قفص الاتهام . وفي منتصف اغسطس ، بدأت مشاهد المسرحية التي اعدت بكل عناية لقد دبر لنا النظام اكبر عملية ارهاب تحت ثياب ووقار رئيس المحكمة وابتسامته الحانية .

ولكي يتم اخراج المسرحية في ابهى صورها ، كان لا بد ان نبدو امام الجماهير في مظهر مناسب ، ملابسنا نظيفة مكوية ، وذقوننا حلقت في الصباح الباكر ، والكشف الطبي قد وقع علينا للتأكد من قدرتنا على احتمال المحاكمة والمحكمة تستهل اعمالها بتقرير علانية الجلسة ، لكنها علنية بالتقدير الذي يتحملة النظام ، العلنية في حدود رجال المباحث ، والمحامين ، والعائلات التي تحصل على بطاقات . وحتى هذه العلنية قد اسدل عليها ستار غليظ من السرية ، وعدم النشر في الصحافة المحلية ، ولم يسمح لمدربي الصحافة والاذاعة العالمية بحضور المحاكمة التاريخية .

ان الحكومة حريصة على حجب الحقائق البشعة عن انظار القوى المحبة للتقدم والديمقراطية ، التي كانت تعبر عن مشاعر العطف والتضامن مع المناضلين المصريين، الذين يواجهون البطش ، والتي عبرت برسائلها وبرقياتها وبياناتها عن استنكارها للمحاكمة الارهابية ، وطالبت بوقفها واطلاق سراحنا . كانت اللحظات الاولى من المحاكمة حافلة بمشهد فريد : القاعة تملج باجهزة الاذاعة ومصوري الصحف ، والمحامون يفدون بملابسهم التقليدية ، وكل منهم يخاطب متهما او اكثر ورجال المباحث والجنود اكثر من المتهمين وعائلاتهم ، وتندفع من الباب المؤدي الى ردهة المحكمة الى الداخل النساء والاطفال ، والزوجات والامهات والخطيبات والرجال الطاعنون في السن .

ولكن على بعد امتار من اليباب ، وقبل الوصول الى القفص بامتار هناك ايضا سياج غليظ من الجنود ، ورجال المباحث يمنعون الاقتراب منا . وفي مثل هذه اللحظات التاريخية التي قل ان يتكرر حدوثها في حياة الانسان ، لا يمكن لانسان ان يكبح فكره او خياله . كم شهدت هذه القاعة من احداث ومحاكمات .

كم هم ابناء الشعب الذين مروا من هنا على اختلاف ارائهم واسلوبهم في الكفاح . لقد وقف في هذا القفص نفسه بعض الشبان ، الذين ظنوا ان اغتيال هذا الزعيم او ذلك العميل ، هو طريق القضاء على العملاء ، ووقف اخرون ظنوا ان القاء القنابل ، واغتيال الجنود الانجليز السكارى هو الطريق الافضل لارهاب الامبراطورية وارغامها على الانسحاب . ووقف هنا عمال اضرابوا وتظاهروا ، ووقف طلاب وزعوا منشورات واتهموا ذات يوم بالعميل في الذات الملكية . ولكن المتهمين الواقفين اليوم في قفص الاتهام نوع اخر من الرجال وعجينة خاصة من المناضلين ، انهم حركتنا الوطنية في تطورها ومستقبلها ..

ان المتهمين خليط عجيب من الناس ، جاءوا من مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في بلادنا ، كان بينهم الاستاذ الجامعي والطالب ومدير الشركة والعامل والمحامي والمهندس والمناضل الجماهيري والزعيم الطلابي والقائد النقابي ، ومن بينهم مناضلون قدامى عاشوا اجيالا من الكفاح ، ومناضلون شبان في مستهل حياتهم النضالية، كان بينهم العازب والمتزوج ، وكان بينهم ايضا والد السبعة اطفال ، وكان احدهم جدا .

ومنصة القضاء ايضا .. لقد جلس عليها قضاة انجليز وفرنسيون و متمصرون ثم اجلسوا من بعدهم اذنايا وعملاء .. وشيئا فشيئا ، وكرسيا بعد اخر ، احتل قضاة وطنيون ، ناثرون كطبقتهم في مستهل ثورتها ، سجلوا احكاما مشرفة دفاعا عن الحرية والديمقراطية و ضد الاستعمار والاستبداد ، حينما كانوا يناضلون هم انفسهم من اجل السلطة .

واليوم يجلس عليها قضاة يحكمون باسم طبقة عاتية لا تفهم القانون الا من وجهة نظر مصالحها هي . ان نوار الامس لا يقبلون اليوم الحديث عن الحرية والديمقراطية وحقوق الشعب .

ان الحرية عندهم هي الاستغلال وتكديس الثروات ، والديمقراطية هي حق لهم وحدهم .

اما جماهير الشعب . اما رفاق الطريق الذين ثاروا معهم بالامس فهم اليوم هدامون ، مكانهم السجن ، المنافي ، لانهم يرفضون ان تقف الثورة ، ويقولون ان توقفها يعني انتكاسها .

وشيئا فشيئا تتلاشى هذه الصور ويعود المرء الى القاعة وضوضائها . وخلف سياج الجنود والضباط كانت هيون الاهالي .. كانت نظراتهم المليئة بالمعطف والاشفاق تحوطنا . وكان الهم الاكبر للمحامين هو بعث الطمانينة في نفوسنا ، وتاكيد النوايا الحسنة لرئيس المحكمة ، ورسم صورة مشرقة عن امكانيات الدفاع على اساس قانوني . كانت كلماتهم تختلط بتوسلات بعض العائلات ، والرجاء في اعينهم والاشفاق في نظراتهم .

كان المحامون يظنوننا وديعة في ايديهم ، وان مصيرنا ومستقبلنا رهن بجهودهم البارعة في تنفيذ ادعاءات المباحث والنيابة ، وبين بعض الاهالي والمحامين جهود مشتركة من اجل بدل جهد للتأثير في المتهمين . ولكن أحداث المحاكمة ذاتها اخذت تتوالى على نحو لم يكن في حسابهم اطلاقا ، بل ولا في تصورهم . فبالرغم من ان الجلسة الاولى لم تكن سوى جلسة اجراءات شكلية الا انها لم تمر دون فضح لحقيقة المحاكمة . وبدأ القتال فضلا .

وطبقا للخطة المقررة ، اعترض المتهمون على المحاكمة العسكرية ، وسجل بعض الرفاق ان عبدالناصر اصدر حكمه مسبقا في هذه القضية فهو الخصم والحكم والضابط الامر بتشكيل المجلس العسكري ، والحكم لا يعلن الا بموافقتة . وواصل باقي المتهمين الاعتراض على المحاكمة . وكما كشفت الجلسة الاولى عن معدن الرجال الواقفين في قصص الاتهام

فانها ايضا كشفت عن حقيقة المحاكمة .

لقد كان يتمين على المتهمين في مثل هذه القضية الهامة ان يعتمدوا اساسا على انفسهم في الدفاع ، وفي تحويل القضية الى قضية سياسية فعلا ، حاولوا ان يحصلوا على ملف القضية ، حاولوا الحصول على ورق وقلم لتسجيل الملاحظات .

حاولوا مناقشة الشهود مباشرة . ولكن المحكمة رفضت كل هذا . . وباصرار . وبدأت مشاهد المحاكمة تتوالى . رجال المباحث يتقيأون اكاذيبهم . . ويفرغون احقادهم ، ولكن الحقيقة المؤلمة تتضح تماما . ان معلوماتهم الاساسية هي تلك التي يقدمها لهم عملاؤهم في داخل الحزب ، وحقيقة اخرى لا تقل اهمية . . ان اسرار الحزب اصبحت في متناولهم . كانوا يلتقطونها من المقاهي خلال الفترة التي انقسمت فيها المجموعة اليمينية على الحزب في منتصف ١٩٥٨ .

ان فرسان المباحث يحصرون جهودهم في اثبات ادلة الاتهام القانونية . . ولا يجروون على تبني الافتراءات التي يفتدون بها الصحافة والاذاعة .

ان حسن المصليحي رئيس مكتب مكافحة الشيوعية مثلا يقر امام المحكمة انه لا معلومات لديه عن مصدر تمويل الحزب ومكتبه هو الذي غذى الصحف بقصص مختلفة عن تمويل الحزب من الخارج .

وخلال المحاكمة تتكشف لنا حقائق اخرى كريمة . . هي صورة لواقع بلادنا في تلك الفترة .

لقد بدت المحكمة العليا ، مجرد لعبة صغيرة في ايدي رجال المباحث .

ان المباحث تمثت بهيئة المحكمة ، وتخفي عنها اوراقا رسمية وببساطة تامة ، عندما تفضح هذه العملية تعتبرها الخدمة خطأ من فرد ، وليس جريمة من جهاز .

ومظهر اخر من مظاهر بوليسية النظام والفسام الذي استشرى - خبير الخطوط - وهو سيدلسي كبير بمصلحة الطب الشرعي ، ينسى مهمته الاصلية ويتحول الى ضابط - ينسى جلال العلم ، وشرف المهنة ليمارس مهنة ضابط مباحث نشيط ، يجمع الاستدلالات دون دعوى من احد .

ولكن هذا النوع من الشهود لم يكن هو كل الشهود . لقد جاء شهود

آخرون لم يخشوا المباحث ، ولم يرتعدوا من هستيريا النظام ، جاؤوا بناء على طلب بعض المتهمين ، وكانوا بشكل عام ، على درجة كبيرة من الجرأة والتماسك والتعاطف مع المتهمين ..

المحكمة تناقش الشهود مناقشة توحى لمن يتبعها انها مناقشة دقيقة جدا .. مناقشة تتناول كيف دخل الضابط المنزل .. كيف فتش .. من الذي كان موجودا .. الخ .. من هذه التدقيقات القانونية .. كان حرص المحكمة واضحا ان تجعل جوهر المحاكمة هو : هل نحن شيوعيون ام لا ؟ وكنا نحن نقاتل من اجل تحطيم هذا الاطار . كنا نريد ان نرفع المحاكمة الى المستوى السياسي ، نحولها الى قضية سياسية ، الى قضية شيوعية ، الى ابراز دور الشيوعيين ، وما قدموه لبلادنا ، وشرح مبادئ الشيوعيين وشعاراتهم ومواقفهم ، وتأكيد حق الحزب في الوجود ، وكذلك فضح موقف الحكومة وسياستها .

ويدخل شاهد جديد هو رئيس مباحث طنطا ، وهو نفسه الضابط الذي اغتال الشهيد محمد عثمان قبل ذلك باربعة شهور ، وبعد ان انتهى من شهادته يسأله الاستاذ احمد البديني المحامي عن محمد عثمان .

ان الضابط صاحب الجسم الطويل ، العريض الكتفين يرتعش كالعصفور . ان ظهره يهتز كالمصاب بالحمى . لا يجسر على الالتفات نحو المتهمين ، الذين تعالي صياحهم ، وتناثرت منهم الاتهامات والاهانات ، ويشتد اضطرابه وتلعثمه وتفشل النيابة في محاولة انقاذه بالتسرع عليه . ويضطر رئيس المحكمة الى رفع الجلسة .

وبينما نجد الاستاذ البديني المحامي يثير قضية محمد عثمان ، تعذيبه وقتله ، ويتحدث عن الشيوعية التي تحكم نصف العالم وفي طريقها الى حكم النصف الاخر . وبينما يقرأ الاستاذ ماهر محمد علي المحامي فقرات من منشورات الحزب ويصفها بانها اهازيج وطنية ، وبينما يصف الدكتور سعد عصفور المحامي المتهمين بانهم « الرجال الاشداء المؤمنين بمبادئهم في شجاعة » .. وبينما يتجاوب هؤلاء المحامون مع الموقف النضالي للمتهمين ، ويدركون المستوى الذي يتعين عليهم التقدم نحوه في مثل هذه القضية نجد محاميا اخر اسمه علي صالح ، من ذلك النوع الذي يلقي في الوحل شرف المهنة وكرامتها ، ويعمل طوع امر رجال المباحث والمخابرات ، ويصبح هو نفسه جزءا من جهاز القهر الذي كنا نواجهه في شخص المحكمة ، نجد مثل هذا المحامي يستهل دفاعه بالطعن في الشيوعية

والشيوعيين ، ويثور احد الزملاء ويحاول منعه من مثل هذا الكلام وينتهي  
بتنحيه عن الدفاع ، ويتضامن كل المتهمين في الانسحاب من القفص .

لقد اثبتت التجربة مع المحامين ان موقف المتهمين هو العامل الحاسم  
الذي يقرر مصير القضية والذي يحدد خط سير المحامين انفسهم . ان  
المحامين الذين كانوا في البداية يسعون لاقناعنا بعدم الاعتراف بمضوية  
الحرب اصبحوا هم يقاتلون الى جانبنا . كما اثبتت التجربة ايضا خطر  
المحامين الرجعيين الذين تمتلىء مواقفهم بالجبن والنفاق البورجوازي .  
وينتهي الشهود ... . ويأتي دور المتهمين في الدفاع عن انفسهم .  
وتشهد قاعة المحكمة مظاهر سياسية ضخمة .. يتوالى غالبية المتهمين ،  
واحدا بعد الاخر ، يناقشون سياسة الحكومة ، ويحذرون من نتائجها  
الوخيمة . وعندما يقول احد المتهمين عن نفسه انه شيوعي ، يوجه رئيس  
المحكمة سؤالاً قد يبدو غريباً وشاذاً ان يسأل في مثل تلك المحكمة !

- هل هناك حزب شيوعي ؟

- نعم يوجد حزب شيوعي .

- أين هو ؟

- الحزب موجود في المصانع والمزارع والاحياء .

وكانت هذه لحظة تحول في القضية كلها .

ثار الاهتمام والفضول المزوج باشفاق في بادئ الامر ، ثم تصاعد  
الاهتمام وتحول الى تأييد حماسي وتقدير عميق من جانب المحامين والاهالي .  
اما المحكمة فقد لبست ثياب النمر الفاضب ، وكثرت عن انياب الفدر،  
واخذت في المقاطعة والتضييق ، والمحاولات الفاشلة لحصر الكلام حول  
« هل انت شيوعي ام لا ؟ » .

اما نحن فقد مضينا في طريقنا ، واصررنا على خطتنا ، اننا هنا  
لنحاكم البرجوازية .. اننا هنا لنعرض الصفحة المشرقة للشيوعيين ،  
كفاحهم وتضحياتهم ، ميادئهم واهدافهم ، لتأكيد حق الحزب في الوجود .  
ويتوالى غالبية الرفاق واحدا بعد الاخر يعلنون عضويتهم في الحزب  
الشيوعي ، او يقدمون دفاعاً ديمقراطياً ، يدافعون فيه عن الشيوعية طبقاً  
للخطة المقررة .

وتوالى كلمات المتهمين ودفاعاتهم . المحكمة تضيق الخناق ، والمتهمون  
يصرون على السير قدماً ، على عرض صفحاتهم كاملة .. يصرون على فضح  
البورجوازية وسياستها ، ويرسمون خريطة الفدر ، ويحذرون من احداث  
المستقبل القريب . الاحداث التي تحققت ، والخريطة التي رسمت فعلاً ،

والحصاد الذي جناه نظام عبدالناصر من جراء سياسته ، وكما قلنا تماما . .  
ويسير الصراع بين خطة المحكمة وخطتنا حتى نهايته ، ونفرض  
اسلوبنا . . وتقره المحكمة .

لم يترك المتهمون مشكلة سياسية او اقتصادية او ناحية من نواحي  
القضية الوطنية الا وتناولوها . وكل يوم يمضي انما يضيء قفص الاتهام  
ويزهو ، والمتهمون ترتفع رؤوسهم ، والمحكمة تتضاءل وتستسلم ،  
والمحامون يجيئون الينا بنظرة جديدة ؛ نظرة ملؤها الاهتمام والتقدير  
وانسحق كبار المحامين الرجعيين تحت وطأة المقاطعة والاحتجاج ، وعجزهم  
عن الارتفاع الى مستوى الموقف وكل يوم وبعد نهاية الجلسات ، وفي اسفل  
السلم المؤدي من قفص الاتهام الى بدروم المحكمة ، نجد اذرع واحضان  
وقبلات الجنود المكلفون بالحراسة ، في انتظار الرفاق الذين كان عليهم  
الدور في الدفاع عن حقوق الشعب الكادح .

وفي مواجهة الحملات المتصاعدة ضد العراق وثورته ، وخاصة  
عند تنفيذ حكم الاعدام في بعض العناصر المعادية للثورة هناك ،  
اخذ المتهمون على عاتقهم اعلان تضامن شعبنا مع شعب العراق في وجه  
تهديدات باشد الاجراءات الانتقامية . وعندما تهرب ، تحت ضغط المتهمين ،  
محامو الدفاع جميعهم من الاشتراك في مظاهرات العداء للثورة العراقية ،  
هجزت مخابرات النظام عن ايجاد محام واحد من هيئة الدفاع لتنفيذ خطة  
مجلس نقابة المحامين الموالي للحكومة والتي كانت تقضي بمقاطعة الجلسة  
في اليوم المحدد لتنفيذ احكام الاعدام في الطبقلي . . . جاءوا بمحام غير  
عصو في هيئة الدفاع يحيطه عدد من رجال المخابرات ليعلن قرار مجلس  
ادارة النقابة المتباكي على الحريات المهدورة في العراق . وفضح سعدرحمي  
نفاق مجلس النقابة الذي لم يقل كلمة عن المحاكمات الجائرة التي تجري في  
مصر مخالفة لاوليات القانون والمشروعية ، واعلن المتهمون صالحين  
تضامنهم مع الشعب العراقي واستنكارهم لتدخل النظام المصري في شؤونه  
مرددين شعار « ارفعوا ايديكم عن العراق » .

★ ★ ★

مشهد لقاء سعد رحمي بزوجه ، وقد فقدوا وحيدتهما عزه ، التي كانت  
قبل ايام في ايدينا في القفص . . وساد القاعة صمت رهيب لا يقطعه ،  
لاكثر من نصف ساعة - سوى صوت زفرة من سيدة ، او حركة اخراج  
منديل لتجفيف دموعه ، وسعد وفوزية يمسكان بايدي بعضهما ، ويشجع

كل منهما الاخر بكلمات متقطعة ..

ومشهد اخر لا ينسى ، هؤلاء المتهمون الذين يحاكمون في اكبر قضية سياسية شهدتها البلاد .. الرجال الذين وقفوا وقفة الند للند امام عبدالناصر .. مشهد هؤلاء الرجال يحملون طفل احدهم في عيد ميلاده ، وهم يغنون جميعا وسط دهشة الحاضرين اغنية عيد ميلاد الاطفال « يالا حالا بالا » .

وبين المتهمين جميعا ، وبين العائلات جميعا تذوب كل الحواجز . وكل يوم في لحظات الاستراحة تتفجر كل المشاعر كما لو كان الجميع اسرة واحدة . اذا تخلف احد الاشخاص لاحظ ذلك كل الناس . واذا ظهر شخص كان متغيبا بعض الجلسات هلل الجميع بحيونه .

ومن المواقف ذات الدلالة العميقة موقف المتهم حسن بخيت الذي كان قد انهار امام اليوليس والنيابة فور القبض عليه فادلى باعترافات اساءت الى بعض المتهمين والى الحزب . وقد بنت المباحث والنيابة على ضوء اعترافات حسني بخيت جزءا كبيرا من خطتها في القضية . وظلت السلطات من مباحث ونيابة واعضاء هيئة المحكمة تساوم حسني بخيت مقدمة له البراءة في مقابل الاستمرار في موقفه وعندما جاء دوره في الكلام كانت زوجته الشابة في مقاعد الجمهور تتابع تصرفاته وتشجعه على ان يقف الموقف الذي يصون سمعته ويسترد شرفه . فانطلق حسني بخيت يتحدث مدة ساعتين لم يستطع رئيس المحكمة مقاطعته . فسحب جميع اعترافاته ، وادان اول ما ادان نفسه على ما اتخذه من موقف وصفه بانه مخز واستنكر موقفه السابق الذي نسبه الى جبنه وتخاذله ، وعبر عن عمق اسفه لما تسببه من اساءة الى من وصفهم بانهم انبل ابناء الشعب المصري ، مختتما دفاعه قائلا:

« انني اعلم ان موقفي هذا سيجر علي نقمة المحكمة ولكنني الان مرتاح الضمير اذ اقدر ان السنوات التي سأقضيها في السجن لن تكون عقوبة على نشاطي السياسي ولكن ستكون نتيجة على موقفي المتخاذل الاناني وعلى الاساءة البالغة التي الحققتها بمن هم انبل وأشرف ابناء الشعب المصري » .

وبهذه العبارة ختم حسني بخيت دفاعه وسط بكاء عديد من افراد العائلات الجالسين في مقاعد الجمهور والمتهمين ، بل وبعض المحامين وصفار رجال الشرطة .

وفي الايام الاخيرة للمحاكمة ، قدم المتهمون بيانين سياسيين ، واحدا



وقعه التسعة المعترفون بعضوية الحزب ، و آخر وقعه جميع المتهمين .  
وتضمن البيانان كافة القضايا التي اثارها المتهمون في المحاكمة . لقد كانت  
العبارة الاولى في البيان « اننا نكتب هذا قبل ان نغيب في احد المعتقلات  
ويسدل علينا ستار غليظ » .  
وقد كان ..

لقد انتهت المحاكمة في يوم ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٩ ، وفي يوم ٧ نوفمبر  
كان المتهمون الذين انتهت محاكمتهم .. ولم يعد باقيا سوى اصدار الاحكام .  
كانوا يجردون من ملابسهم ، رتنهال عليهم العصي القليظة من اوردي ليمان  
الى ابي زعبل « (١) .

وبعد عشرين شهرا كاملة في الاوردي ، وفي ظهر الخميس ٦ يوليو  
١٩٦١ وفي حجرة مأمور الاوردي الصغيرة ، العارية من الاثاث سوى مكتب  
قديم كالح ، استمعنا واحدا بعد الاخر للاحكام الهمجية .. الاحكام التي  
صدرت قبل ذلك بعشرين شهرا وبقيت في درج المصليحي يساوم بها ،  
ويستعملها في معركة التصفية ، ولكنها كانت سلاحا فاسدا ..  
لقد كشفت الاحكام الستار عن حقيقة عدالة المحكمة ، وحياتها وطيبة  
رئيسها ودموع عضو اليسار ..  
وان المعركة مستمرة .. ولم تنته فصولها ..

---

(١) الواقع ان اللجنة المركزية تتحمل جانبا كبيرا من مسئولية تصعيد اساليب التعذيب  
في الاوردي كما سيأتي ذكره ، وذلك لانها لم تبدي اية مقاومة للاسلوب الذي استقبلت به هنالك ،  
ولو انها قاومت ، حتى ولو بسقوط ضحايا لاحتجت كل خطة التصعيد فيما بعد .



الجزء الثاني

علو حافة الموت

## الفصل الأول

### القافلة الغامضة

الهدوء يسود معسكر العزب في الفيوم وقد آوى بعض المعتقلين الى فراشهم وظل آخرون يقرأون الصحف التي سمحوا لنا بها بعد معركة سبتمبر ، بينما انشغل البعض في لعب البريدج .

خطوات الحارس خارج العنبر هي كل ما يمكن سماعه في سكون الليل ، ومن حين لآخر كان يؤنس وحشته باغنية ريفية جميلة يقف تحت نافذة العنبر ويردها ...

يا عزيز عيني انا بدي اروح بلدي

يا عزيز عيني السلطة اخذت ولدي

لقد انبعثت تلك الكلمات اثناء الحرب العالمية الاولى حينما كانت سلطات الحماية البريطانية تغير على القرى وتختطف الفلاحين لترسلهم الى الجبهة الفلسطينية لمواجهة الجيوش التركية . وهناك سقط عشرات الالاف من ابناء ريفنا ، وظلت ارضهم تنتظرهم ، وظلت امهاتهم تنتظرهم ، ولم يعودوا .

ومنذ هزيمة الزعيم عرابي في عام ١٨٨٢ ، تميزت تلك الفترة بانتفاضة كانت عناصرها تتجمع في وجدان الشعب المصري .

كانت كلمات « يا عزيز عيني ... » تتردد ، وتعبّر في كل مرحلة عن الاعزاز العميق الذي يكنه فلاحونا لقائد من قادة الثورة الوطنية الديمقراطية ، كان « عزيز عيني » قبل الحرب العالمية الاولى هو البطل احمد عرابي الذي كانت قلوب ملايين الفلاحين تخفق له بعد ان هزمت الخيانة ثورته في ١٨٨٢ ، واعتقل ونفي الى سيلان ، وظلت قصته في الريف تتردد كما تتردد

اساطير المأساة ، قصة الابن الذي انتزع من امه من مصر والقي به بعيدا لا نشيء الا لانه احبها . . . وكانت « عزيز عيني » تعني ايضا الرعيم محمد فريد زعيم الحزب الوطني بعد مصطفى كامل ، والذي ظل مبعدا عن مصر الى ان مات في المانيا ، لانه كان يقود الحركة الوطنية الديمقراطية في مستوى متقدم : النضال لاجلاء المستعمر ، ومن اجل دستور ديمقراطي ، والنضال من اجل حق العمال في تكوين نقاباتهم . . . كان « عزيز عيني » في العشرينيات والثلاثينيات هو سعد زغلول والذي نفي الى مالطه ثم سيشل .

وحيثما تردد قرانا تلك الاغنية في هذه الايام فعزيز عيني هو ذلك الشباب الذي انتزعه السلطات لتلني به في المعتقلات . . وما من قرية في ويفنا الا واخطف احد ابنائها ، او احد ممن ينتمون اليها ، في الحملة المعادية للديمقراطية .

وحيثما كان ذلك الحارس يردد : « يا عزيز عيني » لم يكن حاله يختلف كثيرا عنا . . فهو ايضا انتزع من بضعة القراريط التي كان يفلحها ، وانتزع من جاموسته التي كان يرعها . وانتزع من امه وزوجته وأخوانه الذين كان يعولهم ، ليقضي ثلاث سنوات مجندا في فرق الدرجة الثانية مقابل جنهيين كل شهر . ولم يكن عسيرا والوضع هكذا ان تنمو بينه وبين اولئك الذين قام على حراستهم مشاعر عميقة من الود . . وتزدحم عيناه بكل معاني التعاطف حينما ينظر اليها من خلال الشبكة السلكية التي تغطي النافذة ويردد . .

يا عزيز عيني السلطة اخذت واندي . . .

وتوقفت الاغنية فجأة وانتبه الحارس ، ثم ابتعد عن النافذة بعد ان احس نشاطا غير عادي في مبنى الادارة . .

لقد وصل قائد المعتقل وضباطه ومدير مباحث المنطقة ، واستدعيت قوة الحراسة المكونة من ثلاثمائة جندي من خيامها ، وبعد قليل بدأ القائد وضباطه يمررون على العنابر وينادي من قائمة في يده اسماء مائة وعشرين من المعتقلين ، واصدر تعليماته لهم بحزم امتعتهم . لقد اتسم صوته تلك المرة بالغلظة والخشونة اللتين كان قد تخلى عنهما . وصلت اربع سيارات كبيرة مفلقة تصحبها مجموعة من السيارات البوابيسية المسلحة ، وسمع صليل السلاسل . كل شيء كان يشير الى ان الذين نوديت اسماؤهم سيرحلون الى مكان جديد .

جاءت تلك « الترحيلة » عقب وصول خبر مقتل المناضل الشيوعي محمد عثمان وعقب وصول انباء اختطاف سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو ، واغتياله في دمشق ، فاشعلت غضب المعتقلين وانطلقت هتافاتهم ضد الارهاب وتعالى اصواتهم تهدد ...

لا الليمان ولا التشريد يرهبنا ناره  
احنا جوا السجن حديد احنا ثواره  
احنا طليعة شعب مجيد وكفاحنا كفاحه  
وانتصار الشعب اكيد وسلاحنا سلاحه

وتستمر الانشودة تحكي عن كل تجارب شعبنا المريعة مع النظام الناصري وعلى الاخص شتى البطالين مصطفى خميس ومحمد البقري ، بمد محاكمة عسكرية صورية في كفر الدوار لاتهامهما بقيادة اضراب عمال شركة مصر للفلز والنسيج بكفر الدوار في اغسطس ١٩٥٢ .  
البقري وخميس مشنوق بايدين العسكر

يهتف بالصوت المخنوق والدم الاحمر  
دم يبشعلها نار في طول الوادي  
نار كفاح ، كفاح ثوار ، من اجل بلادي

تجمعنا نحن الذين صدر الامر بترحيلنا في المنطقة الحرام ، يحيط بنا الجنود ، شاكي السلاح ، والحجلات تطبق على معاصمنا ويساق كسل ثلاثين منا الى احدى السيارات المفلقة ، فنحشر فيها حشرا والاصوات الهادرة من داخل العنابر تدفع الدم حارا في عروقنا ، فيتبدد برد ذلك الليل الثامن من نوفمبر ...

لا الليمان ولا التشريد يرهبنا ناره  
احنا جوا السجن حديد احنا ثواره

وتنطلق بنا السيارات في تلك الرحلة الغامضة ، واخر ما تعيه ذاكرتنا من الفيوم هو هتافات الرفاق تودعنا :  
عاش الحزب الشيوعي المصري

دارت السيارات دورة واسعة قبل ان تخرج الى الطريق الصحراوي وحينئذ بدأت تظهر اول معالم الرحلة الجديدة ، لقد عرفنا على الاقل اننا لسنا متجهين الى بني سويف حيث يتم من هناك ترحيل المعتقلين الى الواحات الخارجة بالقطار ، وانما كنا في الطريق المؤدي الى القاهرة ..

وبدا اعضاء مجموعة خليل (١) المنقسمة على الحزب يهللون ويتصاحون :  
« اننا ذاهبون الى القلعة تمهيدا للافراج عنا » .. وابتسما في رثاء ...  
ان رحلات الافراج لا يمكن ان تتم تحت جناح الظلام وتحت الحراسة  
المشددة ، وليس هناك في الجو السياسي ما يشير الى اي تراجع من  
جانب عبد الناصر في حملته ضد الشيوعية .. بل العكس فأبواق الدعاية  
ما زالت تواصل حملتها المسعورة ، وقبيل ترحيلنا بايام كانت هناك حملة  
اخرى اعتقل فيها حوالي عشرون شيوعيا ...

« ولكنهم كانوا يرددون في سداجة : أن الصاغ صلاح سالم في  
موسكو ، وهذا دليل على ان العلاقات مع المعسكر الاشتراكي بدأت تعود الى  
سابق مهدها وهذا بداية الانفراج » .

كنا قد تعدينا غابة اوشيم ، وبذلك اختفت اخر قطعة من الارض  
الخضراء ولم يعد المرء يتبين الا جبالا من الظلام الفاحم على حدود ضوء  
المصباح الامامي للسيارة .

وتوقفت تلك المناقشة على نعم ريفي حزين ، كان يفنيه احد رفاقنا  
اللاتين من قرى الدلتا ...

يا ليل يا ليلي يا ليلي .. يا ليل يا ليل يا ليل  
زقق الوابور ع السفر  
انا قلت رايحين فين ..

---

(١) خليل هو الاسم الحركي لمحام مصري تزعم الجماعة المعروفة باسم الحركة  
الديموقراطية للتحرر الوطني ( حدتو ) بعد طرد قاداتها وهم من الفرنسيين والابطالين الذين  
كانوا يعيشون في مصر الى خارج البلاد . ومنذ اللحظات الاولى لحركة ٢٣ يوليو كانت هذه  
الجماعة تؤيدها تأييدا مطلقا وغير مشروط مما ادى الى حدوث انقسامات كثيرة فيها  
احتجاجا على هذا الموقف . وبعد ان انضمت الجماعة للحزب الموحد ، عاد خليل فقادها  
للانقسام على الحزب في منتصف ١٩٥٨ لانه كان من رايه ان اعضاء الحزب الشيوعي جميعا  
يجب ان ينخرطوا في الاتحاد القومي ( حزب الحكومة ) بينما كانت الاجنحة الاخرى في  
الحزب تمارس ذلك ، وعقب اجراءات التاميم عام ١٩٦١ خرجت هذه الجماعة بنظرية ان  
السلطة الناصرية على راسها مجموعة اشتراكية وان واجب الثوريين هو الاندماج فيها ،  
وبعد ان حلوا تنظيمهم رسميا عام ١٩٦٤ انضم قاداتها واعضاؤها للتنظيم الطليعي (السري)  
الذي تولى اماتته شعراوي جمعة ، ثم عاد بعضهم ينشط مؤخرا ويهدرون مجلة سرية  
يسمونها الانتصار تبرر السياسات الرسمية الحالية .

رايحين تفيبوا سنة  
واللا تفيبوا اتنين ..  
وسرحت الخواطر بعيدا ...

وهمس احد اعضاء مجموعة خليل : « ليه يفتنوا الاغنية الحزينة  
دي ... كأننا رايحين مش راجعين .. احنا حنطع قريب ، لازم يفتنوا  
حاجة فيها فرح .. » .

كان فنانا كبيرا له مكانته المرموقة بين أفراد شعبنا . وليس بين  
المثقفين فحسب ، فكل صورة من صورده ، طوال مراحل نضالنا الوطني  
كانت في قوة المنشور السياسي .. وكان أيضا من هواة الفريكلدور  
المصري ..  
- واجبته ..

- غني انت اغنية فرح .. رفاقنا ما يفكروش بطريقتك ، ما فيناش  
واحد يثق في النظام زيكم .. علشان كده ما حدش مصدق ان فيه افراج  
.. وصمت ... وبعد قليل بدأ هذا الفنان ينددن تلك الاغنية الشعبية  
التي تحكي قصة مقتل احد ابطال ابناء الصعيد على ايدى المساكر النوبيين  
الذين طالما استخدمهم صدقي باشا ضد جماهير شعبنا المعادية للاستعمار  
والاقطاع ...

يا بهيه وخبريني  
عاللي قتل ياسين  
قتلوه السودانيه  
من فوق ظهر الهجين  
وياسين رايح في دمه  
وخايف منه الحكيم  
واحكم بالعدل يا قاضي  
قدامك مظالم  
هوج الطربوش على شجه  
وحكم باربع سنين

وتوقف فجأة .. وكان عقربا لسعه .. وهو يقول :

« اربع سنين .. مش معقول اربع سنين .. علشان ايه تقعد اربع  
سنين .. هو - اي عبد الناصر - محتاج لنا برده .. احنا خارجين ..  
ش معقول .. » وصمت .. وتركته يعيش مأساته .. فمئذ اللحظة



الاولى وقادته يقتنعونه بان اعتقالهم امر مؤقت .. وان في الامر خطأ ما ،  
وانهم لا بد مفرج عنهم قريبا ، فليست هذه سوى ازمة عابرة بين عبد  
الناصر وبينهم : وسرعان ما يستعيدون ثقته ويفرج عنهم ...

كانوا يكررون له هذا ، وكان يكرره لنفسه ، حتى يقتنع به . ولكنه  
احيانا ما كان يضيق ذرعا بتلك الاكذوبة التي يحاول ان يفرضها على  
ذهنه ، ... اكذوبة الازمة العابرة التي سرعان ما تنتهي ، حينئذ كان يثور  
ويسب .. انه ما زال حتى هذه اللحظة : (١) ورغم ما حاول ان يفتع به  
نفسه عن الازمة العابرة ما زال ملقى في معتقل الفيوم والطريق الوحيد  
الذي تفرضه عليه المباحث الناصرية للخروج الى الحياة .. هو ان يكتب  
استنكارا للشيوعية ويقدم اعترافات مكتوبة عن كل علاقاته السياسية ..

الثالثة صباحا .. دخلت القافلة مدينة القاهرة ، وعلى طول طريق  
الهرم انتشر رجال البوليس السري .. كما انتشرت الكازينوهات .. وما  
زالت أصوات الموسيقى الخافتة تنطلق منها ، والبورجوازيون يلهون فيها.  
فقد اصبحت القاهرة ملكا خالصا لهم ، ولم يعد هناك ما يخشونه في ظل  
تلك الحملة على الشيوعيين .. فلم لا يعربدون ..

عبرت القافلة كوبري الجامعة ثم جسر القصر العيني ، وبدلا من ان  
تنعطف يمينا .. في اتجاه القلعة .. انعطفت يسارا .. ونظرت الى  
صاحبي الفنان .. وفهم ما اريد فقال : معلش .. نبقى رايعين القناطر  
استعدادا للافراج عنا ..

كانت المدينة كلها نائمة في تلك الساعات من الصباح ، ومع ذلك  
ضاعفت السيارات من سرعتها ، وكأنما تخشى ان يستيقظ من اهل المدينة  
من يشهد تلك القافلة الفامضة وهي تسير الى وجهتها المجهولة ... كانت  
المدينة نائمة وادعة .. ومع ذلك كان سجانونا يخشونها ..

وحيثما انعطفت القافلة شمالا بشرق وهي تخرج من القاهرة على  
نهاية حي شبرا .. نظرت مرة اخرى الى صديقنا الفنان .. الذي اجاب  
وان كان في صوته رنة غير واثقة ..

« يظهر اننا رايعين ابو زعبل .. دا معتقل كويس ، احنا سييناها

---

(١) لحظة كتابة هذا الجزء من الكتاب - اي بعد ذلك بحوالي عامين - حيث قضى هذا  
الفنان عشرة شهور في معسكر التعذيب في اوردي ابو زعبل ، ثم نقل الى سجن الواحات  
الخارجة ، ثم الى معتقل الفيوم ثانية .

سنة ١٩٥٦ . وكان فيه راديو وصحف ، وكان مسموح لنا فيه بالزيارة ..  
واعتقد ان احنا متقولين هناك عشان يدونا حق الزيارة من اهالينا .. لان  
الفيوم بعيدة عليهم ..

وابتسمت .. وقلت له :

– لكن ابو زعبل داهو اللي دخل عليكم فيه همت سنة ١٩٥٦ بجنوده  
وضربكم بالشوم واتم مضربين عن الطعام في اليوم التاسع ..  
فبان عليه الضيق وهو يجيب ..

– انتم متشائمين ، ما بتشوفوش الامور الا من جانبها الاسود ..  
وساد الصمت وسهام من الريح اليارد تنفد من فرجات في ستائر العربة  
لتصيبنا بدا يشبه الرعشة تشمل البدن باكملة ..

ومرت حوالي الساعة بعد خروجنا من القاهرة ، ثم مالت القافلة من  
الطريق الرئيسي الى طريق جانبي ضيق تتعاقب في اعلاه قمم اشجار  
الكافور المصطفة على الجانبين .. ولم تكد السيارة الاولى تقترب من نهاية  
ذلك الطريق حتى تعالت في الجو صيحات عسكرية ، واوامر سريعة ،  
وقرقة سلاح ، وعلى اضواء الفجر الاولى بانث معالم المكان ...

كان الطريق يفضي في نهايته الى بوابة ضخمة كتب في اعلاها :  
« اوردي ليمان ابي زعبل » . وعلى جانبي البوابة وقف صفان من رجال  
البوليس الحربي في وضع استعداد ببنادقهم سريعة الطلقات ، وعلى بعد  
امتار الى يسار الداخل كان مكتب مأمور السجن ، وضعت امامه منصة ،  
وعلى بعد خطوات الى يسارها استقرت الالة الكريهة التي تعرف في  
السجون المصرية باسم « العروسة » وهي عبارة عن قاعدة خشبية يرتفع  
فوقها ما يشبه الصليب ، يربط اليه الانسان بسيور جلدية ، وهو مفرد  
الذراعين عاري الظهر ، ليجلد بسوط ذي حبال من جلد خاص كل منها  
معمود ثماني عقد ..

ونظرت الى صديقنا الفنان .. كان يدخن سيجارته في عصبية ...

## الفصل الثاني

### استقبال

لم تتوقف السيارات امام بوابة الاوردي ، بل واصلت السير الى مكان خرب يبعد حوالي ٣٠٠ متر ، وهناك صدر لنا الامر بالنزول من السيارات لنجد انفسنا محاصرين باعداد غفيرة من الجنود المسلحين باسلحة خفيفة ، وبالعصي الفليضة ...

جلسنا القرفصاء في ذلك المكان العاري ، في برد الصباح النوفميري . حتى اذا كانت الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم - التاسع من نوفمبر ١٩٥٩ - تعالى صوت « البروجي » معلنا وصول اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون وبصحبه عدد من اصحاب الرتب العسكرية العالية من مصلحة السجون ، ومن وزارة الداخلية ، ومن ادارة المباحث العامة ، وادارة المخابرات العامة .

واللواء همت هذا كان ضابطا بمخابرات الجيش ، وبعد حركة ٢٣ يوليو ابعده من الجيش لمسائل تتعلق باخلاقياته ، وبعد توسلات ووساطات الى عبد الناصر ، الحق ضابطا بسجن القاهرة ، وكان من عادة النظام ان يلجأ الى هؤلاء الذين اذلهم ، فيعيد اسناد مهمات معينة لهم مطمئنا الى انهم سيتفانون في خدمته بعد ان ادبهم ، وعليه فحينما احس النظام بحاجته الى رجل دموي لمصلحة السجون لتاديب معارضيه وخاصة الشيوعيين ، اظهر همت كفاءة منقطعة النظير مما جعله يرقى بسرعة الى وكيل مصلحة السجون .

واخذ الجميع مكانهم الى المنصة امام مكتب مأمور السجون .. ولقد اشتهر همت بكراهيته العميقة للشيوعيين ، كراهية ملأت عليه

كل حياته حتى انه على حد تصريح له لاحد اصدقائه .. لم يعد يعرف كيف يحب ابناؤه ، ورجال مصلحة السجون يحكون اقاويص كثيرة عنه تتعلق بحياته الخاصة وما فيها من انحرافات ..

لقد حظي اسماعيل همت برضاء كبار المسؤولين في النظام ، وكلما اعرب له هؤلاء عن اعجابهم بالاسلوب الذي يتبعه مع كل معارضي عبد الناصر المودعين في سجنونه كلما تمادى هذا في دمويته طلبا للمزيد من اعجاب سادته ..

كانت الكلمة الاولى والاخيرة في مصلحة السجون اللواء همت باعتباره ضابط مخابرات لانه مقرب من عبد الناصر ، حتى مدير مصلحة السجون لم يكن يستطيع ان يعترض على امر يريده همت ، وبلغ من سطوته انه كون لنفسه فرقة خاصة من عتاة جنود مصلحة السجون ، واكثرهم شهرة بفظلة القلب والشراسة ، مهمتها تأديب اي فريق من المسجونين يري الحكام ضرورة تأديبهم .. ان كل كبار المسؤولين في مصلحة السجون يقومون بجولاتهم التفتيشية على السجون بمفردهم ، فيما عدا همت الذي لا يزور سجننا الا مصحوبا بالفرقة التي عرفت باسمه .. فرقة همت ..

ولعل الاسلوب الذي دبر به همت « حفل الاستقبال » لنا على بوابة الاوردي يلقي ضوءا على طبيعة هذا الرجل ..

كان المعتقلون ينادون خمسة بعد خمسة .. بشكل عادي ، وهم يحملون امتعتهم الى حيث يتوارون عن اعين زملائهم ، وفجأة تصدر لهم الاوامر بالجري ولا مجال للتردد اذ حالما تصدر الاوامر تنهال العصي الغليظة على اكتافهم وظهورهم ، وطوال الطريق يطاردهم بعض الجنود بالعصي ، وضابط على ظهر جواد ، وعصيم تهوي على ظهور الخمسة الذين يجرون متعثرين في امتعتهم ..

وحينما يصل الخمسة الى بوابة الاوردي ، امام العصابة ادموية بزعلمة همت تتلقف كل منهم مجموعة من الجنود بالكلمات والصفعات والعصي الى ان يخر على الارض امام رجل امسك بادوات الحلاقة فيزيل له شعر راسه تماما ولا يسلم اثناء ذلك ايضا من الركل والعصي .

كان على الواحد منا بعد ان يفرغ منه الحلاق ، ان يخلع كل ملابسه ويقف عاريا تماما في مواجهة اسماعيل همت بين اللكمات والصفعات الى ان يستمتع اللواء الدموي . ومن حين الى اخر كان همت يشير الى البعض

منا فيجرون الى « العروسة » حيث يجلدون .

ويتقدم اثنان من الجنود ليحرا الواحد منا وهو عار تماما من اذنيه الى بوابة الوردى حيث تستقبله عصابة اخرى من الجنود مسلحين بالعصي الفليضة ، وبمصي من الخيزران السميك ، والرفيع ، وبفروع النخيل وبسياط من الجلد ، وعلى راسهم الضابط السفاح عبد اللطيف رشدي ، هنالك يستوقف الواحد منا مرة اخرى لينهال عليه الضرب من كل ناحية . لقد نظمو انفسهم بحيث يذيقوننا طعم كل ادوات الضرب . .

ثم يمر الواحد منا بين صفين من الجنود حاملين عصيا من الخيزران تنهال على جسده العاري الى ان يصل الى باب العنبر فيدفع به احد الجنود الى الداخل ثم يفلق الباب .

كان من بيننا مرضى القلب ، ومن كانت الام الروماتيزم تفري مفصلهم ، كان بيننا مصدورون ، وكثيرون يعانون من الانيميا الحادة ، كما كان هناك كثيرون ممن تجاوزوا الخمسين من عمرهم ، ولم يعف هذا واحدا منهم من ان يمر بنفس الشوط ، كل ما هنالك ان من كان يسقط منهم مغمى عليه ، كان يلقي به في قناة ينصرف فيها ماء ري الحديقة الموجودة امام السجن لكي يفيق ، ومن لا يفيق يجر من قدميه الى داخل الوردى حتى يلقي به في احد العنابر . .

كانت خطة الاستقبال مصممة بحيث تعطيتا جرعة مركزة من الهوان قبل ان تطلا اقدامنا ارض السجن الجديد .

كانت العصي الفليضة في ايدي الحراس الذين احاطوا بنا فور نزولنا من السيارات تثير في النفس مشاعر الضيق والاشمئزاز والقثيان، فالمرء يشعر بنوع من الاعتزاز حينما يكون تحت حراسة جنود مسلحين بالبندق او المسدسات ، او اى نوع من الاسلحة النارية ، فهذا يرسل في النفس على الاقل شعورا بان الخصم لا يستطيع السيطرة عليك الا مستمينا باسلحة حديثة . .

اما تلك العصي الكريهة فكان مرآها يبعث في الذهن صورة قبيحة ظلت تلح عليه طوال تلك الفترة التي جلسناها القرفصاء في انتظار وصول همت ، صورة مطاردي الكلاب الضالة من الجنود التابعين للمجالس القروية وقد اخلدوا يجوبون ازقة القرية والعصي الفليضة ساكنة في ايديهم حتى اذا ما لمحوا واحدا من تلك الكلاب انقضوا عليه واحاطوا به وانهالت

عصيم على ظهره ورأسه حتى يخر تحت اقدامهم ، ومن رأى عملية المطاردة يستطيع في سهولة ان يدرك اية صورة ارادوا بعثها : فبعد ان ينادي على الخمسة . ن المعتقلين ثم تصدر عليهم الاوامر بالجري تحت ضربات العصي بحيث تثل المفاجأة ارادتهم تماما ، تستطيع ان ترى صورة طبق الاصل من الصيد في البراري . المعتقلون الخمسة يجرون كما تجري حيوانات الصيد والجنود خلفهم بالعصي وبسيل من الصراخ والسباب المختلط غير المفهوم تماما ككلاب الصيد حينما تنطلق بنباحها خلف الفريسة ، والضابط يتابع المطاردة على ظهر حصانه ، تماما كاحد اللوردات الانجليز اثناء رياضة الصيد .

وحينما يقع معتقل في النهاية بين يدي الجنود امام اللواء همت ينقضون عليه ، واحد يحلق له شعره ، والاخر ينزع ملابسه ، وعدد اخر ينهال عليه ضربا ، ويعلو السباب والصراخ ، فان المنظر لا يختلف كثيرا عن منظر الفريسة حينما تقع في النهاية بين مخالب كلاب الصيد لتعمل فيها انيابها واظافرها وزمجرتها الدموية تملأ الجو .

ان تعرية المعتقلين السياسيين من ملابسهم كأسلوب في الاذلال لم يستخدمه من قبل الا جنود نابليون الذين غزوا مصر في اواخر القرن الثامن عشر ، ويحكى الجيرتي في تاريخه كيف اقتحم الفرنسيون الازهر لاختام ثورة القاهرة الاولى ، وكيف اعتقلوا المناضلين الذين كانوا بداخله ونزعوا عنهم ملابسهم وضربوهم على باب الازهر .

كان من الصعب تبين تلك المخلوقات الغريبة التي تقف الى جوار الحائط ، فالمرء لا يفيق من صدمة الاستقبال حتى يفاجأ بصورة جديدة . ان اولئك الادميين الذين كان يعرفهم من لحظات قد تغير شكلهم تماما : وجوه ملتعبة دامية او متورمة ، مليئة بالكدمات بحيث غابت ملامح الوجه المألوفة . شعر الرأس قد ازيل تماما ، وارتنى كل واحد طاقيّة من القماش اشبه بالكب ، وكانت مفارقات : هذا طاقيته من الضيق بحيث تتأرجح على قمة الرأس ، وذاك طاقيته من الاتساع بحيث تغطي الرأس والاذنين وجزءا من الوجه وملابس السجن الفضفاضة او الضيقة مصنوعة من نسيج رديء ابيض . . كانت هناك مفارقات غريبة في الملابس تكون في مجموعها عددا من الاوضاع الكاريكاتيرية لم يملك كل منا نفسه من الضحك حينما يتبين ملامح رفيق له في واحدة من هذه الكاريكاتيرات .

همس احد الرفاق لنا ونحن وقوف ووجهنا الى الحائط حسب

التعليمات .. « هونوا عليكم .. لولا احساسهم بالضعف لما فعلوا ذلك » .  
وهنا فتح الباب ، وقذف من خلاله برجل اسمر فارغ الطول متقدم  
في السن ، عار تماما ، اخذ مكانه الى جانبي وهو يقول بصوته المبحوح :  
« مش معقول يتعمل فينا كده في بلدنا » .

وعرفته .. كم حدثنا عن « بروميثيوس » الذي عز عليه ان يبقى  
الانسان في ظلمة الجهل فسرق له النار المقدسة . نار المعرفة من السماء ،  
وغضبت عليه الالهة فحكمت عليه ان يصلب مدى الدهر على جبل آسيا ،  
وان تأتي النسور كل يوم لتنهش كبده حتى اذا جاء الصباح نمت له كبدا  
جديد حتى تعاود النسور نهشها ، كم حدثنا عن « بروميثيوس » ونحن ندرس  
على يديه في الجامعة ، وكم حدثنا عنه ونحن في معسكر العزب ، بل هو  
اول من نقل اسطورة « بروميثيوس » الى العربية ، هو الذي ترجم رائعة  
شيلي « بروميثيوس طليقا » الى العربية وعرف كل قرائها بمأساة ناقل  
النور والمعرفة الى البشر .

ما كدت اراه حتى تذكرت « بروميثيوس » .. حتى رايت في كل منا  
بروميثيوس وقد صلب في الاوردي ، وجاءت نسور الناصرية تنهش  
اجساده .. وكان الذي عرفنا بمأساة « بروميثيوس » يعاني هو نفسه في  
مصر الناصرية ما عاناه بروميثيوس في الاسطورة الاغريقية .

لم يكن شيوعيا ، بل ربما اختلف مع الشيوعيين في كثير من الامور  
الاساسية خلافا يجعله من الناحية الفكرية على طرفي نقيض مع الشيوعيين  
... ولكن الناصرية لم تنس له انه كان بين الموقعين في عام ١٩٥٤ على  
مذكرة من اساتذة جامعة القاهرة بضرورة عودة الجيش الى ثكناته، والفاء  
مجلس الثورة وعودة الحياة النيابية ، وانتخاب جمعية تأسيسية تضع  
دستورا ديموقراطيا للبلاد ، ويومها طرد من الجامعة ما يقرب من المائة من  
اساتذتها ومدرسيها .

ولم اكد انتهي من مساعدته على ارتداء ملابسه حتى فتح الباب واندفع  
الى الداخل شاب عار تطارده العصي وهو يصيح ملوحا بيده . .  
« لن ترهبنا معتقلاتكم سننتقم ! »

كان عامل نسيج وعضو مجلس ادارة نقابة عمال نسيج القاهرة وكان  
كثيره من العمال الشيوعيين يتمتعون بثقة الكتل العمالية ، رشحه العمال  
مرة في مارس ١٩٥٥ لعضوية مجلس ادارة النقابة ، وكان وقتها معتقلا

في نفس المكان في الاوردي ، وانتخبته الجمعية العمومية عضوا لمجلس الادارة . واعترضت السلطات على ذلك الانتخاب والفت الجمعية العمومية للنقابة ثم عادت الجمعية العمومية في يونيو عام ١٩٥٥ فاعادت انتخابه وهو معتقل . ثم دخل فتى في حوالي التاسعة عشر من عمره وهو يصبح متسانلا :

هل صحيح ان روسيا اطلقت سفينة الى الفضاء ؟

كان طالبا في كلية الاداب بجامعة عين شمس . . لم يكن شيوعيا وانما ظل رجال المباحث يذكرون له انه كان واحدا ممن نظموا المؤتمر الوطني لكلية الاداب في ابريل ١٩٥٧ لمناصرة شعب الاردن ضد الانقلاب الذي قام به حسين بعمارة المستعمرين ضد حكومة الجبهة الوطنية برئاسة النابلسي .

كان المسكين حائرا بين حقيقتين ولا يدري ايها يصدق .

فقبل حضورنا الى الاوردي بقليل كان الاتحاد السوفيتي قد اطلق اول سفينة فضاء وسجل بذلك طفرة هائلة في التقدم البشري . ومن ناحية اخرى كانت هناك تلك البقعة من مصر الناصرية التي تخلف فيها الضمير البشري قرونا حتى وصل الى القرون الوسطى . . وبالفعل كان من الصعب على المرء ان يصدق ان هناك مكانا تواجه فيه العقيدة بمثل تلك البربرية التي عومل بها المسيحيون الاول على يد اباطرة روما في ذات الوقت الذي بدأ فيه الانسان يغزو الفضاء . . . مضى الوقت بطيئا ثقيلًا والمعتقلون في هذا العنبر من عنابر الاوردي الست يقفون ووجوههم الى الحائط ، ومن حين لآخر يفتح الباب ليؤذ من معتقل جديد . . . ولا بأس ايضا ان يندفع خلفه الجنود فيتقاطرون داخل العنبر ككلاب مسمومة ليسمعوا الواقفين ضربا بعصيتهم دون تمييز ، على الرأس على الرقبة او على الظهر كيفما اتفق . وحوالي الثانية عشر ظهرا ساد السكون وتوقف صوت الضرب بالخارج ، لقد انتهى « حفل الاستقبال » .

وفتح الباب فجأة ودوى صوت جهوري .  
انتباه :

دخل اشخاص كثيرون الى العنبر ، ثم سمع صوت ناعم ذو رنة انوثية يقول :

كويس اوى . . لازم تعلموهم عسكرية مضبوط . .



ورد صوت لا يقل نعومة :  
احنا حنجننهم ، حنطلمهم بالكرباج ...

كان الصوت الاول هو صوت اللواء اسعاعيل همت ، انه نفس الصوت الذي كان يقهقه ضاحكا ونحن عراة امام عنبر البوابة ويقول « الله .. دول شبه الهنود الحمر اللي بنشوفهم في السينما » .

اما الصوت الثاني الذي رد عليه فكان صوت الصاغ حسن منجير مأمور سجن الاوردي ، انه الاخر ضابط صغير السن ، رقي بسرعة لما عرف عنه من عداة للشيوعية ، وهو واحد من الضباط الذين اوفدوا الى الولايات المتحدة الامريكية ليتلقوا برنامج تدريب على مكافحة الشيوعية ، كانت هذه البمثة في امريكا عام ١٩٥٦ فسي ذات الوقت الذي كان الشيوعيون يقاتلون ضد قوات العدوان الثلاثي ، انه الآن يشرف على تعذيب عبد المنعم شتلة وسعد رحى وعشرات غيرهم من ابناء الحزب الشيوعي الذين كانوا يقودون المقاومة المسلحة السرية في بورسعيد في الوقت الذي كان هو في امريكا يتدرب على ايدي خبراء مكافحة الشيوعية الامريكان ..

## الفصل الثالث

### دوار الرئيس

الساعة حوالي الواحدة ظهرا ، كنا قد بدأنا نعي الواقع الذي نحن فيه .. ودارت المناقشات حول ذلك الذي حدث .. مناقشة هامة ، فالكلام ممنوع .. والحركة ممنوعة .. وانه لمن الواجب ان نعترف ان ما حدث كان مفاجأة لنا فرغم بشاعة الحملة الهستيرية التي شنها النظام ضد الشيوعية ، لم يكن المرء يتصور ان تصل الى حد اعادة بوخنوالد ، وحينما بدأ ترحيلنا ، كان كل ما تبادر الى ذهننا ، انهم سينقلوننا الى معتقل اخر تكون ادارته اشد حزما ، ويكون من السهل فيه التضييق علينا بعد ان عجزت ادارة معتقل الفيوم عن مواجهة مقاومتنا ، وحينما وصلنا الى الاوردي وراينا فرقة همت تنتظر على بوابته ، توقعنا مظاهرة تهديدية من نوع تلك المظاهرات التي استقبل بها ممن اعتقلوا في اول العام حينما رحلوا الى الواحات ، وبعد ان مررنا « بحفل الاستقبال » كان من الصعب على المرء ان يتنبأ بتفاصيل ما سيعقب ذلك .

قال البعض ، انهم لو كانوا يريدون عملية تعذيب طويلة المدى لذهبوا بنا الى السجن الحربي كما فعلوا باعضاء جماعة الاخوان المسلمين عام ١٩٥٤ وعليه فقد اتجه هؤلاء الى انها عملية تاديبية من نوع تلك العملية التي قام بها همت ضد الشيوعيين في نفس ذلك المعتقل عام ١٩٥٩ ، وتوقع البعض ان تنتهي تلك التكديرة في خلال اسبوعين ، وتوقع اخرون ان تنتهي خلال شهر ، او شهرين على الاكثر .

الا انه بشكل عام لم تكن كل تلك التوقعات لتجد صدى كبيرا فسي النفوس .. كان هناك احساس عام بان النظام قد انتقل الى مرحلة جديدة

في مقاومة الشيوعيين ، ومن جديد بدأت ترن في الاذان كلمات عبدالناصر في اوائل ابريل في خطابه بالقوات المسلحة .

« ساقضي على هؤلاء العملاء ، وسالقم الشيوعيين درسا لن ينسوه » .

كثيرون لم يكونوا قد سمعوا تلك الكلمات لانهم كانوا قد اعتقلوا قبل ابريل ، ولذلك كانوا يشكون كثيرا في ان يستطيع عبدالناصر ان ينفذ هذا التهديد ، وكان السؤال « هل يستطيع ان يواجه الراي العام العالمي بمثل هذه الاعمال » ؟ .

اما اعضاء المجموعة المنقسمة على الحزب ، فقد كان لذلك الاستقبال اثره في تزايد معدل تدهورهم (١) . . في الفيووم ، كانوا يركزون موقفهم في طرافة ، انها ازمة عابرة بين عبدالناصر والشيوعيين ، وانه حالما يبدأ الموقف مع العراق ، نستعود المياه الى مجاريها ، وعليه فقد كانوا يتوقعون ان يتم الافراج في ٢٣ يوليو ، فلما انقضى ٢٣ يوليو دون ان يتم الافراج بدأوا يتطلعون الى ٢٣ ديسمبر ، عيد النصر ، وحينما جاءت اخبار نوفمبر

(١) ناسف اذ نجد انلسنا مضطرين الى تتبع مواقف تلك الجماعة في هذا الكتاب ، انهم يعيشون معنا نفس الماساة ، ومروا بكل ادوارها ، بل انهم ربما يكونون اشجع تجسيد للماساة ، اذ كلما اشتد ارهاب النظام وعدوانه ازداد تخليهم عن كل مبادئهم ، وازدادت رسائل قيادتهم الى عبد الناصر تلحن فيها الولاء الكامل له وتؤكد تخليها عن كل افكارهم وتعتذر عن اي موقف معارض لعبد الناصر ربما تكون قد اتخذته يوما من الايام . ومع ذلك يصر عبدالناصر على الابقاء عليهم في المعتقل ، لا لشيء الا للدور الانهزاسي الذي يقوم به قادتهم في صفوف المعتقلين ، والافكار الاستسلامية التي تفرزها بين المناضلين ووقوفها الى جانب الإدارة دائما ضد اي معركة يخوضها المعتقلون من اجل تحسين احوالهم ، وفوق كل ذلك فهي صوت عبد الناصر داخل المعتقل ، كل نشاطها السياسي يتركز في الدعوة له والدفاع عن افكاره .

لقد دابت قيادة تلك المجموعة على الاتصال بالهيئات والشخصيات الاجتماعية في مصر والخارج تقدم صورة مشوهة من واقع بلدنا ، ومن حقيقة الجزيرة التي اعطاها الناصريون للشيوعيين والديمقراطيين ، والى حد تبرئة عبد الناصر من تيمة كل ما نطأه . ومن هنا ولكي لا يقع شعبنا ولكي لا يقع الراي العام العالمي فريسة لخداع قيادة تلك المجموعة، نجد انلسنا مضطرين الى كشف النقاب عن حقيقة نشاطها ، كحليف للنظام ضد الشيوعية والديمقراطية .

بان الصاغ صلاح سالم قد سافر الى موسكو ، استغلوا ذلك الخبر فسي  
ايهام اتباعهم بصدق نبوءتهم .

ولكن جاء استقبال الاوردي لينسف كل تلك الاوهام ... فسارعوا  
بالقاء اللوم علينا ، على الحزب الشيوعي المصري .. اننا يساريون .. ان  
خطة الحزب السياسية التي صدرت في مايو ١٩٥٩ والتي تضع على  
الشيوعيين واجب اقامة جبهة وطنية ديمقراطية في مواجهة الحكم  
الديكتاتوري هي المسئولة عن تمقق ازمة الثقة بين عبد الناصر والشيوعيين  
.. اما هم المؤيدون بلا قيد او شرط لعبد الناصر ، فقد جاءوا الى الاوردي  
« في رجلينا » .. لقد راحوا ضحية يساريتنا . (١)

ولكن ، حتى ولو كنا يساريين ، وحتى لو كان ما بيننا وبين عبد  
الناصر ، هو ازمة ثقة ، فهل هذا هو الاسلوب الذي تواجه به الافكار في  
بلادنا ...

وحتى هنا تطوعوا للدفاع عن عبد الناصر قائلين ان البلدان الاشتراكية  
نفسها قد اضطهد فيها ابرياء ، ثم اعيد اليهم اعتبارهم ...  
الى هذا المستوى ، وصلت تبعيتهم النظام وتغانيهم في الدفاع عنه .  
حوالي الواحدة والنصف ، فتح الباب ، ووقف جندي هناك صائحا  
« صابك اليمك » ودهش الكثيرون ، وحراروا في معنى تلك العبارة . ولكن

---

(١) ينفي الاعتراف بان خطة مايو ١٩٥٩ كانت مليئة بالاطغاء وعمد فهم الواقع  
وخاصة فيما يتعلق بتحديد الطبقة للنظام . فقد قالت، تلك الخطه ان نظام عبد  
الناصر يمثل القيم الاحتكارية وشبه الاحتكارية آخفة المسائل بقواهرها حيث بالفعل كانت  
الفئات العليا من الراسمالية المصرية تستفيد فائدة كبيرة من سياسات عبد الناصر في ذلك  
الوقت ، وكانت موازناتها تسجل ارباحا هائلة وقياسية ، كما حققت توسعا - وخاصة بنك  
مصر - في سوريا على اثر الوحدة غير الديمقراطية . وقد عانت هذه الخطة ازمة حادة  
حينما ام عبد الناصر بنك مصر ، ثم حينما ام كليا او جزئيا معظم المؤسسات الصناعية  
والتجارية والالية الكبرى فيها بعد . ولكن القول بان هذه الخطه مسؤولة عن ازمة الثقة بين  
عبدالناصر والشيوعيين يقول غير صحيح ، فخطه عبدالناصر على الشيوعيين بدأت قبل  
صعود الخطه بستة اشهر . وقد بدأت ازمة الثقة قبل ذلك بكثير حينما بنا وانحما ان هناك  
اختلافا حول نهج الوحدة العربية ، وحينما ألحق عبدالناصر الحركة النقابية بالاتحاد  
القومي ، وحينما طلب من الحزب بواسطة انور السادات ان يعزل نفسه ، وكان ذلك في لقاء  
تم بين انور السادات ومحمود امين العالم حيث قدم السادات هذا الطلب رسميا .

زملاءنا الذين دخلوا السجن قبل ذلك اوضحوا لنا معناها بسرعة ... انها عبارة تركية معناها « جاء موعد الطعام » او « اجمع للطعام » .

طلب منا ذلك الحارس ان نقف صفا ، وان نخرج من الباب جريسا ، فانطلقنا لنجد انفسنا بين صفين من الحراس ، اخذوا ينهاون علينا ضربا بعصيمهم حتى وصلنا الى مكان قرب باب السجن رصت فيه صفوف من الاواني المعدنية بها طعام الضداء .

كان على كل منا ان ينحني ليلتقط وهو يجري ، والضرب ينهال عليه ، احد هذه الاواني ، ثم يلتقط طبقا صغيرا فيه قطعة من مادة سمراء متحجرة تبين فيما بعد انها جبن لوجبة الافطار في اليوم التالي ، ثم يتناول بمد ذلك ثلاثة ارغفة لغدائه وعشائه وافراره . ومفروض ان تتم كل هذه العمليات تحت وابل من الضرب ، واثناء التجري ، ثم يعود بعدها كل منا جريا الى عنبره وسط نفس الصفين من الحراس .. وويل لمن كان يسقط منه شيء ...

وللنظرة الاولى الى الوعاء الذي كان يحوي الطعام لم يكن المرء يتبين فيه شيئا سوى كمية من الوحل ، ولكنه بالتدقيق تبين انه يحوي بعض حبات من الفول من نوع رديء مليء بالسوس ، من النوع الذي يقدم غلغا للماشية ، لقد تعمدوا ان يتركوا الاواني مكشوفة مدة من الزمن الى جوار الباب حيث تهب الاتربة التي تراكمت فيها واختلطت بحبات الفول ، فكانت تلك العجينة الطينية ..

ولكن لم يكن هناك بد من اذردادها .. والا فالوت جوعا ... وحوالي الرابعة والنصف فتح الباب ومرة اخسرى دوى نفس الصوت « صابك اليمك » وبنفس الاسلوب التقطنا طعام العشاء .. وعاء لكل منا به بعض الاعشاب الغريبة مغلبة في ماء ، تراكم عليها الغبار ، وتساقط فيها الذباب .. وتذكرنا الحساء النازي ...

كان الفراش الذي صرف لنا مكونا من بطانيتين وحصيرة رقيقة من الليف ( برش ) وكانت التعليمات ان يظل هذا الفراش مطويا وموضوعا امامنا ، وعلينا ان نجلس القرفصاء الى جوار الحائط طوال النهار حتى يدق جرس التمام في المساء .. حينئذ كان لنا ان نفرش الحصير ، ويلف كل منا نفسه في البطانيتين وينام ، لم يكن مسموحا للمرء حتى ان يظل جالسا بعد دقات الجرس في الساعة الخامسة مساء .

وجاء الليل .. وبرغم تلك المرحلة الطويلة التي قضيناها محشورين

في تلك العربات من الفيوم الى الاوردي ، وبرغم حفل الاستقبال ، والضرب المبرح الذي تلاها عند وجتي الغداء والعشاء ، وبرغم ان المرء لم ينم لحظة واحدة طوال تلك الليلة السابقة ، بل لم تتح له فرصة تسترخي فيها عضلاته المكدودة طوال تلك الفترة .. برغم كل ذلك لم يستطع المرء ان ينام .. فعندما جاء الظلام بدا المرء يشمر انه يسقط في هوة سحيقة .. بعيدا .. بعيدا عن الحياة .

ويبحث المرء عن جبال تصل ما بينه وبين الحياة . يحاول ان يتذكر القاهرة التي لا نبعد عنها اكثر من اربعين كيلومترا ، بل يحاول ان يتذكر ذلك الطريق المرصوف الذي جئنا منه .. حتى الاهل .. الام .. او الاخت او الزوجة .. كل شيء كان يستعصي على المخيلة .. كل شيء كان يبدو وكأنه خيالات عبرت ذهن المرء يوما ...

حينما خرجنا لالتقاط وجباتنا ، كان بوسع الانسان ان يتبين من معالم المكان ما لم نتبينه لحظة دخولنا .. سور عال من الطوب الحجري الابيض تفضي بوابة خشبية كبيرة فيه الى فناء صغير ، محصور بين السور وبين المغسل والحمام على يمين الداخل .. وحجرة الكاتب والمخزن على اليسار ، ثم اربعة عنابر موازية للسور الامامي الذي به البوابة ، هي عنابر ٤٣٦٢٠١ .. ثم عنبرين طويلين هما عنبر ٦٥٥ ، اقتطعت اجزاء من مؤخرتها لتكون زنازين ، وبعدها الفناء الكبير ...

وكان كل من تلك العنابر شيء اشبه بمخزن الفلال ، او بحظيرة الماشية فحينما يفتح الباب يدخل المرء الى مكان معتم طوله حوالي ٢٨ مترا ، وعرضه حوالي خمسة امتار ، في اعلى كل من جداريه الطويلين كوات مفعولة بالقضبان الحديدية ..

ان المكان يذكر المرء بالطريقة التي يحيا بها الاقطاعيون في الريف ... فكما ان قصور الاقطاعيين ما تزال تحتفظ ببعض آثار حكم الاتراك في العصور الوسطى لمصر ... كذلك كان ذلك المكان ..

في قصور الاقطاعيين تسمع كلمات تركية من امثال السلامك والشكمة .. والحراملك .. وصاحب القصر يدعى الباشا ، حتى ولو لم يكن حائزا على ذلك اللقب التركي الاصل ، وسيدته تدعى الهانم ، وصاحب البيت لا يخاطب الا « افندم سعادة الباشا » ولا يقف الفلاح امامه الا مطاطئا رأسه .

نفس الشيء في هذا المكان .. اسمه تركي : « الاوردي » ولم يكن

فينا من يفهم معنى تلك الكلمة ، وان كنا استنتاجا فهمنا انها تعني «ملحق» لان ذلك السجن الصغير كان ملحقا بالسجن الكبير المسمى ليان ابي زهبل ،والفداء فيه ذو اسم تركي « اليمك » ونساء الجميع لفظ تركي « صابك » .

والمفروض على الواحد منا ان يمشي وهو مطأطا الرأس ، وان لا يخاطب احدا ، من السجن الى الضابط الا ولا بد ان يختتم جملته بكلمة « افندم » .. ولا ينادى الواحد منا سواء من الضابط او من الحارس الا بكلمة « يا ولد » تماما كما يخاطب الباشا فلاحيه ..

ورغم ما كان لذلك المكان من عبء ثقيل على الدهن يجعل من الصعب على المرء تحت وطائه ان يصدق ان هناك عالما ينبض بالحياة وبالتقدم ، فيه بشر .. وفيه مدينة .. الا انه كان يبعث الى المخيلة بصورة من الماضي، كانت تلح وتلح ، صورة الدوار الملحق بقصور الاقطاعيين في الريف ، حيث مخازن المحاصيل .. وحظائر الماشية .. وحيث يجلد الفلاحون .. على وجه التحديد .. كانت صورة للدوار الملحق بقصر البدرابي باشا ، في قرية بهوت من اعمال مركز طلخا بمديرية الغربية ( آنذاك ) .

كان ذلك في ٩ اغسطس لسنة ١٩٥١ وقد ذهب الفلاحون لجمع محاصيلهم التي زرعوها في ارض استأجروها من عزبة ( ضيعة ) البدرابي باشا ، ومنعهم رجال الباشا من جمع المحصول لانهم لم يوفوا بالتزاماتهم ازاء الباشا .. وذهب الفلاحون يشكون لناظر الزراعة الذي يدير شئون الباشا في ارضه ، وليفهموه انهم لن يستطيعوا الوفاء بالتزاماتهم الا اذا حصدوا المحصول وباعوه ، وان بقاء المحصول دون جمع يعرضه للتلف .

وكانت مشادة .. وطلع الباشا على الضجة ، وامر رجاله ان يفرقوا الفلاحين بالقوة .. وكانت معركة .. واطلق رجال الباشا الرصاص على الفلاحين .. وسمع الفتى عناني ، وهو خفير في العزبة ، ان رجال الباشا يطلقون نيرانهم على اهل القرية ، فاسرع ببندقيته واخذ يطلق الرصاص لحماية قومه ، واختطفه رجال الباشا الى داخل الدوار .. وانهاوا على رأسه بالبلط فهشموا جمجمته .. وسقط صريعا ..

وذهب الى القرية من يصيح « البداروة قتلوا عناني » وخفت البلدة كلها وحاصرت قصر الباشا .. وجاءت قوات البوليس من المديرية فحاصرت

الاهالي والقت القبض على الكثيرين منهم .. (١)  
ويوم سيقوا الى المحاكمة امام المحكمة الجنائية بمديرية المنصورة.  
استقبلوا على طول الطريق بمظاهرة هائلة من العمال .. والطلبة ..  
والفلاحين وكانوا جميعا يهتفون بحياة الفلاحين . وبحياة ذكرى عناني ..  
وتطوع عشرات من المحامين الديمقراطيين للدفاع عن الفلاحين ...  
لقد اصبحت مصر كلها في ظل الحملة الارهابية اشبه بعزبة لاحد  
الباشوات .. واصبح الاوردي هو دوار « الباشا » الذي يجري فيه  
تأديب المتمردين ..

ولكن .. من هو عناني هذه المرة ؟  
لقد ظل هذا السؤال يلح حتى غلب النعاس كل ساكني العنابر ..

---

(١) كان وزير الداخلية في ذلك الوقت هو فؤاد باشا سراج الدين الامين العام لحزب  
الوفد المصري ، وكان هو الاخر من الاطاعيين ، وتصل بصلصة المصاهرة مع اسرة  
البرراوي باشا .



## الفصل الرابع

### لعنة الشيخ

في كل لحظة كان كل منا مهددا بان يلقى مصرعه على ايدي رجال النظام كما لقي « عنتي » مصرعه على ايدي رجال البدراوى باشا .  
كان الفجر في ذلك المكان كريها على عكس الفجر في بلادنا فالفجر في بلادنا ساحر اخاذ يبدأ بصياح الديكة ، ثم تنطلق العصافير تسقى ، وخلال ذلك تنطلق من المآذن اصوات جميلة بتراتيل الصباح . . والنسيم رطب ندي محمل بمطر زهور البرسيم والبرتقال . .  
ولكنه هنا كربه ، انه بداية يوم من العذاب . . بداية يوم من الضرب الوحشي والسخرة **والإهانات** .

كان لزاما علينا ان نضع جرادل المياه تحت الصنابير التي نتركها مفتوحة حيث لا تجري فيها المياه الا عند الفجر . وكان صوت الماء المتدفق من الصنابير في الجرادل المعدنية عند الفجر اشبه برحى تفري اعصابنا ، كنا نستيقظ على صوتها وكننا يود لو ان الليل استطال طولا لا يطلع معه فجر .

وحالما نستيقظ كانت التعليمات هي ان نلف الفراش ونضعه امامنا ثم نجلس القرفصاء بجوار الحائط والبرودة تسري من الارض الى اقدامنا العازية الى الاطراف فالى بقية الجسم ، وينتظر كل منا دوره في الذهاب الى دورة المياه الموجودة داخل المنبر . كنا ستين نقطن كل عنبر، فقد وصلت دفعة جديدة من الفيوم بعد وصولنا بيومين وكانت تضم مائة وخمسين معتقلا .

وما يكاد يحل دور اخر واحد فينا لفشيان دورة المياه ، حتى يفتح

السجن ونستعد لما يسمى « بانتفيس الصباحي » . . اذ يفتح باب العنبر ويتقاطر الى داخله حوالي عشرون جنديا بقيادة ضابط وصول مسلحين كلهم بالعصي الفليضة والسيور الجلدية ، وكان علينا ان نقف ووجوهنا الى الحائط ثم ننحني وبدور كل منا حول نفسه ، والضرب ينهال عليه . . على راسه ، على كتفيه ، على ظهره وجنبه . . وتستمر تلك العملية في كل عنبر حوالي عشرين دقيقة ينال الواحد خلالها ما لا يقل عن عشرين ضربة .

ويلى ذلك ما يسمى « بطابور الرياضة » : يخرج ساكنو كل عنبر لينتظموا في طابور رباعي التنظيم ، ثم يجرون بالخطوة السريعة حول الفناء لمدة ثلاثين دقيقة ، وعليهم طوال ذلك ان يكرروا بصوت عال جماعي « شمال . . يمين » والجنود منتشرون بعصيتهم حول الطابور يوسعوننا ضربا .

وفورا ، ودون لحظة نسترد فيها انفاسنا اللاهثة ، علينا ان نمارس رياضة شاقة ، كتمرين الضغط وذلك يعني ان يتمدد الانسان بموازاة الارض مرتكزا على اصابع قدميه ويديه ، ثم يهبط بجسمه حتى يلاصق صدره الارض ، ويعود فيرتفع مستندا على الذراعين . كنا نكرهه ما لا يقل عن خمسين مرة وبسرعة ، وكثيرا ما يتركنا الصول المشرف على الطابور في وضع اوتكاز على الذراعين المشنيتين واصابع القدمين مدة طويلة ، حتى تتصلب عضلاتنا ، ويقف الضباط بتلذذون بمرآتنا ، وكل منا يجاهد الا تخونه ذراعاه فينكفيء على وجهه ، وكثيرون من كانت تخونهم اذرعهم فينطلق عليهم الجنود بالعصي كالكلاب المسعورة . وينتهي الطابور بعد عدد من التمرينات المرهقة ، بتمرين الزحف ، وذلك ان نجلس القرفصاء معتمدين فقط على اصابع القدمين وايدينا مثبتة في خواصرنا ، ونقطع الفناء جيئة وذهابا ما لا يقل عن عشر مرات بهذا الوضع والعصي تتابعنا .

وبانتهاء تلك الجولة داخل الاوردي ، تبدأ جولة الجبل اذ يتجمع كل المعتقلين بما فيهم الاثنان والستون رقيقا الدين حوكموا امام المجلس العسكري في الاسكندرية ممن جيء بهم الى الاوردي قبل وصولنا بيومين (1) ، يتجمع كل هؤلاء ، ثم نخرج للعمل في محاجر البازلت في ابي زعبل . . لم ين مسموحا ان تمر دقيقة دون ان نرهق فيها ، ولدا فقد كان لزاما في ذهابنا صياحا الى المحاجر ان يحمل الواحد منا قطعة كبيرة من الحجر

(1) المفروض ان هؤلاء تحت مسئولية النيابة العامة ، وان يكون كل شيء يتعلق بهم يعلم وامر النائب العام، ولا دخل للسلطات العسكرية التي تعمل بمقتضى الاحكام العرفية بهم.

الجيري الابيض طوال المسافة بين السجن والجبل وهي حوالي ٢٥٠ متر حيث توجد ورشة لشطف هذه الحجارة واعدادها للاستخدام في اعمال البناء .

وفي الحجر ، كنا نقسم جماعات ، جماعة عليها ان تزيل تلا من التراب طوله حوالي مائة وخمسين مترا وعرضه حوالي عشرين مترا وارتفاعه حوالي خمسة امتار . كان افراد هذه الجماعة يحملون التراب في مقاطف ويجرون بها مسافة مائتي متر ويمودون جريا ايضا ، وعلى طول الطريق جنود بالشوم يضربون المسرع والمتباطيء على حد سواء .

كان سكان العنابر المختلفة يتبادلون العمل في تلك المهمة كل اسبوع كما كانت توكل هذه المهمة بشل خاص للعنابر التي يرى الضباط : «تأديبها» لتلكؤها في تنفيذ الاوامر ، او لمقاومة يديها بعض من نزلائها .. وحينئذ يتضاعف عدد الجنود الذين يقفون على جانبي الطريق وينهال الضرب بلا حساب .

وجماعة اخرى كان عليها تفتيت صخور البازلت الضخمة ، وجماعة ثالثة تحملها الى المجموعات التي جلست في حلقات لتكسير البازلت قطعاً صغيرة لا يتجاوز حجم الواحدة منها عشرة سنتيمترات مكعبة . ولا ينتهي العمل المرهق بذلك ، فنحن نمود من الحجر بعد هذا جريا على الاقدام ولا تكاد نتناول طعام الغداء حتى نخرج لتفريغ القطارات المحملة بالحجر الجيري القادمة من محاجر طره .  
والعمل بالحجر مسرح لكافة الاعمال الاستفزازية .

\*\*\*

ذات يوم في الحادي والعشرين من نوفمبر ، ونحن نستعد للالتقاط الاواني التي بها طعام العشاء ، اوقفونا في طوابير ونال الصول ، وكان مأمور السجن حاضرا : « سأسألکم الان ، ان كان بينكم شيوعي ، وعليكم ان تجيبوا « لا يا فندم » . ثم نطق سؤاله ، ولم يتلق اجابة الا من بضعة اصوات تبددت في الصمت الكامل الذي واجهنا به سؤال الصول . وصرفونا الى العنابر غير انهم كانوا يبيتون امرا .

ففي الصباح التالي تضاعف الضرب اثناء « التفتيش الصباحي » واثناء « طابور الرياضة » بشكل جنوني .. وعندما ذهبنا الى المحاجر وجدنا فوهات المدافع - البرن والبنادق سريعة الطلقات - مصوبة الينا من قمم الصخور .. ثم بدأ الضرب الوحشي ، حشدوا له جنودا كثيرين ، واستعانوا

بجنود كتيبة الجيش التي تتولى حراسة المنطقة ، وحمل الضباط عصيهم وشاركوا في الضرب ، ويتعالى سبابهم الاستفزازي متناولين عقائدنا ووطنيتنا الى جوار آبائنا وامهاتنا بالكلمات البذيئة . لقد لمحت الفأس ترتفع في يد احد الرفاق ليبرد بها على ضربة مؤلمة من ضابط رفيع يدعى يونس مرعي ، ولكن تراخت يد الرفيق في الوقت المناسب قبل ان ينطلق الرصاص من اعلى الصخور .. فهذا بالتحديد ما كانوا يريدونه ، ان يستفزوننا لعمل يبرر لهم حصدنا بالرصاص .

كانت لهم سابقة في هذا العمل .. فلقد دبرت لاعضاء جماعة الاخوان المسلمين المسجونين في ليما ن طره ، حادثة استفزازية عام ١٩٥٦ ، واصدر زكريا محيي الدين وزير الداخلية امرا تلفونيا الى مدير الليمان باقتحام العنابر واطلاق الرصاص عليهم . وقتل منهم في ذلك الحادث سبعة وعشرون غير عشرات من الجرحى ، ولقد تم ذلك الحادث تحت قيادة نفس الضابط الدموي اليوزباشي عبداللطيف رشدي الذي كان شرف على عملية تأديبنا في المحجر في ذلك اليوم ..

صحيح اننا كنا نعود كل يوم وقد تشققت اقدامنا العارية ، وسالت الدماء من اماكن عدة في اجسادنا ، سواء من الضرب او من الصخور او من ضربات الشواكيش ، كما كنا نحمل فيما بيننا اثنين او ثلاثة ممسن كانت اصاباتهم خطيرة او ممن بلغ بهم الاعياء حد الاعماء وعدم القدرة على الحركة .

ولكن في ذلك اليوم عدنا بحصاد مضاعف من الاصابات وبكميات مضاعفة من الدماء التي سالت وابعاد مضاعفة من الرفاق الذين اضطرتنا حالهم الى حملهم فيما بيننا .. واصطلىح على تسمية ذلك اليوم الثاني والعشرين من نوفمبر بيوم « الاربعاء الدامي » .

وثن كان السجن الحربي قد صار مكانا تنبعث منه افاصيص الرعب والدم بعد حركة ٢٣ يوليو ، فابي زعبل كان منذ زمن بعيد مكانا يشير اسمه الفزع والرهبه .

والمرء اذا ما عاد بذاكرته الى ايام طفولته ، يذكر كيف كان الكبار يخيفوننا برجل خرافي اسمه « زعبل » .. صورته بالقدر الذي كان يمكن لمخيلتنا الطفلة ان تصنعه ، هي صورة رجل بدين ، ذي كرش كبير ، واسنان سوداء ، وعيون مستديرة لا حواجب لها ، يختطف الاطفال الاشقياء ويلتهمهم .

وحيثما كنا صبية ، لم تعد مداركنا حدود القرية ، كنا نسمع عن رجال ذهبوا الى ابي زعبل ، لانهم قتلوا او لانهم ارتكبوا عملا خطيرا وانهم يقيدون هناك في سلاسل حديدية ، ويضربون ولا يقدم لهم طعام .

ان هذه الصور المحدودة عن ابي زعبل لم تكن بدون اساس مادي، ولكن على اية حال فان ابي زعبل لم يكن شيئا كريها لنا كأطفال وحسب ، بل تعدى ذلك الى وجدان شعبنا كله ، حتى لقد سرت في ادبنا الشعبي اسطورة عن ذلك المكان تبين مدى كراهية الناس له .

فالمكان في مقاطعة القليوبية ، وهي مقاطعة خضراء ، تثبت كسل المحاصيل طوال العام ، وتمتاز عن بقية المقاطعات ببساتينها حيث المانجو والبرتقال والشمش والكرز ، وكلها اشجار تكتسب ثوبا جميلا من الزهور، وتنشر حولها عبقا اخذا .

الا انه في وسطها ، توجد تلك البقعة الجرداء من صخور البازلت السوداء . . ولئن كان الجيولوجيون يستطيعون تفسير تلك الظاهرة فان الاسطورة الشعبية لم تجد ما تعبر به عن قبح ذلك المكان الا غضبة قدسية حلت عليه ، وتقول الاسطورة ان احد اولياء الله الصالحين كان يمر بذلك المكان راكبا بغلته ، واشتدت حرارة الشمس فغضب وبصق تعبيراً عن غضبه فحلت اللعنة على ذلك المكان وتقلصت الارض بتأثير بصقة الشيخ وحرمها الله القدرة على الانبات وقضى بأن تتحول الى صخور .

ومحجر ابي زعبل عبارة عن حفرة هائلة في باطن الارض ينزل اليها بطريق منحدر الى عمق يتراوح ما بين خمسة وعشرين وثلثين مترا تطل عليها من جميع النواحي جدر صخرية سوداء هائلة تبرز منها كتل صخرية آيلة للسقوط ، وفي اعلى تلك الجدر مظلات خشبية يقف تحتها جنود الحراسة بالبنادق سريعة الطلقات وهنا وهناك مدفع برن مصوب الى بطن الحجر الذي رضع بالشظايا الصخرية الدقيقة ، تعطي الارض لونا قاتما ، وتبرز من باطن الارض هنا وهناك عروق صخرية استعصت على المتفجرات فلم تتفتت .

لقد اجبرونا على اقامة طريق من التراب ارتفاعه حوالي خمسة امتار وعرضه حوالي سبعة امتار وطوله حوالي مائتي متر ، لكي يفصل بين المكان المخصص لنا والمكان الذي يعمل فيه الاف من نزلاء ليمان طره المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

## الفصل الخامس

### « عفاي » الشيوعي

اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر :

مضى على مجيئنا الى الاوردي عشرون يوما ، وبينما نحن عائدون في ذلك اليوم من المحاجر ، اذا برسول اتي بسرعة وهمس في اذن الضابط الذي يقود فرقة الحراسة ، فصدرت اليها الاوامر بالتوقف .

وبعد مضي ما يقرب من نصف الساعة تحركنا من جديد الى الاوردي، ورغم انه لم يكن من السهل ان يتفحص المرء ما حوله الا ان الانسان كان يستطيع ان يشم رائحة جو غير عادي ، كان من الصعب تبيين ملامحه ولكن ثمة شعور عام بان شيئا ما قد حدث . لقد سيطر ذلك الشعور علينا جميعا حتى انه حينما دخلنا العنابر ران صمت عميق وكانت الحركة محدودة للغاية .

ثم جاء رفاقنا الذين يعملون في المفسل ، وراحوا همسا يرددون ما اكده لنا شعورنا بان شيئا غير عادي قد حدث ، فقد ابلغهم الشاويش ان يعدوا ملابس سجن « ونمر » لسبعة اشخاص ، وفهموا من ذلك ان سبعة رفاق جدد سيصلون ، وعند الثانية عشرة تقريبا سمعوا صوت سيارة تقف امام الاوردي فالمفسل الذي يعملون فيه قريب من البوابة ، وبعد قليل سمعوا صوت السيارة وهي تنصرف ، ثم انطلقت اصوات الضرب والسياب في الخارج ، وكان مفهوما ان الرفاق الجدد يمرون بالاستقبال المعتاد ، الا انه على عكس ما كان يتم في عمليات الاستقبال الفردية ، فوجيء رفاقنا العاملون في المفسل بضابط وحارس يدخلان مسرعين ويعملان فيهم الضرب ثم يكسونهم داخل المفسل ويغلقون عليهم الباب .

لقد ظلوا محبوسين في المضل الى ما بعد عودتنا من الجبل ، فلم يروا شيئا ولكنهم كانوا يسمعون اصوات الضرب المبرح ، وصياح الضابط « هل انت شيوعي ؟ » ورد الرفاق تحديا « نعم شيوعي » ثم السباب المحموم والاوامر المسعورة بزيادة الضرب، ثم صوت المأمور يقول « جروه من رجليه » .

حان موعد استلام الفداء ، وفتح الحارس بشكل روتيني العنبر رقم (1) فاسرع الرفاق الى الخارج ، غير ان ضابطا صرخ من بعيد آمرا الحارس باعادتهم الى العنبر ، ولكنهم كانوا قد لمحوا انسانا ممددا على الارض امام الزنزانة المظلة على انقضاء الكبير ، واكد هذا في ارتباطه مع ذلك الجو غير العادي ، ان ذلك الممدد امام الزنزانة قد فارق الحياة ، ومن خلال النوافذ انتقلت من عنبر (واحد) الى بقية العنابر كلمة بانه من المحتمل ان يكون احد الرفاق قد فارق الحياة .

بات الرفاق جميعا في وجوم ، وحينما عدنا في اليوم التالي من الجبل اغلقت علينا العنابر . ثم ادخلوا الرفاق الذين يعملون في المرافق المختلفة بالسجن . واستنتجنا انهم سيخرجون الجثة .

ووسط سكون رهيب ساد المعتقل لا تسمع فيه الا قطرات الماء تتساقط في بطء من الصنوبر الى الجردل فتحدث في ذلك السكون رتينا اشبه باجراس الكنيسة حينما تدق معلنة الحداد .

وفي حذر اعلى احد الرفاق كتفي رفيق اخر واطل من النافذة . وصح ما توقعناه فلقد راى اثنين يحملان امثلة الرفيق الشهيد ، يليهم اربعة جنود يحملون فيما بينهم بطانية تتأرجح في داخلها الجثة وخلفهم سار الضابط عبداللطيف رشدي .. وكانما ليرهب القتل حمل ذلك الضابط السفاح عصاه في يده ..

وبعد عدة ايام وصلتنا حقيقة القصة من الرفاق الستة الاخرين الذين ابقوهم معزولين في زنزانة ..

ففي اوائل نوفمبر ١٩٥٩ القي القبض على عدد من اعضاء الحزب الشيوعي المصري، وظلوا في معتقل القلعة الى ان تودي في ذلك اليوم المشؤم على سبعة منهم .. لم يكونوا يعلمون الى اين سأتقون ، ولم يكن رفاقهم ممن بقوا في القلعة يعلمون الى اين سيق السبعة ، خاصة وان التحقيق قد اجري معهم جميعا وليس هناك ما يدعو الى اعادته . كان من بين السبعة اربعة اتهمتهم المباحث العامة في تقريرها لنيابة امن الدولة بانهم اعضاء باللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري، ولقد اعترفوا فعلا امام

النيابة بانهم يتشرفون بعضوية الحزب ، ومن هنا نستطيع ان نفهم ان ذلك الانتقاء لم يكن محض صدفة وانما كان لعملية انتقائية من نوع خاص .

فما كادت السيارات التي اقلتهم الى الاوردي تنصرف حتى انقض عليهم الجنود الذين اعدوا لاستقبالهم وهم يحملون الهراوات الغليظة تحت قيادة الضابط اليوزباشي يونس مرعي ومأمور السجن الصاغ حسن منير . وبعد حوالي عشرين دقيقة من ذلك الضرب المجنون حضر فجأة قائد المنطقة القائمقام اسماعيل طلعت ، وهو نموذج للموظف المصري الروتيني ، لا صلة له بالسياسة ولا بالدوائر العليا في الدولة فامر بوقف الضرب ، وتوقف الضرب بالفعل ، وبدأت الاجراءات العادية المتبعة في مثل تلك الظروف : تفتيش الملابس ثم تغييرها ولبس ملابس السجن ، وتسجيل الاسماء بدفتر السجن ، وحلق الشعر وما الى ذلك .

ولم يكد ينصرف قائد المنطقة حتى امر مأمور السجن باستئناف الضرب صائحا : « لقد ذهبت الرحمة يا اولاد الكلب » وكانت تلك اشارة الى الجنود بالا يكون هناك ادنى تعقل في الضرب ، وتولت كل رفيق من السبعة مجموعة من اربعة جنود ، فمن يسقط منهم الى الارض ينهالون عليه بكعوب احذيتهم ثم يرفعونه الى قدميه ويتقاذفونه فيما بينهم متبادلين الضرب بالمصي واللكمات .

وشهر اليوزباشي الارعن يونس مرعي عصا غليظة ، وانهال ضربا على رؤوس الرفاق ، ثم هوى بضربة على راس احدهم وكان فارعا ذا عينين زرقاوين وشعر ضارب الى الحمرة ، وهو يصيح به :

- اسمك ايه يا ولد ؟

- اسمي فريد حداد .

- انت روسي ؟

- انا طبيب مصري .

- انت شيوعي ؟

- ابوه شيوعي .

كل ذلك واليوزباشي الارعن ينهال بعصاه الغليظة على راس الرفيق الى ان سقط على الارض ، فامر الجنود ان يجروه من قدميه الى داخل السجن ، وفي غرفة بجوار المغسل اصطف الرفاق الستة وجيء بالرفيق فريد حداد مسحوبا على الارض من قدميه ، ثم دخل مأمور السجن



واليوزباشي يونس مرعي وبدأ حسن منير ، مأمور السجن ، يسألهم واحدا واحدا ؟ « انت شيوعي ؟ » وترتفع اصواتهم المنهكة تجيب في تحد ، « ايوه شيوعي » . ويصدر اوامره الجنونية بالضرب الى ان يغير الرفاق اجاباتهم ولكنها لا تتغير . ثم يلتفت مأمور السجن الى ضابطه ويقول له : « شوف الواد اللي مستموت ده » .

وينقض الضابط والجنود على الرفيق الدكتور فريد حداد وهو ممدد على الارض بالضربات والركلات والسباب القذر ، ولكنه لا ينطق ولا يتحرك . وينتقل الرفاق الستة ، البعض دماؤه تسيل ، والبعض يزحف على الارض لعجزه عن المشي ، الى الزنزانة التي تقع في مؤخرة عنبر (5) والمطل على الفناء الكبير . ويصدر مأمور السجن امره الى الجنود بجر الرفيق فريد حداد من قدميه الى تلك الزنزانة ، فيلقون به امامها حيث رآه رفاقنا في العنبر رقم (1) .

لم يكن قد مات حتى تلك اللحظة - فقد مات بعد ذلك بحوالي ساعة بين زملائه بعد ان ادخلوه الى الزنزانة - ولم يكن انصرافهم - اي المأمور والضابط - لاستدعاء طبيب لانقاذه بل لابلاغ المباحث العامة ان الجريمة قد تمت ، فكل الدلائل تشير الى انهم كانوا مصممين على قتل واحد او اكثر من الشيوعيين في ذلك اليوم : فانتقاء هذه المجموعة التي تضم اربعة ممن اعترفوا بعضوية الحزب امام النيابة في وقت بلغ فيه الارهاب اوجاهه وصدور الاوامر بالانتظار في منتصف الطريق ونحن عائذون من الجبل ، واغلاق الباب بعد ان انصرف قائد المنطقة العسكري وفشلهم قبل ذلك بأسبوع في استفزازنا لعمل يبررون به حصدنا بالرصاص ، كلها شواهد تدل على ان قتل الرفيق فريد حداد كان مدبرا من قبل .

وهكذا .. وكما سقط « عناني » بضربات رجال الباشا اليدرأوى بالبلط على راسه ، سقط الرفيق فريد حداد بضربات رجال الباشا عبدالناصر بالهراوات على راسه ..

سلمت جثة الرفيق فريد حداد الى زوجته تحت الحراسة المشددة حتى لا يفتح التابوت الذي وضعت فيه الجثة ويكتشف سبب الوفاة ، ومع الجثة كان تقرير اعده طبيب من مصلحة السجن هو الدكتور احمد كمال ، الذي خان قسمه حينما انضم الى نقابة الاطباء بالمحافظة على شرف المهنة ، قال فيه : ان الوفاة نتجت عن سكتة قلبية ، وقالت السلطات في هذا التقرير ان الشهيد قد مات في معتقل القلعة حتى لا يكشفوا سر

الاوردي الذي لم يكن يعلم به احد حتى ذلك الوقت - او هكذا كانوا يتصورون - وطلبت زوجة الشهيد توقيع الكشف الطبي على الجثة ، فرفض الطلب ، وتقدمت بطلب الى نقيب الاطباء لاجراء الكشف ، وطالب النقيب بذلك ، ولكن السلطات هددته ان لم يفلح فمه .. وما زالت الحراسة مفروضة حتى اليوم على قبر الشهيد حتى لا يفتح وتكتشف الجريمة .

والغريب ان رئيس الجمهورية ارسل مندوبا عنه ليقدم العزاء لزوجة الشهيد . ولكنها طردته ورفضت تقبل العزاء منه .  
في المساء وبعد ان غادر فريد حداد الاوردي جثة . وقفنا دقيقتين تمجيدا لذكراه ، ثم جلسنا .. ستون رجلا ، ثلاثون في جانب وثلاثون في الجانب الاخر . الشفاه صامتة والصدور تغلي بالغضب . الريح تصفر حول جدران السجن ، وتيارات منها تندفع من خلال النوافذ وتلتف باجسادنا المنهكة لتعصرها بين حبالها الباردة .

وصوت هامس حزين يرسل في سكون العنبر كلمات « بول الوار » في رثاء « جبريل بيرى » بطل المقاومة الفرنسية :

مات رجل  
لم يكن يملك ما يدافع به عن نفسه  
غير ذراعيه الممدودتين للحياة  
مات رجل  
لم يكن له طريق اخر  
غير ذلك الذي يكره الانسان فيه البنادق  
مات رجل  
ضد الموت .. ضد النسيان  
مات  
لان كل ما كان يريد  
كنا نريده نحن ايضا  
نريده اليوم ..  
ان تكون السعادة هي النور  
تضيء قاع العين .. وتضيء اعماق القلب  
وان تسود العدالة على الارض .  
هناك كلمات تصنع الحياة

كلمات بريئة ...  
كلمة دفاء .. كلمة ثقة .  
الحب .. والعدالة .. وكلمة حرية .  
كلمة طفل .. وكلمة رقة  
وبعض أسماء الزهور  
وبعض أسماء الفواكه  
كلمات شجاعة .. وكلمة اكتشاف  
كلمة شقيق .. وكلمة رفيق .  
وبعض أسماء لبلاد .. ولقرى  
وبعض أسماء لنساء .. ولاصدقاء  
فلنضف اليها اسم « بيرى »  
لقد مات « بيرى »  
من اجل ذلك الذي يجعلنا نعيش  
فلنتحدث في غير كلفة .  
صدره مثقوب  
ولكن بفضلته يعرف بعضنا البعض  
معرفة افضل  
فلنتحدث معا في غير كلفة  
فان امله ما زال يعيش .

## الفصل السادس

### صياد الرؤوس

ربما يكون من السهل تفهم شخصية هذا القاتل الاهوج من كراهيته العميقة لرؤوس الشيوعيين ، لقد قتل فريد حداد بضربة على راسه ، وكان يهوى ان يمسك عصاه ويدور يضرب بها كل واحد منا على راسه ونحن وقوف في الطابور ، وايام كان يتولى الاشراف على العمل في الجبل ، كان يصدر اوامره بان نخلع الطواقم لننظر رؤوسنا العارية من الشعر نحت شمس ابي زعبل المحرقة طوال يوم العمل ، كما كان يقف فوق الصخور ليقدفنا بالحجارة فوق رؤوسنا فاذا اصاب حجر راس احد الرفاق ، شد قامته وهو واقف على قمة الصخرة واطلق لضحكاته العنان .

كان يعاني من مركب نقص حاد ازاء الشيوعيين ، لان لهم رؤوسا تفكر . ويزداد فهمنا لذلك حينما ننظر الى الظروف التي احاطت بنشأته ، فلقد ولد في حي من احياء القاهرة الفقيرة ، في حي « جنينة ياميش » بالسيدة زينب ورغم ان أسرته غايبة في الفقر فانها كانت تعتبر الاسرة التي تتمتع بمركز ممتاز بتلك البقعة .

كان رب الاسرة رجلا متصوفا ، وكذلك كان الاخ الاكبر ، يقضيان كل الوقت في قراءة الصلوات والتراتيل ، وهكذا لم يكن جو الاسرة بالذي يخلق طموحا فكريا او يدفع اليه .

لقد نشأ الصبي يونس مرعي ليرى طول صباحه ان ممثلي السلطة هم وحدهم الذين يدخلون الفرع والرعب في قلوب اهل الحي ، وكان مشغولا طوال صباحه بالتفكير في كيف يحيل ذلك التفوق البسيط الذي تحظى به أسرته الى تفوق حقيقي على ما حولها من الاسر . وهكذا فحينما انهى

دراسته الثانوية ، اتجه مباشرة الى كلية البوليس . كانت الملابس الرسمية الصفراء هي في نظره رمز التفوق والتسلط ، ولكنه فوجيء بان ملابس الضابط ان كانت تحقق له تفوقا في حيه الفقير فانها لا تحقق له شيئا يذكر في المدينة البورجوازية ، فانضم الى فريق كرة القدم بالنادي الاهلي ، ولكن نجمه اقل بعد قليل ، فهو دائم القلق غير مستقر ، لا يمي ان البناء انما يرتفع طابقا فوق طابق على نفس الارض ، وهو من النوع الذي كان يريد ان يجرب اكثر من ارض .

حينما اقل نجمه كلاعب كرة ، نقله الفريق محمد حيدر الى قوة مصلحة السجون . لكي يدرّب فريق كرة القدم بالمصلحة ، وكان هذا سببا في تعمق ازمة الطموح عنده ، وتزايد الشعور بالتقص الذي يعانیه حده في السجون المصرية عندما بدا يرى الشيوعيين لأول مرة .

كانت ملابسه العسكرية تأتي له في حيه بالمهابة والرهبة ، ولكنها كانت لا تعني شيئا بالنسبة حتى للعمال الشيوعيين المسجّرين . كانت صفته كضابط سجن تجعل حضوره الى عنابر السجون شيئا يقيم له النزلاء الف حساب ، ولكن دخوله عنابر الشيوعيين كان يزيد هوسا فوجوده في عنابره او عدم وجوده لم يكن يعني بالنسبة لهم شيئا . كان يتوقع لدى دخوله عند الشيوعيين تحفظا وخوفا وتملقا ، فاذا به يواجه بالهجوم على سلوكه الشائن والانتقادات الحادة لسلك الادارة . كان يقابل بالتعليقات المهينة حينما يحاول بتصرفاته المضطربة ان يفرض على الشيوعيين معاملته كما يعامله النزلاء العاديون ، وكان احيانا يتعرض لخطر الضرب حينما يحاول القيام بعمليات تفتيش ليلية كعمل انتقامي من الشيوعيين مخالفا لائحة السجون .

وحيثما لمس مأمور سجن القاهرة ذلك ، امره بالابتعاد تماما عن عنابر الشيوعيين .

كان النزلاء الذين يقومون باعمال النظافة في عنابر الشيوعيين يكونون احتراما عميقا لهم ، ففأجأهم يونس مرعي ذات يوم وهم يحضرون الطعام من المطبخ ، واستدعى بعض الحراس وامرهم بضرب هؤلاء النزلاء وشارك هو بالضرب .. وبذلك تصور انه قد انتقم لكرامته من الشيوعيين .

كانت تصرفاته الرعناء في جناح السجنات ، ومع النزلاء تفقده احترام كل من في السجن ، بينما يرى الشيوعيين يحظون باحترام الجميع بمن فيهم زملاؤه الضباط .

حاول الاعتداء على احدى المتهمات في قضية تجسس ، فاستفادت .  
وحاول مرة اخرى مغازلة الراقصة تجية كاريوكا وكان مقبوضا عليها بسجن  
القاهرة في قضية سياسية فصغته على وجهه صفعه دوت في جنبات  
السجن ، ودوت معها عاصفة من السخرية بيونس مرعي .

علاقته العاطفية كلها من نوع وضع وكلها فاشلة ، وكان يحنقه ان يرى  
للشيعيين زوجات او خطيبات يحفظن لهم الوفاء ويداومن على زيارتهم .

كل شيء في حياته كان مهتزا .. نفسيته ، سلوكه ، وافكاره . لم يكن  
يدري بالتحديد ماذا يريد .. وكان يحقد على الشيوعيين ان يرى كل شيء  
فيهم متماسكا .. شخصياتهم متماسكة ، وافكارهم متماسكة ، يعرفون  
جيدا ماذا يريدون .

بدأ حياته بوهم ان الملابس العسكرية هي نموذج التفوق ، فاذا به يرى  
ان هناك شيئا اخر يصنع تفوقا دونه كل تفوق ، ذلك هو الفكر .. كان  
يحز في نفسه ان يرى عاملا شيوعيا يتحدث في الفلسفة وفي الاقتصاد وفي  
السياسة ، ويقدم افكارا لا يعرف هو عنها شيئا ، ويتحدث عن نظريات لم  
يسمع هو عنها من قبل ، ويذكر اسماء مفكرين وقادة لا يعرف هو عنهم  
شيئا .

كان ينصور ان سلم الرقي الاجتماعي يتوقف عند الحلة العسكرية ،  
ولذا كان يملأ الفيط اذ يرى بين الشيوعيين اطباء ومحامين واساتذة  
بالجامعة وحملة لشهادات لم يكن يتصورها : دكتوراه في الكيمياء او في  
الطبيعة او في الاقتصاد او في الادب او القانون .

لم يكن يتصور ان هناك ما هو اكثر بريقا من النجوم والازرار الذهبية  
على الملابس العسكرية ، ولم يكن يتصور ان هناك ما هو اكثر شهرة من لاعب  
الكرة ، وكان يجن جنونه اذا ما رأى بين الشيوعيين صحفيين وكتابا تتعدى  
شهرتهم حدود بلادهم .

ومن هنا كان عداؤه للشيوعيين .. وبوجه خاص ارؤوس الشيوعيين  
... وعلى وجه اخص رؤوس المثقفين الشيوعيين .

لقد ادى سلوكه المهتز ، النابع من شخصيته القلقة الحقودة الى ان  
توقع عليه كثير من العقوبات مما ادى الى تأخير ترقيته . وانتهى به طموحه  
الحقود الذي لم يكن مسلحا باية قيم ولا باية مثل انسانية ، ولا باية قدرات

ذهنية ، انتهى به هذا الطموح ، الذي لم يجد متنفسا له الى الادمان على المخدرات . وحينما افتتح النظام الاوردي ، لتعدينا ، لم يجدوا نموذجا طيعا لهم في تنفيذ جرائمهم هناك ، الا مثل هذه الشخصية المريضة الحقودة المشحونة بالحققد على الشيوعيين ، فرقوه الى رتبة اليوزباشي وجاؤا به الى الاوردي ... حيث قتل لهم فريد حداد .

## الفصل السابع

### هدية عيد النصر

انبعت ادارة الاوردي جريمة قتل الرفيق فريد حداد بموجة عاتية من الارهاب ، كل جرعة من جرعات التعذيب تضاعفت ، الضرب ، التفتيش ، الطابور ، العمل في المحاجر . . . وكان هدفها هو قتل اي روح للمقاومة الجماعية قبل ان تعبر عن نفسها بشكل عملي .  
ولقد نجحت .

تقد اختلف الوضع عما كان عليه في معسكر العزب بالفيوم .  
فالمعتقلون السياسيون الذين لا ينتمون للحزب الشيوعي ولا ولاية هيئة اخرى . والذين كنا نسميهم المستقلين كان من الممكن تعيبتهم الى جانب الحزب وبذلك تواجه مجموعة المنقسمين كتلة ضخمة تضغط عليها في اتجاه خوض معركة ضد الادارة وكانوا يرضخون ويشاركون . وكان يساعد على رضوخهم ان قيادتهم المركزية لم تكن معهم في الفيوم .  
اما في الاوردي ، فقد اشاع الارهاب الوحشي المذعر في نفوس الغالبية العظمى من هؤلاء المستقلين . ووقعوا فريسة الدعاية الاستسلامية التي بدأ المنقسمون يروجون لها ، والتي كانت تركز اساسا على ان العقيد حسن مصيلحي رئيس مكتب مكافحة الشيوعية قد زار معتقل الفيوم بعد ترحيلنا بفترة قصيرة واستدعى عديدا من المعتقلين لمقابلته وفي اعقاب ذلك رحلت مجموعة من ستة وعشرين معتقلا الى القلعة وقيل ان هذا كان تمهيدا للافراج عنهم ، وقال المنقسمون في دعائياتهم المسمومة ان تلك المجموعة التي رحلت الى القلعة كانت كلها من اعضاء مجموعتهم ومن المستقلين الذين عرفوا ببعدهم عن الحزب الشيوعي وعدم العطف عليه او المشاركة معه في اية مواقف .



والحق ان ما قالوه عن تلك المجموعة التي رحلت الى القلعة كان صحيحا فيما عدا ما اتضح بعد ذلك من ان تلك المجموعة كانت تتلقى في معتقل القلعة محاضرات ضد الشيوعية ، ثم يطلب من افرادها في نهاية الفترة المقررة لتفسير المح ان يُؤدوا امتحانا تحريريا فيما بقي عليهم من محاضرات ، وان يقدموا اعترافا مكتوبا عن نشاطهم السياسي السابق وصلاتهم السياسية مشفوعا ذلك كله باستنكار مكتوب للشيوعية .

هذا الجانب الاخير من قصة الستة والعشرين لم يكن معروفا حينئذ. ولذلك لعبت قصتهم دورا كبيرا في انخداع المستقلين بدعاوى المنقسمين التي صورت لهم الموقف على انه بعد قليل من الوقت سيعود العقيد حسن مصيلحي للاوردي وينتقي دفعة جديدة للافراج عنهم على نحو ما فعله بالفيوم . . اي ان الابتعاد عن الحزب ونشاطه هو الطريق الى القلعة ، والقلعة هي الطريق الى الخارج .

والحق انه كلما كان المرء يتساءل عن السر في اعتقال هذا العدد الكبير من الذين لم يكن لهم ادنى صلة بالعمل السياسي لم يكن يجد اجابة سوى انها عملية قصد بها ارهاب كافة فئات الشعب واشعار المواطنين في كل مكان ان جهاز المباحث يستطيع ان يفعل اي شيء وفي اي وقت . ولكن سببا جوهريا اخر اتضح الان ، وبانت اي جريمة فيها الاستهتار بكل القيم الانسانية قد ارتكبت في مصر . . جريمة تنبعث عن قهمل متخلف للانسان . .

لقد حشد اكثر من مائة مواطن بريء في المعتقلات بعد انتزاعهم من بين ابنائهم او آبائهم ، من اعمالهم او مدارسهم او حقولهم او مصانعهم لكي يكونوا قوة انهزامية وسط المعتقلين تشمل نشاطهم الجماعي في المقاومة . ولئن استطعنا ان نحولهم الى احتياطي لنا في معاركنا في بداية الامر ونحن في الفيوم ، الا ان ذلك كان امرا مؤقتا ، وتكاتف الارهاب والتعذيب في الاوردي ، مع دعاوى المنقسمين الاستسلامية لتحويل هؤلاء المعتقلين الى قوة انهزامية .

ولئن كنا نسجل هنا بكل اعتزاز البطولات التي سجلها اعضاء الحزب الشيوعي المصري وبعض الديمقراطيين ، الا اننا لا بد وان نعترف بان مواقف الحزب وتقديراته ، او مواقف بعض الرفاق ، لم تكن في المستوى البروليتاري المفروض ان تكون عليه ، ويعود ذلك بدرجة اساسية الى اليمينية التي سادت الحركة الشيوعية في مصر وخاصة في سنوات ٥٦ ، ٥٧ والتي امتدت الى الحزب الشيوعي المصري منذ تاسيسه في ٨ يناير ١٩٥٨ .

لم يكن مصممو « الاوردي » يكتفون بالتعذيب الروتيني اليومي المتمثل في الجوع والقدم العازية والسخرة والضرب المبرح ، والتفتيش والطواير المنهكة للجسد والاهانات التي لا تتوقف وترك المرضى والمصابين يعانون امراضهم وجراحهم دون علاج ، بل ويتحملون كل صنوف التعذيب هذه بالاضافة الى امراضهم ، لم يكونوا يكتفون بذلك ، بل كانوا يفرضون على المعتقلين يوميا ، اما كأفراد او في مجموعهم اشكالا من الاذلال ، اما الخضوع لها او جرعات اكثر من التعذيب الفردي والجماعي .

وكانت اشد الهجمات هذه هي التي تهدف لارغام المعتقلين على التنكر للشيعوية ، او ترديد الاناشيد التي تمجد عبد الناصر وسياسته .

طلبوا منا يوما فرقة فرقة في طواير الصباح ان نردد اغنية « بطل الثورة يا جمال » وكان الرفض هو الاجابة الحاسمة ، ولم يستجب سوى بعض عناصر من المنقسمين ابدت استعدادها لترديد الاغنية وتحفيظها للآخرين وكان ذلك ايدانا بحملة واسعة فردية وجماعية فاختر قائد المعسكر الدكتور اسماعيل صبري استاذ الجامعة السابق واحد كبار المستشارين الاقتصاديين للحكومة حتى اعتقاله في اول يناير ١٩٥٩ - ليصب عليه انتقامه وبالضرب المبرح على قدميه ورأسه وجسده ثم ارغامه على العمل في محاجر الجبل وهو عاجز عن الوقوف على قدميه - وفي نفس الوقت تعرضت كل المنابر لهمليات باطشة من الضرب الجماعي ومضاعفة العمل في الجبل .

لقد سألونا يوما اذا كنا شيوعيين . وطلبوا منا الاجابة بالنفي ولما رفضنا تحقيق رغبتهم توالى علينا ايام قاسية من الضرب في الصباح والمساء مع مضاعفة العمل الشاق في الجبل .

كما سألونا يوما عن رأينا في الطعام ، وطلبوا ان نبدي رضائنا عنه ، ولما لم نستجب لطلبهم هذا ، اضيف الى عشاتنا وجبة ثقيلة قوامها الضرب الجماعي الاعمى .

سألونا يوما ايضا عما اذا كانت هناك شكاوى ، ثم اخذوا كل من تقدم بالشكوى ولو كانت خاصة بمسائل عائلية او بعيدة عن كل ما يتصل بالمعتقل والمعاملة ، اخذوهم واجابوا على كل الشكاوى بملقة ساخنة . طلبوا منا ونحن نعمل في المحاجر ان يقدم كل واحد قدرا من صخور البازلت المكسور يملا ستة مقاطف اي ما يقرب من ٢٤ كيلو جرام فامتنعنا عن ذلك وقدم الرفاق الاثنان والستون الذين حوكموا امام المجلس العسكري والذين كانت الادارة قد اختارتهم لبدء العمل في تكسير البازلت - قدم كل منهم ثلاثة

مقاطف فقط . ونالوا جزاء ذلك من الضرب والتعذيب الشيء الكثير لتصلبهم لذلك الموقف ولكن فرضنا عليهم الا يطالبونا باكثر من هذا القدر من العمل . كانوا يطلبون من بعض الرفاق ان يمسكوا « بالفلكة » تلك الاداة التي طالما استعملت في العصور المظلمة لضرب الفلاح وتعذيبه في قصور الاقطاعيين والعمد ، كانوا يطلبون منهم ان يمسكوا « بالفلكة » لرفع اقدام رفاق اخرين اثناء ضربهم وكانوا يرفضون وهم يعلمون ان ثمن هذا الرفض هو الضرب والتعذيب ، كانوا يريدون ترويضنا على الا نقول كلمة « لا » ، ولكنهم خسروا تلك المعركة .

كان صوابهم يطير ، اذا ما انهالوا بالضرب على احد الرفاق ولم يسمعوا صيحة الم تصدر عنه ، فالجلد وتحمل الآلام دون شكوى من مقاييس الرجولة في بلادنا والسياح في هذا الاطار استنكار للرجولة : بل كانوا يطلبون صراحة من الفريسة ان يستنكر رجولته وان يقول « انه امرأة » فالبورجوازية في بلادنا ما تزال تنظر للمرأة بعقلية الاقطاعي او بعقلية تجار الرقيق على انها مخلوق يجلب العار وانها ليست سوى اداة للمتعة .

وقمة الاذلال للرجل ان يجبروه على انكار رجولته . الجلادون الذين لا يطبقون ان يسمعوا كلمة « لا » من فم المناضلين وجسدهم يتمزق تحت ضربات الشوم والسياط . والبازلت يدمي اقدامهم لا يمكن ان يتصوروا او يقبلوا ان يرتفع صوت بالاحتجاج على عمليات التعذيب، على منع العلاج .

لقد كان نصيب الذين تصدوا للاحتجاج على الضرب او منع الدواء الضرب الوحشي بجنون . ليس هذا فحسب بل لا بد ايضا من توقيع العقوبة الجماعية على سكان العنبر كله .

ولم تكن كلمة لا او كلمات الاحتجاج هي التي تستفز الجلادين فقط بل كانت اي محاولة منا للاشتغال بقضايا شعبنا ووطننا تستثير كل احقادهم .

حدث في اليوم الثاني والعشرين من ديسمبر ان خرج الرفيق عبد المنعم شتلة مندوبا عن اللجنة المركزية وطلب من المأمور السماح لنا بالاحتفال بعيد النصر في اليوم التالي ٢٣ ديسمبر يوم انسحاب قوات العدوان الثلاثي من بور سعيد واجاب المأمور بانه سيبحث الامر .

وفي صباح ٢٣ ديسمبر كان رد المأمور هو عمليات ضرب واسعة النطاق في الجبل لغير ما سبب سوى اننا مازلنا نفكر كمواطنين وكسياسيين ونذكر ان لنا اعيادا قومية نريد الاحتفال بها .

كان الیوزباشی عبداللطیف رشدی هو المشرف علی تلك العملية وكانت تعليماته ان يختار كل حارس عددا من فرقته لیتسلموا هدیة عید النصر ، واقتاد حارس احد المعتقلين فسأله الضابط فی هدوء عن اسمه فاجابه ، وبنفس الهدوء طلب منه الضابط ان یقول انه « امرأة » وان یلمق الارض بلسانه فرفض وثارت نائرة الیوزباشی الدموی ونادی خمسة من الحراس بالعصي الفلیطة وانهلوا علی الضحیة ضربا علی رأسه حتی اغمی علیه . وظل هكذا فی غیوبته الی ما بعد عودتنا به محمولا علی اکتافنا وقد تورمت قدماه ، وكسرت عظامه وشجت رأسه واصیب بداء السكر بعدها .

## الفصل الثامن

### « ظل » رجل

كل من يراه بجثته الضخمة ، ووجهه المتجهم ابدا ، يحس ان هذا الرجل يعيش ازمة نفسية دائمة ، من يرى التجاعيد في وجهه التي تشير الى انه قد تجاوز الاربعين ثم ينظر الى كتفيه فلا يرى على كل منهما سوى ثلاثة نجوم ، اي لم يتعد رتبة اليوزباشي قد يظن السبب في ازمته هو تخلفه في الترقية ، بينما سبقه كل زملائه ، بل والذين تخرجوا بعده من كلية البوليس ويصفرونه ، يحملون الان رتبة صاغ ويوزباشي .

لم يكن يملك من الكفاءات غير صوت جهوري يستطيع ان يملأ به الدنيا صراخا وسبا وشتما طوال اليوم دون كلل ، واستعدادا لان يقتل . ولقد وضع هاتين الكفاءتين في خدمة سادته ايام كان ضابطا بليمان طره عام ١٩٥٦ ، وقاد بنفسه المجزرة التي دبرت للمسجونين هناك من جماعة الاخوان المسلمين ، ولسوء حظه ان الامر باطلاق النار الذي اصدره زكريا محي الدين وزير الداخلية كان امرا شفاهيا بالهاتفون ، وحينما ارادت الدولة ان تقدم كبش فداء اختارته هو وزميله عبد العال سلومة الذي اشرف عام ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ على اعمال السخرة في الواحات ، فادينا في التحقيق وحرما من الترقية في دورهما .

ويبدو في هذه المرة ان عيد اللطيف رشدي كان مطمئنا الى انه لن يجازى على خدماته في الاوردي ، كما جوزي على خدماته في ليمان طرة ، ثم انه لم يكن له خيار ، فذلك هو الطريق الوحيد للترقية وبالفعل فلقد كوفى على اغتياله للشهيد شهدي عطيه على بوابة الاوردي بترقيته الى رتبة الصاغ ثم نقل الى وظيفة اعلى بمديرية اسيوط حيث قتل عام ١٩٦١

في ظروف غامضة .

ولئن كان اليوزباشي يونس مرعي يكره رؤوس الشيوعيين ، لما ترمز إليه من تفوقهم عليه . فان كراهية عبد اللطيف رشدي لرجولة الشيوعيين ومحاولاته الدائبة ان يجبر من يقع تحت يديه منهم على استنكار رجولته تكمن في ازمته الحقيقية التي عاشها دائما ، والتي تكشف عنها الاقاصيص التي يرددها السجانة عنه . فهو بالرغم من جثته الضخمة وصوته الجهوري العالي ، ورغم شاربيه وملامحه المتجهمه ، لم يكن يستطيع تحقيق السيادة لنفسه كرجل في بيته فزوجته هي صاحبة الامر والنهي ، وكلمتها هي العليا ، وكانما هي رب البيت الحقيقي ، لا يملك هو الا الخضوع لارادتها . وقد كنا نلمح صورة لهذا الخضوع لزوجته كما يحكي عنه السجانة ، في علاقته بالصاع حسن منير مأمور السجن ، فان المأمور الضئيل الجسم ، الانثوي التكوين ، الناعم الصوت ، كان يقود هذا العملاق من انفه ، كان عبد اللطيف رشدي يقف في استكانة ويسير في اعقابه كما يسير الكلب الاليف عند قدمي سيده ، ولدى ادنى اشارة من المأمور ، ينطلق كالثور الهائج علينا فاتحا حنجرته بالصراخ والسباب ، معملا عصاه فينا ومطلقا رجاله علينا . كان هذا اليوزباشي يرى في تلك المظاهرات فرصة لتأكيد رجولته المهدورة ، كان الصاع حسن منير اذا استشعر من المتعة ما فيه الكفاية لرؤيته عبد اللطيف رشدي هائجا كالثور بين المعتقلين ، يشير اليه بطرف اصبعه فيعود هذا لينكمش خلف سيده الذي يكافئه بابتسامة راضية .

## الفصل التاسع

### « لن اهدف »

منتصف الليل

انتهى عام .. وبدأ عام جديد .

انتهى ١٩٥٩ ، وبدأ عام ١٩٦٠ .

والعام الجديد مهما كانت قسوته بالنسبة لنا ، فهو عام جديد فسي  
مسار البشرية الى امام .. والى رقي وتقدم . وهو وان كان عاما جديدا  
علينا في محاجر ابي زعبل ، وفي جحيم الاوردي .. فهو عام ينقضي من  
عمر الارهاب .. انفاس فريد حداد تحولت الى ريح عاصف يهز شجرة  
الارهاب ، العالم كله يتحدث عن فريد حداد ، والصحافة التقدمية والاصوات  
الانسانية تطالب بالتحقيق في مقتل فريد حداد .

لم ننم تلك الليلة ، لا لنتحتفل بالعام الجديد ، فهذا الاحتفال تم بصورة  
مختصرة في بداية الليل .. تصافحنا وتعانقنا وتبادلنا التمنيات الطيبة ..  
ولكن المطر كان ينهمر بشدة ، والريح تصفر صفيرا كثيبا في الخارج ،  
وتهاجمنا عبر قضبان النوافذ لتعض بانيابها الثلجية اجسادنا المتعبة ، والرعد  
يلف المكان بعباءة من الغضب ، المطر على سقف العنبر رتبية مقبضة .  
الريح تقذف بخيوط المطر خلال النوافذ ، فتبتل الارض والبطاطين ..  
ولكن ليس هذا كل شيء فلقد داهمتنا مصيبة جديدة . فسقف العنبر بال  
خرب ، ما كادت مياه المطر تتجمع فوقه حتى اخذ يسربها علينا .. كانت  
تساقط من الف ثقب لانتبينها .. لم يكن هناك سنتيمتر واحد فسي  
السقف الا ومياه المطر تتساقط من خلاله .

وابتلت ملابسنا وابتل البطاطين التي نلتفح بها وابتل الابرش ، ولم

يكن هناك شبر واحد يحتمي فيه الانسان من الماء المتساقط ، واجسادنا الهزيلة قد حوصرت داخل الملابس المبتلة ، داخل العنبر المغلق الذي تعربد فيه دوامات الريح الباردة .

ولم يكن هذا كل شيء ...

فبعد قليل تجمعت المياه المتساقطة من السقف في ارض العنبر مكونة بركة هائلة ، ليس هناك مكان نجلس فيه ولم يكن ما يعيننا هو الاحتماء من الماء المنهمر . بل ان نجد فرصة للجلوس فلقد قضينا الليل وقوفا ... اقدمنا العارية غارقة في الماء وقد ارتفع اكثر من عشرة سنتمترات .. كان البعض يستند براسه الى كتف رفيق ليفغو بضع دقائق ، ولكن البرد الذي يزحف الى العظام من اقدمنا العارية وسط الماء ، والبرد الذي يغمر الجسم من البطاطين والملابس المبتلة ، والبرد الذي يلقح الوجوه من تيارات الريح ، كلها كانت تسارع بايقاظ من يفغو ليعيش الماساة بكل حواسه .

وجاء الصباح .. العيون متورمة حمراء من السهر ، والالام ، والاطراف قد تجمدت والسيقان لا تقوى على حمل اجسادنا .. وابتسم الشعبان ، مأمور السجن ، بسمة شريرة وقد وقف يرقبنا ونحن ننزح الماء الى خارج العنبر المنخفض عن سطح الارض بمقدار ثلاثين سنتمترا ولم نكد ننتهي من تلك المهمة ، حتى امر باخراجنا للعمل في المحاجر .

والمعتاد جلسنا القرفصاء في الفناء لمدة خمس وعشرين او ثلاثين دقيقة . اقدمنا مغرورة في الطين الذي كان يتجمد من البرد ، واجسادنا تلفحها الريح الباردة ، وتضئها الملابس المبتلة . وسرنا الى الجبل . . الطريق كله موحل ، تنتشر فيه برك صغيرة من ماء المطر برودتها تلسع اقدمنا كحد موسى ، حتى الحراس الذين كانوا يرتدون ملابس صوفية ثقيلة ومعاطف سميقة وقلنسوات تحمي رؤوسهم ووجوههم ، كانوا متذمرين ، ويغمضون بكلمات السخط على الضباط والحكومة . والبعض منهم كان يتساءل متذمرا بصوت مسموع : لم لا تتخلص الحكومة من هؤلاء القوم ضربا بالراس وتضع حدا لتلك الهزلة . نزلنا الى المحجر في بطن الجبل . . مياه المطر قد اذابت التراب العالق بالاف من شظايا البازلت فاخذت تلمع واقدامنا العارية تطأها كما تطأ السكاكين .

وضربة خاطئة على اليد من الشاكوش تحدث تورما مؤلما ذا لون داكن ازرق . وعلينا ان نخوض بسيقاننا بحيرات الماء البارد المتجمعة حول الصخور المفتة ثم نضرب بسواعدنا في الماء بحثا عن قطع الصخر المفتة . لم يسلم



واحد منا من اصابة في ذلك اليوم فتحت سطح الماء تصطدم راحة اليد او الساعد بحافة قطعة صخرية حادة تمزق الانسجة وتحدث اصابات عميقة.

والمطر يعود للانهمار ، والضباط يحتمون بخيمتهم ، ويتركونا في حراسة الجنود الذين يزدادون سخطاً ، بعضهم بنفس عن سخطه فينا بضرباته وركلاته ، والبعض بنفس عن سخطه بسبب الضباط والحكومة ولن اليوم الذي اشتغل فيه بمصلحة السجن .

هكذا مرت الايام الثلاثة الاولى من يناير . . . مطر ليلا ونهاراً ، برد قارس ، لا نوم ولا راحة حتى ولو لدقيقة واحدة ، الغوض في الوحل الثلجي وفي برك المياه الباردة ، شظايا البازلت تمزق اقدمنا العارية وراحتنا وسواعدنا ، وتترك في الجرح بقايا منها يتجمع حولها الصديد ويتقيح الجرح .

لم نكد ننتهي من كارثة المطر في اليوم الرابع من يناير حتى بدأ صدام جديد حاد بيننا وبين قيادة المعتقل .

قبل ذلك بايام ، اي في مساء الثاني والعشرين من ديسمبر ١٩٥٩ فوجئنا ونحن في طابو التعمار اآخر النهار بامور السجن يقول : مهما كانت اراؤكم ، فانتم جميعا تستظلون براية الجمهورية العربية المتحدة وتدينون بالولاء لها .

لم نفهم المقصود بتلك الكلمات التي كانت تحمل ظلالة من التشكيك في وطنيتنا الا حينما ادى الصول مطاوع التحية العسكرية ثم هتف بحياة الجمهورية العربية المتحدة ثلاث مرات وطبعاً رددنا جميعاً الهتاف ، فهي بلادنا ، ولقد قدمنا من اجلها الكثير من التضحيات الكثير .

ولكن الثعبان حسن منير كان يبيت امراً اخر ، كان يريد ان يروض الحزب الشيوعي ، بالارهاب ، على الولاء لعبدالناصر ، كان يريد ان هتف بحياة جلادينا في العيد الثالث للنصر الذي احرزها الشعب في بور سعيد .

ردد الصول مطاوع الهتاف بحياة عبدالناصر ، وتضاءلت الاصوات وتخلخلت صفوف المردين بالهتاف فلم يردده الا اعضاء المجموعة المنقسمة والكثيرون من المستقلين .

ولم يبد الثعبان وضباطه شيئاً غير عادي حينما لمسوا البون الشاسع بين الاصوات التي هتفت بحياة البلاد وتلك التي هتفت بحياة عبدالناصر .

مرت عشرة ايام كان امتناع الحزبيين اثناءها عن الهتاف بحياة عبدالناصر ، ليس فقط تحدياً للارهاب ، ولكنه دلالة على ان التنظيم الحزبي قائم متماسك

وكان لا بد من تفتيت هذا التماسك واذا لم يكن التعذيب الجماعي قد اجدى فليضف اليه التعذيب الفردي .

كان يناير هو اليوم الذي اختاره الشعبان ليبدأ معركة الجديدة . وهنا نترك القصة لنيل صبحي ، وهو شاب نحيل في السادسة والعشرين من عمره ، كان طالبا في كلية العلوم بجامعة القاهرة وفي عام ١٩٥٤ اتهم في قضية شيوعية ورغم ان التحقيق لم يجد ضده ما يدعو لتقديمه للمحاكمة فقد فصل من الجامعة بناء على تعليمات المباحث العامة .

« كنا نجلس في العنبر رقم (٢) صفين متقابلين ، تصل الى آذاننا خنيط من افرقعات والصيحات وديبب الاقدام ، يتداخل بعضها في بعض ، ليتكون منها نغم غير منتظم .. نشاز .. مزعج وكريه .

بدأ الصمت الحزين يخيم بسرعة على العنبر ، البسمات تختفي من الشفاه ويتلاشى الهمس ، وتوقفت تماما المشادة الكلامية التي نشبت بين زميلين وارسم الوجوم على الوجوه ، وبانت ملامح الغضب على الوجوه الاخرى . وهمست اصوات « الضرب الشديد ، فرقة القوايش العالية ، ديبب الاقدام توقف مرتين هذه هي ثالث لفة » وصوت اليوزباشي الثور عبداللطيف رشدي ينبعث من عنبر «٦» .

مرت اللحظات ثقيلة كئيبية وجرى تفتيش عنبر اخر ، وارند الهدوء لبعض العيون القلقة ، ودار المفتاح الثقيل يفرقع في ابواب العنابر الستة وصوت السجن يرن في الصمت « دوغري .. تمام » واندفع المعتقلون الى خارج العنبر مشكلين طابورا من ثلاثة صفوف ثم ركضوا بالخطوة السريعة في انتظام عسكري حتى احتل سكان كل عنبر مكانهم المحدد في فناء السجن ، وعلا صوت الصول مطاوع « فرق .. صفا .. فرق .. انتباه » وبدأ يأخذ التمام « عنبر ١ ؟ » ويردد السجنان : « ٦٢ يا فندم » ، « عنبر ٢ ؟ » ويرد السجنان : « ٦٠ يا فندم » .

وهكذا حتى تم الصول على العنابر الستة .. ثم توسط الفناء ووجهه الى الشعبان مأمور السجن ، ورفع يده بالتحية العسكرية بينما عيناه وعيون الضباط الثلاثة الاخرين تجول بين الصفوف المتراسة وردد الصول الهتاف بحياة الجمهورية العربية المتحدة ثم بحياة عبدالناصر وتخلخل الصوت في ترديد الهتاف الاخير .

ثم يحدث شيء اثناء الطابور واكن تربص الضباط والصول لفت الانظار ودارت الطوابير لاستلام طعام العشاء ، وبينما الزملاء يجرون

لاختطاف طعامهم والعصي تلهب ظهورهم استوقف الضابط الثور احد  
الزملاء

- تعالى هنا يا ولد
- اسمك ايه ؟
- لبيب عبدالغفار يا فندم .
- عمرك كم سنة ؟
- ١٩ يا فندم .
- ليه ما بتتهفش للرئيس ؟
- ...
- خرس ؟ اتكلم .. ليه ما بتتهفش ؟
- كده يا فندم .
- انت خايف منهم ؟ .. طب اهتف هنا قدامي .
- لا يفندم انا موش चाहتف .
- طيب روح دلوقت .

وصل لبيب الى المنبر . وكل الزملاء في انتظاره ، انفاسهم محبوسة  
مترقبين المجزرة التي لا بد وقد مورست ضده ، وكلهم قلق فهو اصغرههم  
سنا وحجما ، ولكنه جاء دون مجزرة وحكى لهم ما جرى بينه وبين  
الضابط . كان وقع الحديث الذي نقله لبيب غريبا على الجميع فقد ساد  
الزملاء سرور وتفاؤل وارتفعت اصواتهم بالتعليق هنا وهناك :

« هما موش عاوزين يفتحوا معركة .. دول بيهزونا بس » . « شفتم  
يا بتوع عبدالناصر ، يا خلايله ، شفتم الموقف الجماعي .. الكرامة عمرها  
ما تنهزم » ، « عظيم يا لبيب » .

ونشط بعض الرفاق ليشجعوا اخرين ، ويقنعوهم بضرورة عدولهم عن  
الهتاف ، وقد فعلت حادثة لبيب فعلها ، وتمهد الجميع ما عدا اعضاء  
مجموعة خليل المنقسمة بعدم الهتاف لمبد الناصر ، بل وتحمسوا ، نعم ، فلقد  
كان من نتائج السياسة اليمينية التي سادت الحزب فترة ما وبالغت في  
تقدير دور عبدالناصر ، وتجاهلت ضرورة الصراع ضد سياساته غير  
الديمقراطية ، ان تسربت المفاهيم والقيم البورجوازية داخل الحزب وعملت  
عملها في تمييع القيم التضالية عند بعض اعضاء الحزب ، فهتف بعضهم  
لمبدالناصر ، اما عن رهبة ، واما عن قصور في تقدير قضية الهتاف من  
زاوية دلالاتها السياسية . واما عن بعض ارتباك في اسلوب القيادة

الحزبية لم يكن منه مناص في مثل هذا المسكر الرهيب .  
ونام المعتقل .

ارهاق العمل الشاق في تكسير البازلت ، وتفريغ الحجر الجيري  
الابيض من عربات السكة الحديد بعد الظهر ، يفري العظام ، وبرد يناير  
القارس يلسع الاجساد الجائعة المفطاة بالاسمال .

ويتكور الزملاء تحت بطاينهم راجين الدفاء او بعضه ، ولكن دون  
جدوى ، الا انه في النهاية لا بد ان يفزو النوم الاجساد المكدودة . ليل  
الشتاء طويل ولكن ما ان يفلق باب السجن في السادسة مساء . ويطمئن  
المعتقلون وراء الابواب الموصدة . حتى يحسوا بالمرور السريع للساعات تحت  
وطاة تفكيرهم فيما ينتظرهم من عذاب في الصباح .

وبين نحنة شاوئش الحراسة الداخلي ، وصياح جنود الحراسة على  
ابراج السور « واحد تمام ، ٢ تمام . . » وبين نعيق اليومة وصفير الرياح ،  
وكابوس يحلم فيه زميل يمر سواد الليل .

ومع تباشير الصباح ، وعلى صوت غراب اسود . تدب الحركة في  
العنبر ويبدأ سكانه في التيقظ وغشيان دورة المياه ، ثم يعود كل امام  
« نمرته » وينتظرون التمام تحت وطاة فرقة القواوئش ودبيب الارجل  
وصراخ الضابط والعاكر . فتشت بعض العنابر وساد صمت فلم تفرقع  
المفاتيح الثقيلة في الابواب واقتربت الاقدام الثقيلة من عنبرنا . عنبر (٢)  
ودوى صوت اجش ممطوط : « انتب . . يا . آه . » : وانتبه الزملاء ، وانثنى  
البعض لياخذ وضع التفتيش ، الوجه الى الحائط والجسم منح ، ولكن  
الضابط نهرهم واخذ يمر بين الصفين ويتفحص الوجوه ، وعثر اخيرا على  
من يريد . .

وخرج لبيب وراء الضابط ، واغلق الباب ومرت بضع دقائق لم يسمع  
خلالها الا صوت الشوم المنهال على قدمي لبيب ، ثم فتح الباب فدخل ،  
وتقلصات وجهه تفصح عن الالم الذي تحمله في صمت ، ولم يشنه عن رفضه  
للهتاف ، ودوت في اعقابه الاصوات النكراء « دوغري تمام »

خرجت الطواوير ، واحتل كل منها مكانه في الفناء ، وتلقى الصول  
تقرير التمام من السجانة ، ثم شرع يهتف ، وتركزت كل العيون على عنبر  
لبيب ، وانتهى الطابور ودارت العنابر راجعة ما عدا عنبر لبيب ، عنبر (٢) .  
وتقدم احد الضباط وشد اثنين من بيننا كنت احدهم وتجمع الضباط  
والعاكر ، وجاءت الفلكة وارتفع الشوم في وضع الاستعداد ووجهه

الضابط سؤاله اليّ في حقد وغباء ظاهرين « موش بهتف ليه يا ولد ؟ يا .. » ونطق كلمة بذيئة . وكان ردي مختصرا ، انا شيوعي يا فندم . فسأل « وايه يعني » ؟ فاجبته « انا معتقل سياسي ولي رأيي في عبدالناصر » فقال : « انت راح تهتف والا » ، فقلت له « لا » فقال في غيظ « انت حانتف . . لف . . سف » . . لقد فقد صوابه وارتج عليه ، وتلعثمت كلماته ، وما ادري انا وصاحبي الا وقد انقض علينا العساكر فطرحونا ارضا واختطفوا ارجلنا ، فمددوها عالية وانهال الشوم على اقدامنا بلا حساب . وفي نفس الوقت هجمت جماعة اخرى من العساكر على طابور العنبر ، وكأنما قامت القيامة ، وانهالوا على الجميع ضربا . . من يهتف ومن لا يهتف ، وارهقوهم بانتمارين العسكرية اللعينة الشاذة في عنفها كل ذلك واضرب لا ينقطع .

ونظرت الى الضابط الثور عبداللطيف رشدي وقلت له بصوت خفيض « انا عندي روماتزم بالقلب واحملك مسئولية نتائج التعذيب » . وهاج الفول وهو يقول « موش تموت يعني . . موت يا ابن ال . . » ونطق كلمة بذيئة في حق امي وانهال بحدائه على وجهي وبطني وباناشوم على قدمسي وساقني وكل جسدي ، والسباب المقذع يتناثر والدينيا تدور في عيني وتسود شيئا فشيئا وتتحرك يدي في بطاء لتسحب طاقتي من على رأسي واحشو بها فمي ، لتكنم آتات الالم ، وارتعشت شففتاي ، ثم انفرجتا في شبه تشنج وتقلصت عضلات وجهي ثم غامت الدينيا في عيني . . وغبت عن الوعي . .

لم اعلم كم من الوقت مر ، حينما بدأت افيق ، وجسدي كله يرتعش ، والبرد يفري عظامي وملابسي مبتلة ، لقد القوا عليّ في شتاء يناير جردل ماء بارد ليوقظوني من غيبوتي ، دونما اي اعتبار لروماتزم القلب الذي اعانيه .

وما ان فتحت عيني حتى صرخ الضابط « قوم اجري يا عرص » وانهال على ظهري بعضا خيزران رفيعة .

واضطرت الى النهوض وحاولت الجري مترنحا ، حول عامود من الحديد مثبت في منتصف الفناء وبجوارني زميلي ، وفجأة استوقفنا الضابط وطلب منا ترديد الهتاف لعبدالناصر ، مقلدين حضرة « لوصول » فصمنا ، وحينما كرر طلبه اجبته في اعياء : « احنا حنهتف في حياة بلدنا بس » .

وهاج الثور مرة اخرى واعاد الجولة واخذ يردد في عصية مجنونة : « سكتنا لكم ١٢ يوم ، فجرتم فيها يا اولاد الكلب ، اسمك ايه يا شاطر ؟ » فلم يرد عليه احد . . ورغم الالام الرهيبة كانت العيون تقدح شررا وادانة

.. واشتد الهياج وتركزت عصا الوحوش على المريض المتبجح الذي يرد على الضابط والذي لم يلبث ان راح في اغفائة ثانية طويلة .

وافقت على رائحة النوشادر النفاذة ، وصدر الامر بان انزل الى الجبل للعمل الشاق في حمل التراب وتكسير حجر البازلت الصلب ، وحاولت السير مع الطابور والالام تمزق رجلي المتورمتين ، وتمزق كل جسدي ، فحملني زميلان ، ولكن الثور صرخ معترضا فتركاني اتعثر طول الطريق .. اقوم .. واسقط . ولكنني سرت ، ووصلنا الى الجبل ..

السماء ملبدة بالغيوم . والجو قارس معتم ، واشباح المذنبين نزلت ليمان طره تتحرك بطيئة او سريعة ، وتختلط ملابسهم الزرقاء بالحجر الاسود وطواير المعتقلين تسير في خطوة حزينة وشظايا البازلت تشق الاقدام والوجوه ، والعيون يرسم فيها غضب او خوف ، تنظر الى فوهة الحجر ، وكأنها هي تنيّن مسعور يوشك ان يلتهمنا وفي النفوس انفعلات شتى وتوقعات حول المصير ، وتجلجل اصوات الضباط النكراء ، ويبن المصراخ والضحكات الخليعة ، يتسلو باصدار اوامر الهوان ، والمدافع الرشاشة تطل فوهاتهما من اعلى الصخور .  
- ايوه يا فندم .

وصاح عبداللطيف رشدي « يا حضرة الصول » عنبر (٢) على التراب وعنبر (١) على الدبورة في بطن الجبل ، وباقي العنابر تكسر .  
وفهم الجميع معنى هذا التقسيم .. انه يوم عنبر (٢) .

عوت الصفارة فجرت طواير العنابر كل الى مكانها المحدد ، كنت اعاني من السير وشظايا البازلت لها وخز الابر على قدمي المتورمتين فوقعت على كومة من تراب ، وحولي ستون رقيقاً بأيديهم الفئوس والمقاطف يضرب الجنود فيهم بلا حساب ، والضابط الفرير يتبختر حيناً ، ويجلس على كرسي حيناً آخر وحنجرته لا تكف عن السباب والمصراخ « بالخطوة السريعة يا حضرة الصول ، وهما رايجين وهما جاينين » وأشار اليّ وهو يقول : « أنت يا شاطر بتفوس في بحر ، تعالي هنا ، فين رجلك الليسي بتوجحك .. نام يا شاطر » .

ولم ينتظر ، فما ادري الا وقد طرحني ارضا ، واصدر الامر بالضرب « كل رجل لوحدها يا كامل .. نشف ايدك في الضرب » وينهال الضرب على كل قدم على حدة وهو يسأل ساخرا « رجلك خفت ولا لسه ؟ » وصمت ولم يرض ذلك الضابط فصب على رأسي مقطفا مليئا بالتراب .

كنت اتلوى من الالم وانا انهض كاتما اناتي ، واستدرت نحو كومة  
التراب التي يعمل فيها زملائي وانهال الشوم على ظهري ورقبتي ، ودارت  
الاشباح في عيني بعنف وبدا للوهلة الاولى ان الدنيا اشد اضلاما ، واخذت  
اترنح متهاويا في الطريق الى غيبوبة طويلة ، دارت في رأسي صور وحوش  
كاسرة وحزب يقاوم وشهيد يسقط : فريد حداد . محمد عثمان .. على  
الوجه بسمة ، اب شيخ وام حنون واخوه صفار ، وعلى الوجه قلق حزين  
يعيش عبد الناصر .. تعني يعيش قتلة محمد عثمان وفريد حداد .. عملاء  
.. شهداء .. عمال .. جموع ما .. انني صغير .. صغير .. ما الحياة  
.. ما حياتي .. والصور تتداخل .. وتتشابك .. وصغير كئيب يصم  
الاذنين .. واسقط مغشيا علي .. بلادي مصر .. بلاد دفء وشمس ومروج  
.. بلادي مشرقة ، يطول الليل في الشتاء ويشند البرد حينما شتاء بلادي  
شمس دافئ وغيومه هشة ، اما صيفنا فقيظ شديد .. ملتهب ..  
ملتهب .. ما زال الدوار في عيني ، وناز تنهش جسدي وقدمي .. الغيبوبة  
تراود جنوني .. بالله .. انني الان في العنبر .. وحولي عدد من الرفاق ،  
لم اكن استطيع بعد ان اميزهم ..

الوقت غروب .. من النافذة تبدو الفيوم وقد تشققت ، وسبحت  
متناثرة في الفضاء .. وشعاع شمس يشرق فيمس الجفون المكسودة  
فترتمش ويصبح الرفاق مبتهجين « انه ما زال حيا » وبقايا الصور تقفز  
.. واتبين الذين حولي .. ويظهر ممرض السجن الرهيب وفي يديه  
زجاجات وقطن ، وعلى وجهه الكالج ذعر .. وما ان يعلم انني قد افقت من  
غيبوتي حتى تصدر عنه بعض كلمات السباب وينصرف .

اشرت الى اصدقائي محييا ، فظهر على وجوههم الاطمئنان . ارحيت  
اجفاني طالبا الناس فكم كنت مكدودا متعبا ، ودارت في ذهني وجوه ..  
مصرية وروسية .. واوروبية .. وسورية .. وصينية .. بينها محمد  
عثمان .. وفريد حداد .. يعيشان .. يصفقان .. والوحوش .. ورق  
.. وتنتبه اذني على شقشقة عصفور ، واتذكر فاسال عن صاحبي :

– ازاي وليم ؟

– ويرد الرفاق : « بخير ارتاح انت »

- واستسلمت للنوم . (١)

---

(١) الحق ايضا ان اللجنة المركزية داخل الاوردي تتحمل قدرا كبيرا من المسؤولية فيما يتعلق بموضوع الهتاف لعبدالناصر وعمليات التعذيب التي رافقتسه ، فحينما بدأ الهتاف لعبد الناصر امتنعت اللجنة المركزية عن ترديد هذا الهتاف ، ولكن مأمور السجن هددهم بأنهم سيرسلون الى السجن الحربي اذا لم يهتفوا لعبد الناصر، فانخذت اللجنة المركزية قرارا بالنسبة لنفسها بترديد الهتاف لعبدالناصر ، واما بالنسبة لبقية اعضاء الحزب فقد تركت لهم حراسة الهتاف او عدم الهتاف !!



## الفصل العاشر

### ٨ يناير

العيد الثاني لتأسيس الحزب الشيوعي المصري ، العبارة التي كانت تتكرر طوال النهار « كل عام وانت بخير » كان الرفاق يرددونها فيما بينهم حينما استيقظنا في صباح الثامن من يناير ١٩٦٠ ، وحينما خرجنا الى الجبل ، كان الرفاق من العنابر المختلفة يتحينون الفرص لكي يحيي بعضهم البعض بمناسبة العيد الثاني لتأسيس الحزب .

كان الرفاق يتقابلون ، وهم يعدون ، حاملين المقاطف المليئة بالتراب ، فيهمس الواحد منهم في اذن الاخر « كل سنة وانت طيب » ولم تنقض ساعات العمل في الجبل الا وكان كل رفيق قد هنا الجميع تقريبا بهذا العيد .

وفي المساء بعد ان تناولنا طعام العشاء كان المسئول السياسي المعنبر يدعونا مجموعة مجموعة ، فنتكلم حوله تحت البطاطين ، وينقل الينا تحية اللجنة المركزية وتحية اللجنة القيادية للمعنبر ثم نشد بصوت خافت :

الحزب الشيوعي المصري  
نبنيه بهزيمتنا  
وندرسه بالاساس خرسانه  
من وحدة ارادتنا .  
يا مرحبا من العمال  
يا مرحبا من الفلاح  
يا ورد اشقا يفتح  
في وادي بدرته كفاح  
يا نجمة يا بحر نجوم

من بين الفيوم لمناح  
وطريق النضال جمعنا  
والثورة في ايدينا سلاح .

ومضى النشيد الذي ولدت كلماته في سجن القلعة بعد حملة يناير،  
فيتحدث في اعتزاز عن صوت الرفيق خروشوف الذي ارتفع من اعلى منبر  
للأممية ، من المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، مدافعا  
عن الشيوعيين العرب ، مفندا الادعاءات التي تروجها الاوساط الرجعية  
العربية عنهم ، مشيدا بهم كأصلب المناضلين ضد الاستعمار :

أممية تضامن قوة  
حرية ونصر أكيد  
خروشوف الرفيق اتكلم  
من موسكو ومد الايد ..  
ويخاطب النشيد شعوب البلاد العربية التي تخوض معنا نفس المعركة  
من اجل تحرير كامل من اجل ديمقراطية كاملة .. من اجل سلام دائم ..  
يا شعوب العرب يا شعوبنا  
صحوة وبعدها ما ننام  
حرية ولا استبداد  
ولا تضليلنا بالاوهام  
يا حزب العراق بنمسي  
ونصبح يا حزب الشام .  
كانت مشاعرنا في تلك الليلة تتجه الى رفاقنا الابطال في الخسارج  
الذين يقومون بواجبهم ، يعملون في اشق الظروف ، ولكن نضالهم هو الامل  
الذي يحطم اسوار الظلام التي يقيمونها بيننا وبين الامل والثقة في  
المستقبل .

## الفصل الحادي عشر

### ٢٩ يناير

لقد ولد حزبنا في المعركة ضد عدوان المستعمرين على بلادنا ، وولدت سياسته الطبقيّة في المعركة ضد عدوان البورجوازية الناصرية على شعبنا وعلى الشعوب العربية ، ضد حملتها على الشيوعية والحريات الديمقراطية، ضد الإرهاب الناصري خارج الاسوار وداخلها .

وتعمد الميلاد الطبقي لحزبنا بالدم ، فسقط منه محمد عثمان ،مصطفى شوقي البهناوي ، وفريد حداد ، عبدالتواب جبريل ، كلهم سقطوا بعد تعذيب وحشي من اجل ان ينكسوا راية حزبنا فرفضوا واختاروا الموت بدبلا .

وفي ٢٩ يناير سقط الشهيد الخامس المناضل العمالي القائد علي متولي الديب .

في الشهر الثاني لوجودنا بالاوردي اصيب بمرض الدوسنتاريا الحادة وقد ازدادت حدتها حتى غدا ينزف الدم ، وكلما شكا للثعبان مأمور السجن ابتسم هذا في تشف وامر بان ينضم علي الديب الى طوابير « الرياضة » المهلكة وان يخرج للعمل الشاق في محاجر البازلت .

كان الاغماء يعاوده فيامر الثعبان بان يلقي على وجهه بالماء حتى يفيق ويعاود العمل .

والم به الهزال حتى بانث عظامه وضلوعه من تحت جلده ، وقد غدا شغافا لم تعد قدماه تقويان على حمله وبصر الثعبان على ان يشارك في طوابير الرياضة . يراه يلهث ويتمثر اثناء الجري ، فيامر احد جنوده ان « يشجعه » على المشي ببعض العصي على ظهره .

كان علي الديب يطالبه بالعلاج، فيرد عليه، « علاج ايه .. احنا عاوزين

نموتكم » ويامر بابتسامة ساخرة جنديا ضخم الجثة ، ان يضرب الرفيق وهو يقول « ادبله العلاج يا عبدالسلام » .

وسقط علي متولي الديب .. لم يعد قادرا على رفع راسه من الارض حيث يرقد . وحملوه الي حجرة يسمونها « حجرة الملاحظة » .  
لم يكن المقصود بتلك الحجرة ان يحظى من يوضع فيها بعلاج او راحة، وانما لكي يستطيعوا اخفاء معالم جريماتهم ازاء من يموت فيها بعيدا عن اعين الرفاق .. وهذا ما حدث ..

فحينما بدأ علي الديب يلفظ انفاسه الاخيرة البسوه ملابسه الخاصة وحملوه حملا الي سيارة كي تنقله الي احدى المستشفيات حتى يموت هناك وبذلك يبعدونه عن الوردية ، فلا يلتفتون اليه الا انظار من جانب ، ومن جانب اخر يسجلون لانفسهم انهم قد اهتموا بالمريض فنقلوه الي مكان يعالج فيه .  
ولكن علي الديب احبط خطتهم فلفظ اخر انفاسه ولم تكن السيارة قد بدأت تتحرك من امام السجن .

ومرة اخرى يخون الدكتور احمد كمال طيبب مصلحة السجنون القسم الذي اداه باحترام شرف المهنة، فيزييف لادارة السجن تذاكر طبية متعددة بتواريخ مختلفة لكي تثبت انها قد قدمت للشهيد العلاج اللازم .

لقد خرج علي متولي الديب من قرينته ( منطى ) من مديرية القليوبية ليعمل في مصانع الاليات بشبرا الخيمة ، حيث تلقى تدريبه كمناضل عمالي فمن هذه المنطقة تخرج معظم القادة العماليون .. ولم يكد علي الديب يشرف على العشرين حتى كان قائدا عماليا في شبرا الخيمة ، وقائدا لجماهير الفلاحين في قرينته ، وما جاورها من القرى القريبة ..

لقد سقط الشهيد وهو في مقتبل العمر في الربيع الثامن والعشرين من حياته التي قضاها حياة نضال ومواقف فذة اكسبته ثقة عمال شبرا الخيمة فكانوا دائما ينتخبونه عضوا بمجلس ادارة نقابتهم . وفي المساء، وفي كل مساء من التاسع والعشرين من يناير يرتفع اللحن الحزين الحزين  
بفني حياة الرفيق :

خمس عصافير بتصوى م الاسى والجوع  
وجنبهم امهم تنعي بصوت مبجوح  
على عش هذه حنش أزرق بناب مفتوح  
يا قلب ابكي ما دام الدمع جف وراح  
خامس شهيد اتقتل في قبضة السفاح

علي بن متولي كان عامل وابوه فلاح  
والثار بتاعه ينادينا مسا وصباح  
ان كان علي مات حيطلع ميت علي غيره  
ودمه ليهم علم عالثورة تعبيره  
والوحش بكرة يطبل فوق غطا زيره  
واللي ييفحت مصيره يترمي في بيره  
يا نجمة الفجر غيبي لاجل يجي الصباح  
ونوره يملا حياتنا والظلام ينزاح  
وكفاية تحت المظالم كل مصري ناح  
تسع سنين والبلد متكتفة بسلاح  
شهداؤنا نار دمكم شعلة لثورتكم  
شعوب كثيرة بتتغنى بسيرتكم  
حانيني قلمة بها نخلد بطولتكم  
بحياة سعيدة نقدمها لاولادكم . .



الجزء الثالث

خلف جدار الرمل

## الفصل الأول

### الانسان في التجربة

منتصف سبتمبر ، ومعتقل الفيوم ينتفض بالاناشيد والهتاف ، والصمت ينطلق والكلمة المخنوقة تدوي ، وجدران المعتقل تهتز ، والاسلاك الشائكة والجنود وضباط المعتقل يواجهون الدفعة المرحلة الى منفى الواحات ، اربصون مناظلاتصورت المباحث العامة انها بابعادهم الى الواحات تستطيع ان تسيطر على معتقل الفيوم . . وفي جنزير طويل يسمى بالحجلة قيد الاربعون ليشحنوا في لوريات الى بنى سويف . ومنها في عربة المساجين التي تشبه عربة المواشي الى الواحات .

وبعد رحلة قاسية لمدة يومين ، كانت الصحراء قد غيبت في جوفها تلك الدفعة التي انضمت الى دفعة سابقة قد رحلت ايضا من الفيوم ، بالإضافة الى بقية من أعتقلوا في اول يناير عام ١٩٥٤ ، بعد ان رحل منهم ٦٤ الى الاسكندرية للمحاكمة .

سارت المعاملة من سيء الى اسوأ . . الفطور قطعة ضئيلة للغاية من الجبن ( القريش ) الخالي من الدسم ، في غالب الاحيان تكون متحجرة في صلابة الحجر الجيري ، و احيانا تكون درجة ملوحتها من التركيز بحيث تجعل مذاقها لا يطاق ، والغداء عدس او فول مليء بالسوس والعشاء سائل تعافى النفس يسمونه الشورية ، كان الحساء النازي اكثر منها كرما بمراحل ، وقطعة من الجلد تسمى لحما من قبل الرسميات ، العلاج يكاد ينعدم ، لا جرائد ولا كتب ولا اذاعة فكلها محظورات في المعتقلات .

بدات عمليات التضييق تشدد ، فالطابور ( الفسحة ) لا بد وان يسير بنظام معين بحيث لا يسمح للمعتقلين بالتجول في فناء السجن كما يريدون ، كما كانوا يفعلون من قبل ، والنور في الزنازين يطفأ مبكرا . . ثم يلقى



تماما ، وعمليات التفتيش تتوالى ، ويمر مع احد المعتقلين علسى بعض الاوراق ، فيسحب الى الخارج ويمزق جسده بالعصي وفروع النخيل ، ويتكرر نفس الحادث مع معتقل اخر في اليوم التالي ، و« عبدالعال سلومة » ضابط العنبر رقم (١) الذي يقطنه المعتقلون، لا يكف عن التهديد وتتوالى عمليات التكدير ، ويلتقط معتقل ثالث لتجري معه نفس عملية التعذيب بعد حلق شعر راسه ..

ويفكر المعتقلون في موقف الدفاع عن وجودهم الانساني .. والادبي .. ولكن وهم ما زالوا يعدون لعملية المقاومة .. اذا بالسجن تدب فيه حركة مفاجئة ، فلقد وصل اللواء اسماعيل همت وفرقته الدموية .

لم يكن قد انقضى على « حفلات الاستقبال » في اوردي ابي زعبل ثلاثة ايام حينما وصل همت الى الواحات، طلب ضباط السجن من المعتقلين ان يغادروا زنابنهم في عنبر (١) ومعهم كل ما يخصهم من ملابس وامتعة . لم يكن احد يعرف حقيقة ما يدور ، ولم يكن احد يدري حقيقة ما حدث في ابي زعبل . صدرت الاوامر للمعتقلين ان يجلسوا القرفصاء امام العنبر، وان ينكسوا رؤوسهم الى الارض والا فالويل لهم ، واحاط بهم من كل جانب جنود وحراس السجن ومعهم العصي الفليضة ، ورفع احد المعتقلين راسه ليرى ما حوله ، فاندفع نحوه الصاغ صلاح طه ليركله باحذاء في راسه ثم امر المعتقلين ان يقفوا بنظام وان يتحركوا بالخطوة السريعة الى عنبر (٢) .

كان صمنا غربيا ورهبيا ذلك الذي خيم على السجن ، لم تكن تسمع في ذلك الفراغ سوى الاوامر والتهديدات ، وحشروا المعتقلين كل ٢٧ او ثلاثين في زنزانة واحدة في عنبر (٢) .

كان فخري لبيب ، هو الذي اختاروه في ذلك اليوم لكي يصبوا عليه جام غضبهم واو الى حد الموت ، فهم لا ينسون له دوره في قيادة عمليات المقاومة في الفيوم . انه يحكى لنا قصة ذلك اليوم .

« لم تكن ندري حقيقة ما سيحل بنا حتى تلك اللحظة ، لقد اخذنا على غره ، وبصورة لم نعهدها من قبل .

لم تكن ندري اهي محاولة لفرض نظام سكن معين علينا في داخل العنبر ، ام هي بداية « تكديرة » معينة ، ام هي عودة الى ما كنا عليه في الفيوم ، وكان تنظيم مقاومة لما يمكن ان ينم امر مستحيل ، فليست هناك امكانية التفاهم مع بقية المعتقلين او الاتفاق معهم على خطة معينة ، بالاضافة الى ان خطة العدو كانت مجهولة لنا .

وبدأت اصوات الجنود في الخارج تجتذب اسماعنا ، فهناك اقدم ثقيلة تجري خلف الحائط .. اوامر بالاستعداد .. استعد .. كتفا سلاح .. وبدا الامر وكان هناك من سينفذ فيه حكم الاعدام رميا بالرصاص .. بدانا نستشعر خطرا هائلا يحيط بنا ، وان لم نستطع ان نحدد بمد على اي صورة سيكون ..

سمعنا باب الزنزانة المجاورة يفتح ، وحركة غير عادية ، والحارس يطلب ستة من المعتقلين ، وعادت الاوامر خلف الجدران ، وصوت يملو فوق تحفز الحراس ومصيهم القاتلة :  
- اجري ..

ثم سمعنا اصوات اقدم تهول ، ثم تكبو ، ثم صرخات حادة والامر « اجري » ينطلق في ذلك الزحام ، والشتائم الوقحة القلدة ، تدوي في الفضاء خلف جدران العنبر .

وادركنا ان مجزرة تمد لنا ، وعلينا ان نواجهها باسرع ما يمكن وفي حدود ما يمكن .

قسمنا انفسنا في حجرتنا الى دفعات على التوالي ، وقررنا ان نواجه الموقف كما ينبغي على مناضل مصري ان يواجهه، علينا ان نمزق ما يسعون اليه من اذلال .

توالت الدفعات ، وفتحت زنزانتنا ، وتقدمت وخمسة رفاق ، وهمس الجندي الحارس لنا - اذا اسرعتم في الجري عجز الجنود عن اللحاق بكم . ولمعت في راسي صورة كلاب المطاردة والفريسة . وصورة ذلك النوع من النزال في الغابة ان ينطلق رجل وخلفه اخر ، ولا بد ان يفادر الغابة منهما واحد فقط .

وحتى تلك اللحظة لم تكن ندرك بالدقة صورة ما يحدث خارج الجدران ومن بعيد رأيت رفاقا يجرون ، عرايا الاجساد ، حليقي الرؤوس ، حتى لم استطع تبيين واحد منهم . ومن خلفي صرخ جندي :  
- اجري ..

وبصورة آلية انطلقنا نجري .. رأيت نفسي بين صفيين من الجنود مزودين بمصي الجريد الفليضة ، والضرب ينهال علينا ومن خلفنا صرخات الجنود وشتائمهم ، صرخات فريق المطاردة .. الى اين نقاد ؟ والى اي مصير ..؟

وسقطت عصا غليظة على ظهري ، ولكنني لم اتوقف ثم ثانية على

ساقني وترنحت قليلا واذا بثائثة على عنقي ، تجعل اقدامي تثقل حركتها ،  
وتفوص في الرمال . وانهال علي الضرب والشتائم بصورة وحشية ، لم اكن  
اشعر باي شيء . كابوس نفيل . رهيب . وسؤال يدوي في راسي . . . هل  
هؤلاء مصريون . . ايدرك هؤلاء اننا مثلهم مصريون . . ؟  
وقمت اتمثر ، يقودني الطريق المحدود بالقتلة الى خارج سور السجن .  
وهناك كانت صرخات تدوي .

– وشك في الارض .

– اقلع هدومك .

– اركع للحلاقة .

وتلفت حولي ، لقد بدأت ادرك الموقف في وضوح ، وابهال الجندي  
بركلاته علي وسقطت على الارض ، ولكن لم اعبأ بشيء ، تفحصت الوجوه  
القائمة ، كل الوجوه ، وصرخات الجندي تدوي ، وحذاؤه لا تكف عن تمزيق  
ضلوعي ، كان اسمه « متي » ذلك الوحش الذي يرتدي ثياب جندي ، والذي  
تولاني بكل ذلك الضرب والركل والسباب . . انه رجل لا ضمير له شارك  
في مذبحه ليمان طره ، انه نفر عادي ، لا يحمل ذراعه « شريطة » واحدة ،  
وهو لا يتورع عن قتل اي انسان اذا كان ذلك يأتيه بتلك الشريطة .

واعمل الحلاق يده في راسي ، كان علي ان اخلع ملابسي كلها وان  
احلق رأسي وان اتلقى ركلات « متي » في وجهي وضلوعي . .  
وسألني جنود من خلفي .

– اسمك ايه ؟

– فخري لبيب

وعاد يسأل

– انت شيوعي

فأجبت في اصرار

– ايوه . . شيوعي . .

واذا بقبضات مثقلة باطنان من الحقد والكراهية ، تنهال علي رأسي  
وعنقي . . . واعمل الجندي حذاءه في ظهري بكل ما يملك من قوة، ووجدت  
نفسي الهث من فرط الاجهاد وانتهى الحلاق من عمله ، وكنت قد غدوت  
عاريا كما ولدتني امي ، وقبض الجندي على كتفي وقادني الى حيث جلس  
اسماعيل همت وقال :

– ده فخري لبيب يا افندم ، بيقول انه شيوعي .

وسألني اللواء همت في تراخ انثوي .

- انت شيوعي .

وعدت اجيب في اصرار .

- ايوه شيوعي .

فصرخ في الجنود ان احموه الى العروسة ، ووجدت نفسي مصلوبا  
على العروسة ، قدمي وذراعي مشدودتان بجبال الى ذلك الصليب . وانها  
جنديان من كلا جانبي على ظهري بسوط ذي شعب متعددة كثيرة العقد .

شعرت بلهيب محرق يجتاح ظهري ، والضرب مستمر بلا توقف ،

وتقدم صلاح طه يسألني :-

- انت ايه

- انا مصري

وعاد يسأل

- مصري شيوعي ؟

واجبته في اصرار

- ايوه

وجن جنون همت فصاح بالجنديين ان يجيدا الضرب ، وانها  
السياط بلا توقف ، وعاد صلاح طه يقول :

- لسه شيوعي ؟

وصرخت في وجهه

- ابن اجيبك ، فلست محكمة ولا نيابة حتى توجه الي هذا السؤال  
والتفت الى الخلف .. كان هنالك مأمور السجن الصاغ فريد شنيشن ،  
واللواء اسماعيل همت ووكيل محافظة الخارجة وقتلت بأعلى ما يملك صوتي  
من قوة .

- انا احتج على تلك الجزرة ، واحملك يا مأمور السجن المسئولة  
كاملة في كل ما يحدث الان .

وارتفعت الصرخات « احرص » وانها الشتامم البذيئة ...  
ومزق السوط شفتي اذ انها على فمي ، واندفع جندي ببندقيته  
الي ، وادرت وجهي لاتفادي تهشمه ، وشعرت بدبشك البندقية يمزق عنقي  
.. واخذت الاوامر تتوالى .

اضرب كويس ...

والسوطان يصفران في الهواء واحدا تلو الاخر ثم يستقران على

ظهري .

وتقدم صلاح طه مرة أخرى ، وهو يصرخ في انفعال .  
- بتحتج .. بتحمل المسؤولية ؟

وصرخت في وجهه

يا قتلة ، يا فاقدى الإنسانية ، يا سفاحين ..

ولم اتوقف حتى توقف السوطان ، ربما سبعون سوطا وربما اكثر ..

مزقت ظهري شر ممزق ..

وانزلوني من العروسة التي كنت مصلوبا عليها . جسدي يدمي ، وانا عاجز عن الحركة وما ان خطوت خطوتين بعيدا عن ذلك الصليب ، حتى تقدم نحوي صلاح طه مرة أخرى ، وانهاى على رأسي بعصا غليظة وهو يصرخ بحنق « يحتج » « بتحتج » .

كان هذا ابذانا بجولة جديدة ، اذ سرعان ما احاط الجنود بي، وانهاى علي ضربا بطريقة تعرف لديهم باسم « الكفتة » .. انا في الوسط والعصي ترتفع لتدك جسدي ، حتى سقطت .. وارتفع امر .  
انهض - اجري ...

واشار صلاح طه نحو الاسلاك الشائكة ، وهي الحدود النهائية للمنطقة الحرام حول السجن وادركت انهم يريدون بي واحدة من اثنين ، اما ان يطلقوا علي النار حين اصل الى السلك باعتباري احاول الهرب ، وانهم يريدون ان اسقط بين الاسلاك الشائكة فيتمزق جسدي نهائيا فيها .. ولم اتحرك ، ... وعاد الضرب من جديد .. ولكرات الجنود « اجري ، اجري » ، وسرت في اتجاه اخر ، ولكنني سقطت ، لم اكن بقادر على الحركة ولا السير ، لقد تمزق جسدي تماما ..

واذا الجند ينهالون علي بعصيمهم الفليظة ، ثم اوقفوني ، ودفعوني امامهم الى حيث المنصة التي جلس عليها همت وشنیشن ، وكان وكيل المحافظة قد وقف ، ومد يده وبها عصى غليظة ، وكذلك فعل صلاح طه .. كانا في انتظاري .. وادركت انهم قد قرروا قتلي ، فقررت ان اموت وانا واقف على قدمي ، وانا اواجههم جميعا ، وجمعت كل ما تبقى في من حياة، وركزتها في ساقي ، وجمعت كل ما تبقى لي من ارادة وركزتها في وجهي . وعاد الضرب بطريقة « الكفتة » ، ووقفت اقاوم الانهيار الجسدي الذي بدأ يتسرب الى كل جزء من كياني ، ولم اعد احس بشيء .. افقت لاجد نفسي على الارض ، وقطرات من الماء المالح تتساقط من

وجهي الى فمي ..

اخبرني الرفاق فيما بعد اني سقطت مغشيا عليّ ، وكان الجندي  
يصرخون ، انه يتصنع الاعماء وينهالون عليّ بعصيتهم وركلاتهم ..  
واوقفوني على قدمي وشعرت اني عاجز تماما عن التحكم في عضلة  
واحدة من جسدي ، والقوا الي بملابس السجن التي صارت ملابسي منذ  
ذلك الحين ، وامر الضابط جنديا كي يمسك بذراعي حتى اصل الي حجرتي  
مرة اخرى في عنبر (1) ، حيث كان يعود المعتقلون بعد ذلك انشوط .. كان  
جسدي داميا ممزقا ، وقد تحول الي كتلة زرقاء داكنة ، وكان الجندي  
يوقفني وانا اسير الي جواره ، ليوجه الي ركلة عنيفة او ينهال عليّ بالعصا  
الغليظة التي يحملها في يده .

وسألت الجندي معانبا ، اما زال في جسدي جزء يحتاج الي جهده  
حتى يتلون بالازرق الدامي ؟

وبدا الرجل وكأنه يفيق من دوامة عاتية ، ونادى عليه وكيل السجن  
ان يكف فتركني وعاد .. تحاملت على نفسي حتى وصلت الي العنبر، وهناك  
تدافع الرفاق حولي ، كنت الهث بعنف واحس نفسي عاجزا عن الحركة  
تماما فالقيت بملابسي التي كنت احملها ، وسترت عورتي بيدي ، وساندني  
الرفاق حتى وصلت الي زنزانتني ، وضابط العنبر عبد العال سلومه يصرخ  
فيهم ان يتفرقوا .

سقطت على الارض في ركن الزنزانة ، ولاول مرة بدأت اشعر ان  
ذراعي اليسرى لم تكن على ما يرام ، وعندما نظرت اليها كانت متورمة بصورة  
غريبة ، ومن الصعب ان احركها بل حتى لم اكذ اشعر بوجودها ، .. لقد  
تحطمت وانا ادافع عن نفسي واقاوم بينما العصي تنهال علي ..

وبعد قليل حضر ضباط السجن ومعهم المأمور .. وقال لي عبد العال  
سلومه ضابط العنبر وكان يعرفني جيدا من قبل :

– علشان تبطل لماضه .

وقلت له :

– ابدا – ان ذراعي المكسور سيظل يذكرني .. حتى لا ننسى .. لا  
ننسى مطلقا طبيعة من سيحكمون بلادنا .

كان المعتقلون جميعا عرايا ، او بهذه الملابس الغريبة المزرية ، حليقي  
الرؤوس حفاة الاقدام ، اجسادهم دامية زرقاء داكنة .  
وفي المساء عندما اغلقت الزنازين كنت تستطيع ان تسمع صوت

الضحكات .. ضحكات الرفاق وهم يسخرون من هذا العدو الفاشم الجاهل الذي لن يفهم أبداً . ولن يدرك على الإطلاق أي قوة كامنة في هؤلاء الرجال، انها قوة ٢٤ مليون .. تخزن طاقة ثورية منذ اجيال .. ولا جبال قادمة .

في صباح اليوم التالي نودي على المعتقلين جميعا ، لينتظموا في تنظيمات رباعية استعدادا للخروج للعمل في الصحراء ، طلب اللواء همت من الضابط عبد العال سلومه ان يوقع في سجل بوابة السجن على خروج المعتقلين للعمل ، ولكن الضابط رفض وقال للمأمور مبررا رفضه .

« انني اعرف هذا الرجل ونزواته المجنونة ، ولا اريد ان اتحمل انا مسئولية اي عمل جنوني يقوم به ، ربما اطلق عليهم النار في الخارج ... مبيوق هو ان اراد » .

وجبن همت عن التوقيع مما يبين انه كان يدبر امرا ، وامر المأمور واحدا من قوة حراسة السجن برتبة جاويش ان يوقع في السجل ، وسار المعتقلون حفاة اميالا على الشوك والحصي، وظلوا يعملون حتى الساعة الثانية حينما تحول الشمس الى قرص من الجحيم يلهب كل شيء ، والعصي تنهال على اجسادهم ، والرمال الملتهية تشوي اقدامهم ، والافاعي كامنة في مواطء كل قدم .. عشرات منها قتلت قبل ان تمتد بانيابها الى لحم احد الرفاق بشوان » ..

## الفصل الثاني

### الورقة .. والقلم

كان قائد المعتقل قد اعلن ان كل المنوعات يمكنه التفاوضي عنها . حتى لو كانت مخدرات ، شيء واحد لا يمكنه احتماله او السماح به او السماع عنه ، انه الورقة والقلم . ولكننا كنا قد اعلنا في كل مكان اعتقلنا فيه ان الورقة والقلم شيء لا ينفصل عن حياتنا اليومية ، وانهما كالماء والهواء تماما .

واول العام الجديد يقترب ، عام ١٩٦٠ ، والمعتقلون يعدون لحفلات في الحجرات حفلات كلها ذكريات ، اذ ليس هنالك ما يضيفي على اليوم بهاء العيد ورونقه ، ووصلتنا سرا مجموعة من الرسائل من عائلاتنا في الخارج ، وتقرر ان تقدم الى اصحابها من الرفاق والاصدقاء في العيد ، كنا قد احتفظنا بها في مكان لا يعرفه احد ، وتكبدنا في هذا اليوم مغامرة شديدة من اجل فرحة تطل على الزنازين من دنيا الشوارع وبسمات الاطفال .

ووصلت الرسائل ووزعت على اصحابها ، وكان الوقت ظهرا ، وحركة غريبة غير معتادة في العنبر ، ونوافذ الدورات تفلق بالمسامير ، وارتبنا في الامر ، ان الخطابات قد هربت من هذه النوافذ . ولكن احدا لا يعلم بهذا الامر ، بل احدا لا يعلم بالخطابات سوى من استلموها ، وبنطشي العنبر، وهو مسجون عادي ، قبض عليه في تهمة خلقية وكان عمله في الخارج جندي مباحث ، يسرع الى العنبر ويسال في لهفة مفتعلة، لقد عثروا على الاوراق .

ولكن الخطابات مع اصحابها ، وقد اعدمتها فوراً ، فمن اين الاوراق ؟ ... ان احدا لم يعثر على اي اوراق بل ان العنبر قد نظفناه تماما ، ولم نعد نستخدمه في هذه الاغراض .

كان من الواضح ان قائد العنبر قد علم بامر الخطابات ، وادرك انه لن يصل اليها وانه يريد عمل شيء ما .



والمساء يقترب ثقيلًا ، ونحن قد أرسلنا وفدا من الرفاق المعتقلين يهتفون قائد المعتقل بالعام الجديد ، وينتهزونها فرصة للحديث في حياتنا وظروف التغذية السيئة والسخرة التي نعيشها .

والزنازين قد اغلقت علينا ، والصمت يرين على العنبر . ومن بعيد كصدى لشهرين مضيا ، سمعنا فرقات ترن في ارجاء المعتقل ، هنالك من يضرب ، من يعتدى عليه ، وسؤال حائر بين الرفاق ، ماذا يحدث في الخارج ، ومن اين هذا الصوت الكريه ؟ .

واعلن واحد من الرفاق ، انهم يعتدون على الرفاق المندوبين . . وفجأة . . زعق شاويش العنبر - انتباه ؟ ومعنى ذلك ان تقف ووجوهنا الى الحائط . ثم سمعنا صوت قائد المعتقل يسمب ويشتم ويضرب علينا بلسانه كل القاذورات التي يعاقب عليها اسط عرف وتقليد في بلادنا . وسمعنا زلزانه تفتح ، ثم صوت ضربات مكتومة ، واستمر الضرب ، ولم تصدر صرخة الم واحدة من الرفاق وزلزانه تفتح ثم تغلق وهكذا .

لقد كان الجنود يضربون الرفاق ووجوههم الى الحائط ، كانوا يضربون في اماكن محددة ، يضربون الرؤوس بالحائط ، ويرفعون الملابس حتى يكون الضرب مباشرا فوق الكلي ، ومن يسقط على الارض ينهالون عليه بالاحذية الفليظة ، وتعب الجنود من استخدام ايديهم واحذيتهم . وكانت العصي الفليظة في الانتظار ، وهكذا كان نصيب الزنازين الاخيرة مجزرة بالشوم داخل جدران الزنزانه .

وفي هذا اليوم كانت الاصابات افدح من ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٩ ، لقد كسرت يد المناضل سيد عبدالله وكان واحدا من المندوبين لدى الادارة ، ولطخت الحوائط بدماء الرفاق ، وكست وجوههم جص الحوائط مختلطا بدمائهم .

ران الصمت بعد ذلك ، وطلبنا ان تقابل ضابط العنبر . وفي حجرته ، اعلنا احتجاجنا الصارخ على هذه المعاملة البربرية ، ووصل قائد المعتقل وكررنا احتجاجنا مرة اخرى واعلنا اننا نرفض تماما هذا الاسلوب ، واعلن قائد المعتقل انه قد عثر على اوراق وانه لا بد وان يأخذ الاجراءات اللازمة ، وقلنا ان هذه الاجراءات لا يدخل في اطارها تلك الاعمال البربرية ، وان اي اوراق تعثر عليها الادارة فبيننا وبينها النيابة ، وكل الاجراءات القانونية . .

واعلن قائد المعتقل ان ما حدث اليوم انما هو ثار شخصي ، لقد طلب

منا ان لا نحتفظ بأية اوراق ، ولكننا خدعناه واحتفظنا باوراق سياسية، وقد اصاب ذلك كرامته ولذلك قام بهذه العملية لحسابه الخاص، وانها قد انتهت بانتهاء الليلة .

وفي الصباح كانت هنالك عمليات من التنكيل . فقد اوكل امر العنبر الى سجان مختل القوى العقلية ، يعيث الزهري بجهازه العصبي . كانت الحجرات تفتح من اجل دورة المياه . ثم يندفع المعتاقون جريا الى الدورات وما ان ان يلقوا الابواب عليهم ، حتى يصرخ هذا المنسوه يطالبهم بالخروج . ثم ينقض على الدورات ويركل الرفاق وينتزعهم الى الخارج ، وفرقة من الجنود في الانتظار ومن يحتج على هذا العمل يوسعوه ضربا وركلا .

والوقوف في الزنازين طوال اليوم والوجوه الى الحائط . وعدنا نحتج من جديد ، واوقفت هذه العملية البربرية ، وعادت الامور الى ما كانت عليه . حياة المعتقلين رهن ثأر شخص او عملية خاصة لحساب قائد المعتقل لا حسيب ولا رقيب .

لقد كان قائد المعتقل يعلن بصوته الجهوري ، ان حروشوف لو حضر الى الواحات لجعله يتذوق طعم الشومة على قدميه ومؤخرته . وكان يفاخر بانه في مقدوره ان يضعنا امام مدفعه الرشاش ، ثم يحصدنا ، وسيغضب ذلك بعض الناس ، فلا بد وان تحاكمه الحكومة ، وتحكم عليه بالاعدام ، ثم تخفض الى الاشغال الشاقة المؤبدة ، بدعوى خلل قواه العقلية ، ثم يمر شهرا واثنين ويفرج عنه بعفو صحي ليعين مديرا لاحدى المؤسسات براتب شهري قدره مائتين من الجنيهات فقد ادى اجل خدمة للنظام .

بهذه العقلية ، كان قائد المعتقل يتفهم الناصرية ، ولم يكن الرجل مخطئا في هذا الفهم ، فالحياة في بلادنا تسير اليوم على هذا الخط . والقتلة وسفاكي دماء الشعب هم الذين ينعمون بكل شيء .. ان النظام باساليبه الفاشمة كانت تبعث في نفوس موظفيه ، كل رذائل البشرية ، كل الحقارات والدناءات .

فالذي ارشد على مكان الاوراق كان سجان العنبر ، ذلك الرجل الذي كان يغطي وجهه بابتسامة شفوقة ويلوك كلماته المعسولة ، ولكنه كان يفكر في ان نأمن اليه ونفقد حدرنا ، فيعثر على كنزه : بعض الاوراق ، تلك التي ستفتح له الطريق كي يثبت الشريطيين المعلقين على ذراعيه .

فيعمل بالمباحث العامة .

ان قائد المعتقل هذا قد غادر المعتقل ثم عاد اليه بعد عام . وكان مختلفا بصورة كبيرة ، حقيقة كان منبع ذلك هو نضالنا الذي لم يتوقف ، وتغير الظروف بالنسبة الينا ، ولكنه دون شك قد ساعدنا فيما بعد في ظروفنا في السجن بصورة طيبة .

وهذا السجن ، كان ايضا يؤدي لنا خدمات كثيرة ، كان يهرب لنا السجائر والمأكولات بدافع من انسانيته . كنا قد انتصرنا في معركتنا ضد الارهاب في السجن ، وهذا الانتصار ساعد الانسان من هؤلاء الناس هلى ان يتحرر من الخوف ، ويعود ليصبر عن نفسه .

## الفصل الثالث

### اللوز القاتل

التجويد جزء اصيل من عملية التصفية ، ان الطعام الذي لدينا لا يخرج عن كونه في الصباح قطعة صغيرة جدا من الجبن الخالي من اي دسم ، وفي كثير من الاحيان تكون رائحة هذا الجبن كريهة الى درجة غير محتملة ، او كمية من العسل الاسود وكثيرا ما تكون هذه الكمية الضئيلة ممزوجة بالسولار او قد تخمر واصبح لا يصلح للاكل ، والغداء كمية من الفول القدر الذي تسبح فيه كميات من السوس ، او كمية ضئيلة من العدس ، والعشاء شوربة خالية من الدسم ، وقطعة من الجلود يسمونها لحوم .

والمعل الشاق المضني ، في البرد الفارس او الحر البشع اللافح منذ السابعة صباحا حتى الثانية بعد الظهر ، من استصلاح اراض لا يمكن ان تصطلىح ، انها صخرة وحسب الارض تلد كل يوم الشوك والحيات . ثم تطهير مجاري المياه والقنوات وخزانات الري ، وتعميقها بايدينا حيث نخوض في الوحل والطين الى ما يقرب من الخصر .

والتدهور الصحي على اشده ، وامامنا والى جوارنا بعض الاراضي المستصلحة وينقض المعتقلون ، يقتلمون كل اخضر ، لياكلوا ، ليشبعوا ، من اي شيء من كل شيء ، لقد اكلوا البرسيم الحجازي ظنا منهم انه نبات الحلية ، وكانوا يقتاتون « الرجلة » من الارض يبحثون عنها بين الاشواك او على حوافي القنوات والجداول ، ويطن النخيل الصغير ، وما يعرف بالجمار والبلح الاخضر والمعروف باسم الرامخ ، او فجلة هنا او جرجيرة هناك ، حبة طيرها الهواء من الارض المنبسطة لتثبت في قلب الرمل والشوك ، اي شيء وكل شيء ، والجوع غول ، بشع ، ولا شبع .

والعدس والفول لشهور طوال قد اصاب الكثيرين بالامساك ، وشجر

الخروج قد نضجت ثماره وجفت ، فتناثرت حبوه على الارض بغلافها اللامع البراق . . ويتناول واحد من المعتقلين حبة ، ويلبس ثوب الطبيب ويعلن للرفاق ان هذه الحبوب تفيد في القضاء على الامساك ، ثم يأكل الحبة، وسرعان ما يعلن في غبطة ان طعم ثمار الخروج جميل ، انها تشبه اللوز ، ويتقاطر المعتقلون ، يملأون بطونهم الخاوية لقد عثروا على كنز ثمين للغذاء .

ويمضي الوقت والطابور يعود . وقبل ان يصل الى ابواب السجن ، يتقيأ واحد من الرفاق ويتلوه اخر . وسرعان ما اجتاح القيء المعتقلين واخذوا يتمايلون ويتساندون ويسرعون الخطى نحو المعتقل ، لقد كان المفص شديدا وكانت الالام هائلة تمزق احشاءهم .

وبسرعة شديدة اعدت حجرتين الى جانب حجرة المستشفى لاستقبال الرفاق الذين اصابهم التسمم ، وانتشر القيء والاسهال ، واشرف اربعة على الموت وقد ضمرت اجسادهم بصورة رهيبة ، فغارت عيونهم ، واصفرت وجوههم ، وصارت اجسامهم ذابلة هزيلة في ساعات قليلة ، وطوال الليل كانت عيون الرفاق سهرانه ترى اخوانهم الذين كانوا يسرون الى حالة سيئة . وحقن الجليكوز تعمل بلا هوادة .

ويستمر البعض اياما طويلة حتى يشفى من هذا الحادث المؤسف ، لقد فقدوا الكثير من بنيانهم الجسدي ، كم كان هذا الجوع غول بشع . ومن القاهرة ، من المباحث العامة ، مكتب مكافحة الشيوعية ، وصلت الى قائد المعتقل رسالة تقدير وتحية .

تهنئه لمهارته في ان يكون الجوع طريق السم والموت .  
تهنئه لمهارته في ان يحقق الهدف دون ان تكون بصمات القتل ظاهرة .

## الفصل الرابع

### جريمة الفكر

في الصباح الباكر ، تدوي صفارات الجنود ، والمعتقلون يلتهمون اي شيء وكل شيء فامامهم يوم عمل طويل ومضن وشاق، تعبيد طريق يمتد في قلب الاراضي المستصلحة واشاعة تملأ المكان ، ان عبدالناصر حاضرا الى الواحات ، ولا بد من انجاز الطريق في عجلة شديدة ، وضابط العنبر يصرخ من اعماقه ، وكلما صرخ ، يندفع الجنود الى الزنازين يستمعجون الرفاق .

والعربات المكشوفة تنتظر في الخارج، والمعتقلون يحشرون فيها حشرا، وتنطلق العربات في الصحراء ، في طريق غاية في الوعورة ، وبسرعة ينطلق السائق ، ان الضابط يلهبه فكل دقيقة تحتسب عليهم . والهواء البارد يصفر في اذاننا . وفي امتدادات الطريق وتعرجاته يتماسك المعتقلون بعنف. ويتحولون الى كتلة متماسكة . فالوت يسابق السيارة .

والكتلة المتماسكة خشية السقوط والصقيع تتماوج مع سرعة السيارة المجنونة والحياة بلا ثمن .

والعربة المندفعة تقف فجأة ، وكتلة الاجساد الادمية المصطكة من اعصار الهواء الشديد البرودة ، تصطدم بجدران السيارة ، ويتساقط منها المعتقلون وصرخات في وجه السائق ، حتى جنود الحراسة يصرخون ، ما هذا الجنون ، والضابط يأمر بمد المعتقلين ، وتشكيل « المصالب » - اي المجموعات - للعمل فورا .

لقد حشد كل المعتقلين ، حتى المرضى ، والمصابين بالاعاهات ، لكل عمل ، حمل الماء او ادوات الحفر واستصلاح الطريق .

ورغم الاوامر وصرخات الجنود وسيارة الجيب التي تحمل الضابط من

اول الطريق الى اخره ، فالعمل بطيء ، وبطيء عن عمد ، والمرضى قد اراحهم الرفاق بلا عمل ، ومن بعيد يبدو وكان الطريق يشتمل بحماس التمديد والتعبيد ، ولكن الثؤوس المرتفعة بعزم في الهواء ، كانت هينة لينة على الارض .

وتمر الايام ويلدوب خبر قدوم الرئيس . ففي القاهرة ازمة ، والازمة مع امريكا ، والاخبار تترى . الباخرة كليوباتره .

ومن وريقات الصحف التي نشر عليها في قمامة الإدارة والتي نحرس عليها حرصنا على كنز ثمين ، ومن الجرائد المهربة الى داخل السجن ، بداننا نحدد الحدث ، والموقف المترتب عليه ، وتقرر كتابة بيان للحكومة . ان تهديدا استعماريًا يواجه بلادنا والاستعمار يضغط لحماية ربيته اسرايل والعمل على مشروعية مرور سفنها تحت الحراب الاستعمارية الامريكية في قنال السويس . وكان موقف النظام في مواجهة هذه المعركة موقفا متخاذلا بحق . ولكن بلادنا كانت تتعرض لتهديد استعماري . وهكذا كتبنا بياننا لعبدالنصر :

« ان ضرب القوى الوطنية الديمقراطية ، قد اضعف قوى النضال الثوري التحريري في بلادنا ، وهذا العامل سيجعل الاستعمار يتمادى في تأمره على استقلال بلادنا ، اننا في هذه الظروف نمد ايدينا الى كل القوى الوطنية الديمقراطية من اجل وحدتها كما نمد ايدينا الى الحكومة كي تأخذ جانب الشعب في معركته ضد الاستعمار .

ان الموقف يستدعي بالضرورة اطلاق سراح المعتقلين فورا ووقف محاكمات الشيوعيين ، واطلاق حرية التنظيم التي بدونها ان تتكفل وتتوحد قوى الشعب المنظم في معركته ضد الاستعمار ، واطلاق حريته في التعبير التي بدونها لن تعيا القوى الجماهيرية لتتسلح بالوعي في المعركة ضد الاستعمار وقوى الرجعية » .

واوضح البيان ان فهمنا للوحدة الداخلية ، لا ينفصل عن الوحدة العربية وعن التضامن العربي الوثيق على اقل تقدير ، ولهذا فنحن نطالب بوقف الحملات المعادية للعراق ، يجب توحيد قوى النضال العربية التحررية في مواجهة الاستعمار . .

واوضح البيان في نهايته بجلاء ان استمرار وضعنا في السجنون والمعتقلات واستمرار حرمان شعبنا من حقها في التنظيم والتعبير انما يعطى الاستعماريين كل الفرص للانقضاض على بلادنا واستعادة مواقعهم

في قلب بلادنا .

وتقدم فخري ليبب وثلاثة من المعتقلين لكتابة هذا البيان باسم المعتقلين ، كما تقدم الرفاق الثقايون ليكتبوا الى اتحاد العمال العرب بنفس المعنى السابق .

وحاول الضابط ان يعدل من صيغة البيان على اساس تأييد عبدالناصر ولكن مقدمي البيان اوضحوا باسم الطبقة العاملة وجماهير الشعب اصحاب المعركة الاساسية مع الاستعمار . فاذا حدث تهديد لبلادنا فنحن ندعو الحكومة الى الوقوف الى جانب القوى الوطنية في هذه المعركة المعادية للاستعمار ، كما اعلنوا « اننا نرفض ان تملى علينا اية افكار ، وانه اذا لم يقبل البيان كما هو فلن نرسله » .

وارسل البيان الى عبدالناصر .

كما ارسل عدد من الديمقراطيين بيانات بهذا المعنى ايضا .

وفي المساء استدعاهم قائد المعتقل واعتدى على الاستاذ سعد اتانه ، سكرتير تحرير جريدة المساء ، لانه ذكر في بيانه ، انه في بحر الرمال الاصفر يحتجز عبد الناصر اشرف القوى الوطنية الديمقراطية في بلادنا . وكانت حجة القائد « انك مستقل فلماذا تكتب بلغة الشيوعيين » والجهالة العمياء قد حكمت افكار الموظفين الصغار في ادارة المعتقل ، انهم يعتقدون ان شعارات الديمقراطية والوطنية ، تعني الشيوعية ولا غير . كما اعتدى على الصحفي الاستاذ علي الشلفاني المحرر في جريدة المساء ايضا ، لان قائد المعتقل يرى في بيانه عدم الاحترام الكافي لرئيس الجمهورية .

وبالضرورة كان على البيان الذي ارسله الاربعة وكل البيانات ان تأخذ مجراها الى رئاسة الجمهورية من خلال مصلحة السجون ، ومرت الايام والاسباع ويوما ما علم الرفاق بحقيقة رهبة : لقد اصيب المسؤولون بالذعر والهلع ، وانطلقت نداءات الهاتف الى قائد المعتقل وصرخات اللواء اسماعيل همت ، كيف يوجد معتقلون يتكلمون في السياسة بعد كل الذي حدث معهم؟ وكيف يصل بهم الامر الى مخاطبة رئيس الحكومة بهذه اللهجة ؟ وكيف يتجاسرون على تقديم مطالب الحكومة وكأن بيدهم قوة فرض هذه المطالب ؟ وكيف يحملون الحكومة هذه المسؤولية ويقفون منها موقف المحاسب ؟

لقد كان اسماعيل همت يرى في ارسال هذا البيان تمزيقا لخطة القضاء على معنويات المعتقلين ، وتصفيتهم كمفكرين سياسيين وقادة لشعب هريق في النضال الوطني الديمقراطي . لم يكن هذا الرجل الامعة قادرا على



فهم هذا الحدث ، ولا راغبا في فهمه ، كان هنالك شيء واحد يشغل تفكيره ويذهله « انهم ما زالوا يفكرون في السياسة » ووصل الى الحل . واصدر اوامره . قتل الاربعة الذين كتبوا البيان الى رئيس الجمهورية والقيام بمجزرة عارمة ضد كل المعتقلين . ان القتل هو اقصر الطرق كي يكف المعتقلون عن التفكير و « التبجح » .

وجمع قائد المعتقل ضباط السجن ، وابلغهم التعليمات الجديدة ، ضرب الاربعة حتى الموت ، والقيام بغارة ساحقة على عنبر المعتقلين ، واعترض ضباط السجن على هذا الامر . انها مسئولية خطيرة ، واعلنوا انه اذا كان اسماعيل همت راغبا في تنفيذ هذا الامر فليحضر بنفسه لتنفيذه . انهم ما زالوا يذكرون ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٩ وتنصله من المسئولية في الاصابات التي وقعت بين المعتقلين .

واعلن ضابط عنبر المعتقلين : وهو البيوزباشي عبد العال سلومه انه لن ينفذ اوامر همت ، وانه ينفذ فقط اوامر المباحث العامة ، ولو اصدر العقيد حسن المصليحي له هذا الامر فسينفذه على الفور .

وحاول قائد المعتقل ان يصل الى حل وسط ، ان يستدعي ضابط العنبر الاربعة الذين وقعوا البيان الى خارج العنبر ، الى حجرة القائد ، ويترك له باقي التصرف ، ولكن ضابط العنبر رفض هذا ايضا ، واعلن ان الحكومة تود معرفة رأيهم السياسي وهو يعلم بهذا الامر ، وينفذه .

وحسم الامر عند هذه الحدود ، دون ان يدرك المعتقلون ماذا دار في الخفاء . فقط كان هنالك تشديد اكثر وصراخ اكثر . وعجزت الادارة ان تفعل اكثر من ذلك .

لقد اثار البيان حينذاك حماس كل المعتقلين والمسجونين ، حتى الجنود والحراس ، ودحض امام الجميع فرية الناصرية ، بان الشيوعيين عملاء ، لقد اظهر بجلاء من هم المدافعون بحق عن قضية الشعب ، من هم المناضلون بحق ضد الاستعمار .

وفي ذلك الجو ما كان بمقدور ادارة المعتقل ان تحقق ما تريد او بعض ما تريد ، من تكدير المعتقلين او اذلالهم .



# الجزء الرابع

## عاصفة على الاوردو

## الفصل الأول

### « القاتل يهرب »

مضى الان سبعة شهور على وجودنا في معسكر التعذيب بالاوردي :  
التعذيب اليومي مستمر ، والجرعات الاضافية من التعذيب مستمرة ،  
الشعبان يلف ويدور ، يدخل معركة هنا ومعركة هناك محاولا ارغام رفاق  
الحزب على الهتاف لعبد الناصر وفي كل مرة يصطدم برفاق يرحبون  
بالتعذيب ويرفضون الهتاف لجلادهم .

اعضاء المجموعة المنقسمة يحاولون الهرب من التعذيب ، فيخرج بعضهم  
ليبلغ مأمور السجن انهم يهتفون بحياة الرئيس ، وان اليساريين - اي  
الحزبيين - هم الذين لا يهتفون ، وادارة السجن لا تلقي لتوسلاتهم بالا ،  
انهم يهددون في العنابر بابلاغ الادارة عن اسماء الذين لا يهتفون لعبد  
الناصر ، فلا يقابلون الا بالازدراء .

ما زالت كلمات صاحب « بروميثيوس » محفورة في الذاكرة ، وهو  
يعاتبهم على هذه التهديدات : « ان الهتاف لعبد الناصر مسألة رأي وضمير ،  
ولا يمكن ان تفرضوا على الناس ما تأباه ضمائرهم . »

وظاهرة جديدة في بلادنا ما زالت تتكرر : ان الشيوعيين الذين امضوا  
مدة العقوبة التي حكم بها عليهم من المحاكم ، يأتون من سجن الواحات  
الخارجة الى ادارة المباحث العامة في القاهرة ، فتطالبهم بكتابة استنكار  
للشيوعية ، وتقديم سجل مكتوب عن تاريخ حياتهم واتصالاتهم السياسية ،  
ويرفضون ، فتأتي بهم الى الاوردي ، انها لا تكفي باعتقالهم بعد ان امضى  
الواحد منهم ثماني سنوات ، او عشر في منفى الواحات الخارجة بل تأتي  
بهم الى معسكر التعذيب في الاوردي ، عشرات منهم جاءوا ورتبت لهم الادارة  
استقبالات خاصة حافلة كثيرا ما كانوا يصلون في منتصف الليل ، ونستيقظ

من النوم على صوت الضرب المنهال عليهم وصياح الضابط والجنود وشتائمهم . . عريضة في منتصف الليل ، وكانت صدورنا تمتلئ اعتزازا ونحن نسمع رفاقنا ، برغم ذلك الاستقبال الوحشي ، يردون على الضباط سيابهم .  
ما زال صوت احد الرفاق يرن في آذاننا ، عندما جاؤوا به بعد منتصف الليل وكان على راء مستقبله اليوزباشي يونس مرعي فيصيح بالرفيق :  
« انت موش عارفني يا واد » ؟ فيرد عليه الرفيق متحديا : « عارفك . . ايه يعني ؟ ضابط بتلات نجوم ؟ » .

ويجن جنون يونس مرعي ويصيح: « ضابط يا ابن الكلب » ؟ ويرد الرفيق والضربات تنهال عليه : « انت اللي ابن ستين كلب » .  
كان عبد الناصر يرفع صوته محتجا على اعتقال الزعيم الكيني ( جوموكنيا ) بعد انقضاء مدة عقوبته ، في نفس الوجة الذي كان يأتي فيه بالشيوعيين بعد انقضاء مدد عقوباتهم الى معسكر التعذيب .

رغم كل ذلك الارهاب فالرفاق من داخل العنابر يعملون على رفع الروح المعنوية للمعتقلين ، والابقاء على نشاط الحياة السياسية والفكرية : محاضرات في السياسة والفلسفة والاقتصاد ، ومحاضرات في الآداب والفنون ، وسلسلة كاملة من المحاضرات عن تاريخ مصر السياسي والاقتصادي ، مقتطفات من الاداب العربية والانجليزية والفرنسية والروسية والصينية ، قصائد لشكسبير وبيرون وشيللي وت.س. اليوت وارجون والوار وابلو نيرودا ودراسات عنها ، نماذج من اندراما الانجليزية واليونانية . واستمع المعتقلون لاسطورتي بروميثيوس وسيزيف . . احتفل المعتقلون بكل المناسبات القومية والعالمية ، ودارت مناقشات مستفيضة حول الخط السياسي للحزب الذي صدر في مايو ١٩٥٩ والذي كان قد وصل اليها ونحن في معتقل العزب .

كان لكل عنبر مجلته الناطقة التي تجري فيها التعليقات السياسية والتعليقات الساخرة من سلوك الضباط والحراس وتقدم فيها مقالات في شتى الموضوعات .

بعثت اغانينا القومية ، لسيد درويش وعبيد الحامولي وصالح عبد الحي ، وقام البعض بتريده المواويل الريفية ، وقدم اسكتشات من مسرحنا المصري ، كما كان بعض الرفاق متخصصا في اعادة عرض الافلام السينمائية او المسرحيات او رواية بعض القصص المصرية او الاجنبية .  
لقد استمع المعتقلون لروايات « همغواي » وداعا للسلاح و « لمن

تدق الاجراس » واستمعوا الى الام ( لمكسيم جوركي ) والى الاحمر والاسود ( لستاندال ) كما استمعوا الى ( روميو وجوليت ) و ( هاملت ) و ( ماكبت ) لشكسبير ، واستمعوا لثلاثية نجيب محفوظ .

كانوا يعاقبوننا بتشديد النكير علينا في صبيحة اليوم التالي لكل مساء يزخر فيه بمثل ذلك النشاط ، ولكن المتعة التي كان يحصل عليها المعتقلون ، كانت تهون الى جانبها جرعات التعذيب الاضافية التي كانوا يتلقونها كعقاب لهم .

وذات يوم بعد الغداء ، في الرابع من يونيو ١٩٦٠ ، استدعينا الى الخارج وصدرت الينا الاوامر ، ان نمهد طريقا بين الاوردي وبين الطريق الرئيسي يبلغ طوله حوالي كيلومتر ، حيث ان الطريق الضيق الذي جئنا عليه من قبل كان مغلقا لاسباب فنية ، لم نفهم بادىء الامر دلالة خاصة لصنع ذلك الطريق ، الا حينما طلبوا منا ان نرسم له حدودا باللون الابيض ، وان نحدد منحدراته ومنعطفاته باسهم كبيرة بالحبر الابيض ، هنا ادركنا ان سيارات ما ستاتي ليلا الى الاوردي وانها لا بد ستكون محملة بمعتقلين جدد .

كان لذلك وقع اليم علينا ، فهو يعني اننا سنقضي ساعات نستمتع فيها الى عملية استقبال وحشية في الخارج ، كانت التجربة العامة لكل المعتقلين ان المرء لا يؤلمه الضرب الذي ينهال عليه بقدر ما يؤلمه ان يجلس ويسمع صوت الضرب الذي يتعرض له رفيق في الخارج . وحينما كانت تتم عمليات التأديب الجماعية ، لم يكن يؤلمنا الضرب الذي نتعرض له بقدر ما كان يؤلمنا ان نجلس صامتين نستمتع لصوت الضرب في العنابر المجاورة . ان المرء يكون مستغرقا تماما في رد الفعل بالنسبة للضربات التي يتلقاها . ويتركز الالام في النطاق الحسي ، ولكن حينما يسمع المرء او يشاهد ضرب رفاقه فانه يكون على درجة عالية من التوتر والتنبه ، ويرى من جلسته الساكنة العملية بكل تفاصيلها وبكل ما فيها من خسة ووحشية ، ان رؤية انسان تجرد من آدميته ، وانطلق بفريزة بهيمية ، يهوي بعصاه على آدمي اخر لا تقل ايلاما عن رؤية رفيق يتألم تحت وطأة التعذيب ورؤية انسان يتحرك آليا ، برد الفعل ، ولا يستطيع ان يدرك ان عصاه الفليضة تهوي على آدمي من دم ولحم وليس على قطعة من صخر ، لا تقل ايلاما للنفس عن رؤية رفيق يتلوى من آثار تلك العصا الفليضة .

ان هذا الجانب من القضية يكشف عن اخبث اساليب التعذيب التي اتبعوها معنا . كانوا دائما يلجأون الى اختيار اثنين او ثلاثة اختيارا عشوائيا

ليعذبوهم امامنا ، وكانوا بذلك يضعون الجماعة كلها في حالة ترقب وقلق ، كانوا يدخلون العنبر المجاور لنا عن اليمين ، ويعملون الضرب في مكانه . ثم يقتحمون العنبر المجاور لنا عن اليسار ، وينهالون على من فيه ضربا . وبذلك كانوا على ثقة من انهم قد ضربونا نحن سكان العنبر المتوسط مرتين ، اذ في كل مرة كان الواحد منا في حالة ترقب مستمر يصاحبه نوع من المطابقة ، اي ان يتصور كل منا نفسه مكان المضروبين ويحس فيه كل مرة الضربات التي تنهال على جيراننا وكأنها تهوي على جسده هو .

كما انه من الناحية الاخرى كانت مراقبة عملية التعذيب ، عن كثب تعمق لدى المرء الشعور بمدى الدرك من الهوان الذي انحدرنا اليه وما يترتب على ذلك من شعور طاغ بالمرارة .

كل هذه العوامل كانت خلف ذلك الشعور الاليم المر الذي طفى علينا حينما ادركنا ان دفعة جديدة من المعتقلين قادمة ، وان حفل استقبال جديد سيقام ، ومن ناحية اخرى فان مجيء تلك الدفعة الجديدة يعني ان التعذيب لم يقارب نهايته رغم الشهور السبعة المنصرمة ، وان المدى ما زال طويلا .

اوشك العمل ان ينتهي ، والشمس قد مالت في الغرب ، ولاحظت على اليلد عربية يجرها ثوران ، اخذت تقترب رويدا رويدا ، حتى اذا ما لاحظت فوقها تلك الالة الكريهة التي يسمونها « العروسة » والتي يصلب عليها المعتقلون ليجلدوا وهم عراة ، ساد الصمت ، وخفتت حركتنا ، وشخصت عيوننا للعربة وهي تقترب يحيط بها جو كئيب ، وتنشر في الجو رائحة الموت . . كان صمتنا احتجاجا ، وحركتنا التي سكتت تعبيراً عن السخط ، وانتقل ذلك الشعور الكئيب الى الحراس انفسهم فتدلّت عصيهم الى جنوبهم ، ووقفوا هم الآخرون يرقبون العربة في صمت ، حتى الضابط الثور « عبد اللطيف رشدي » السفاح ، الذي كان متوقفا ان يعلو عواؤه في حفل الاستقبال القادم ، غفل للحظة عن بهيميته ، واستطاعت انسانيته الحبيسة ان تفلت من قيدها للحظات فرنا في صمت هو الآخر لعربة الموت والثيران تقترب بها في خطوات بطيئة بليدة . . . جنازة انسان لم يمت بعد . . ولكنها كانت لحظات ، مجرد لحظات ، ثم عادت بهيميته تسيطر عليه فارتفع صراخه الهستيرى ، لم نزعج نحن فقط من صمتنا بصراخه ، ولم يكن الحراس وحدهم هم الذين انزعجوا من هدائهم لذلك الصراخ بل انزعجت له الثيران التي كانت تجر العربة فحثت فجأة في خطوها . . وفزعت طيور كانت تحط على مقربة فطارت بعيدا . .

وعلى صرخات « الضابط الثور» تهاوت عصي الحراس على اكتافنا  
في قسوة غير عادية وكاننا لتقدم للضابط اعتذارا عن لحظات المشاركة  
الوجدانية التي شاركونا فيها اسانا .

عدنا الى العنابر ، وخيم الوجوم ، وبرغم الاعياء بسبب العمل المتواصل  
طوال اليوم وبسبب الارهاق النفسي والعصبي : لم يستطع واحد منا تناول  
عشائه ، بل ولم يغمض لواحد منا جفن .

وحوالي الثانية عشرة مساء فتحت العنابر واخلوا العنبر رقم (٢) من  
سكانه ، ووزعوه على العنابر الاخرى وكانوا ستين رفيقا ، فزاد عدد سكان  
كل عنبر الى السبعين ، وبلغ الزحام اشده وصارت مشكلة ان يجد الانسان  
بوصة يتحرك فيها على جنبه ، كما صارت مشكلة غشيان دورة المياه  
اكثرت تعقيدا .

ارتفع صوت البروجي في الساعة صباحا مؤذنا بوصول اللواء اسماعيل  
همت وارتسمت امارات الحقد على الوجوه، وعلى وجوه اعضاء الجماعة  
المنقسمة كانت انفعالات شتى تتعاقب : الحيرة ، والرجاء ، والخوف والقلق،  
ومنذ الليلة السابقة وهم يحاولون بث جو من التفاؤل الكاذب : «اننا نؤيد  
الرئيس عبدالناصر بلا قيد او شرط ، ولا يمكن ان يستقبلوا زملائنا كما  
استقبلونا من قبل ، وانما مجيئهم هنا دليل على ان التعذيب قد انتهى . «  
كان قد تاكد لدينا من بعض دردشات الحراس ان القادمين هم اعضاء  
مجموعة خليل المنقسمة الذين حوكموا امام المجلس العسكري الخاص في  
الاسكندرية ومن بينهم اعضاء لجننتهم المركزية .

ولكن البروجي الذي اعلن وصول « همت » ازال كل ما كان على وجوه  
اعضاء المجموعة المنقسمة من مشاعر ولم يخلف عليها الا شحوبا كشحوب  
الموتى ، وفور وصولهم بدأت عملية الاستقبال ، على نفس النحو الذي  
استقبلنا به يوم جئنا . . ان المرء لا يستطيع ان يقارن بين هول الضرب  
الذي استقبلت به المجموعة الجديدة والضرب الذي استقبلنا به ، فذكرى  
استقبالنا وبشاعته قد اذابت فيما تلاه من شهور التعذيب المركز . ولكن  
الاحساس الذي سيطر علينا جميعا ونحن نتابع الضربات، المسعورة عند  
بوابة الاوردي هو ان احدا لا بد سيقتل في عملية الاستقبال تلك .

وبالفعل لم يكن قد انقضى حوالي ساعتين في عملية الاستقبال حتى  
سمعنا صوت حشرجات خلف عنبرنا ، وصوتا اخر يقول « ده مات  
يا فندي » . وبالجبن اللواء همت فعندما انتقلت اليه تلك الكلمات ، توقفت



عملية الاستقبال وادخل الباقون وكانوا حوالي عشرون دون ضرب ، وانطلق صوت البروجي معلنا فرار اللواء همت من مسرح جريمته .  
ساد السكوت لساعة ، لم يكن يسمع خلالها الا انات الوافدين الجدد الذين تمددوا على ارض العنبر المجاور وقد تمزقت اجسادهم ، وبعد قليل استطاع احدهم ان يفيق من هول عملية الاستقبال وان يأتي الى النافذة ، واستطعننا ان نعرف اسم القتيل .

كان شهدي عطية هو الذي قتل على باب الاوردي . .

وبعد ان مرت مراحل الاستقبال المختلفة وصل الى بوابة الاوردي حيث وقف « الضابط الثور » عبداللطيف رشدي وعصابته ، وتهاوت العصي على جسد « شهدي » الذي كان قد مزقته الجلادات قبل ذلك بدقائق حينما صلب على العروسة بأمر من همت .

وصاح بعبداللطيف : « اسمك ايه » ؟

واجاب شهدي بصوت هاديء « شهدي عطية »

فصاح رشدي : « اسمك ايه ، زعق اوي »

واجاب شهدي في صوت ثابت خافت : « قلت لك اسمي مرة : وانت

عارفه كويس » .

وتدخل الثعبان ، حسن منير ، مأمور السجن ، وقال بصوته الناعم :  
« اضربه كويس يا عبداللطيف : موش عاوز يقول اسمه : عامل علم ، ابن ال . . »  
ونطق سبة في ام الشهيد .

وزاد عبداللطيف رشدي سعارا تلبية لرغبة سيده ، وزادت كل العصابة المحيطة بشهدي سعارا ، وسقط شهدي على الارض ، واستمر الضرب عليه ، وقال الثعبان : « اضربه على بطنه ، وقلبوه على ظهره » ، وانهالت العصي على بطنه العاري ، وانهالت الركلات على كل جزء من جسده ، وهمت بيتسم مشجعا . ثم اوقفوه على قدميه وطلبوا منه ان يسير ، فمضى مترنجحا ومجموعة من الجنود يتابعونه بعصيم ، حتى وصل خلف العنبر الذي نقيم فيه ، عنبر رقم (٣) فسقط ، ولم تتوقف العصي الا عندما بدأت تصدر عنه حشرات الموت واستدعوا الضابط « مرجان » فجاء بجندي له خبرة بالتمريض امسك بمعصم شهدي وهو راقد على الارض ثم قال : « دا مات يا فندي »

انقلبت الادارة علينا بحملة هستيرية تريد اشاعة الارهاب وقمع اية محاولات للتمرد ، ولكن الامر كان قد وصل الى درجة لم تعد فيها السيطرة

على الموقف ممكنة فقد انفجر السخط ، وحتى المستقلين الذين كانوا احتياطيا للدعاوى الانهزامية الاستسلامية ، استجابوا لدعوة الحزب للانتقال بالمقاومة الى درجة متقدمة .

بدأت المقاومة باظهار عدم الاحترام للنظام الذي فرضته الادارة على المعتقل بالارهاب الدموي : المنابر تظل ساهرة الى ساعة متأخرة ، والسكون الذي كان يسود بعد العودة من العمل ، تحول الى مناقشات صاخبة ، وتصدر الرفاق طواير الانهالك البدني المسماة بطواير الرياضة وقادوا عملية الجري في بطاء شديد ، كل شيء كان يتم في بطاء رغم العصي المنهالة على الاكتاف والظهور ، لم يعد الضباط يواجهون منا برؤوس منكسة ولكن بعيون تقدر شررا ، العمل في الجبل ساد التراخي وعدم الاكتران لانجاز الكميات المقررة يوميا ، ولم يجد اي ارهاب في اعادة القبضة الفولاذية .

تجمع غالبية المعتقلين حول شعار الاضراب عن الطعام بهدف وقف التعذيب والتحقيق في حوادث القتل ، ودارت اتصالات بين قيادة المعتقل الحزبية وقيادة المجموعة المنقسمة التي كانت ضمن الاربعين الجدد الذين وصلوا اخيرا ، للاتفاق على خوض معركة الاضراب معنا ، ولكنهم رفضوا .

كان القتل هو المتهم الاول في قضية مجموعة خليل التي حوكت اخيرا امام المحكمة العسكرية العليا الخاصة في الاسكندرية ، وكان قتله يضع السلطات القضائية في مأزق حرج خاصة وان هؤلاء المتهمين مفروض انهم تحت مسؤولية المحكمة . وفي نفس الوقت كان خبر اغتيال شهدي قد تسرب الى الخارج ، وارسلت زوجته برقية الى عبدالناصر ، وكان حينئذ في يوغسلافيا تحتج فيها على اغتيال زوجها . وعرف الخبر في جميع انحاء العالم . واراد عبدالناصر ان يغسل يده من دم الشهيد ، وان يصور الامر على انه خطأ لا علاقة له هو به فامر النائب العام باجراء التحقيق .

حضر وكيل النائب العام الى الاوردي للتحقيق ، وازاء السخط المتزايد في صفوف المعتقلين ومظاهر المقاومة المتزايدة ، وما يمكن ان يتسبب عن ذلك من تعقيدات في الموقف وما قد يسببه من فضح لسياسة الارهاب الدموية ، خاصة وان انظار الراي العام المحلي والعربي والعالمي كانت مسلطة وقتئذ على الاوردي ، صدرت الاوامر بوقف اي عدوان علينا : لا ضرب ولا اهانات وان يسمح للمعتقلين باستلام طرود بها ادوية من ذويهم ، وبشراء طعام في حدود جنيهين شهريا لكل فرد من مقصف السجن السلي صدر امر

بفتحه في ذلك الوقت .  
صرف المعتقلون النظر عن الاضراب عن الطعام ، خاصة وان سياسة  
التعذيب قد هزمت في جانب هام منها . هو الضرب والاهانات والتجويع .

واتجه النظر الى توسيع التحقيق في مقتل شهدي عطية حتى يشمل  
مقتل فريد حداد وعلي متولي الديب وعمليات التعذيب التي جرت طوال  
الشهور الماضية . حينما بدأ التحقيق طلبنا من اعضاء المجموعة المنقسمة ان  
يشيروا تلك القضايا مع المحققين . وان يطلبوا التحقيق في مقتل فريد  
حداد وعلي الديب ، وان يطلبوا من رجال النيابة سماع اقوالنا كشهود سمعنا  
بآذاننا صوت الضرب المنهال على الشهيد شهدي عطية ، كما سمعنا صوت  
الجندي الممرض وهو يبلغ الضابط ( مرجان ) بان شهدي قد مات ، حيث ان  
الادارة حاولت نفي التهمة بادعاء ان الشهيد عمد الى الاعتداء على حراسه  
فضربه الجنود خارج باب الاوردي مما ادى الى موته . وكان استدعاءؤنا  
للشهادة امام المحققين ضمانا لان نثير حوادث القتل الاخرى وعمليات  
التعذيب .

وتنبهت السلطة الى خطتنا ، فعمدت الى تضيق نطاق التحقيق ،  
وعدم استدعاء احد منا للشهادة ، وساعدها في ذلك موقف اعضاء المجموعة  
المنقسمة اذ امتنعوا عن طلب اي منا للدلاء باقواله . وبادرنا باعلان سخطنا  
وبطلب تسجيل اقوالنا في التحقيق ، وازاء الحاحنا ، وروح المقاومة التي  
كانت تشمها السلطات اضطرت الى استدعاء بعضنا للدلاء بشهادته ، وسجل  
الذين خرجوا منا كل شيء في محاضر النيابة ، منذ مجيئنا الى الاوردي  
وحملنا عبدالناصر شخصيا مسؤولية كل ما تم .  
فماذا كان موقف المجموعة المعادية للحزب ؟

لقد اهتموا قبل كل شيء في اقوالهم امام التحقيق بتأكيد ولائهم  
للرئيس عبدالناصر وبتبرئته من اي مسؤولية ازاء كل ما حدث ، وقالوا ان  
المسؤول عن ذلك « عصابة من الضباط برئاسة حسن منير سيطرت على  
الاوردي لحساب الاستعمار وان هذه العصابة كانت تهدف باساليبها  
الاستفزازية الى ايقاع الفرقة بين الرئيس عبدالناصر واخلص مؤيديه » .

ان رفاقنا الذين ادلوا بالشهادة امام المحققين حملوا عبدالناصر  
شخصيا مسؤولية ما تم ، واتهموا اللواء اسماعيل همت والصاغ حسن  
منير ، واليوزباشيين عبداللطيف رشدي ويونس مرعي باعتبارهم ادوات  
التنفيذ لخطة النظام في التخلص من الشيوعيين والديمقراطيين .. ولكن

النيابة اعتمدت على اقوال المجني عليهم الاساسيين وهم اعضاء المجموعة المنقسمة الذين جاءوا اخيرا الى الاوردي مع الشهيد عطية وكافأهم عبد الناصر على موقفهم منه في التحقيق ، فصدر امره بنقلهم فورا الى سجن القناطر حيث يعاملون معاملة عادية في حدود لوائح مصلحة السجون . وكل الذي تم هو نقل اللواء همت من مصلحة السجون ، ونقل الصاغ حسن منير الى وظيفة اعلى ، ورفي اليوزباشي الدموي عبداللطيف رشدي الى رتبة صاغ ونقل من الاوردي الى محافظة اسيوط حيث قتل فيما بعد بطروف غامضة كما اسلفنا .

وحفظت القضية ، وراح دم شهدي ..

## الفصل الثاني

### للأوردي نظرية

قد لا توجد كلمات تعبر عن مضمون خطة النظام الناصري ازاء الشيوعيين والديمقراطيين ابلغ من هذه العبارة « حياتك او عقيدتك » .

لقد صمموا خطتهم بحيث يصلون في النهاية الى وضع يأملون ان تكون كفة الحياة فيه هي الراجحة في ذلك الاختيار الصعب الذي فرضوه علينا ، وبذلك - كما كانوا يأملون - يمكن تصفية العقيدة .

ولنتأمل قليلا تلك الخطة حتى نستطيع ان نرى مدى عداء رجال النظام للفكرة ، هذا العداء الذي يجعلهم على استعداد لارتكاب اخس الجرائم .

كان للخطة التي صمموها شقان ، شق بدني ، واخر نفسي .

فقيم كانت تتمثل خطتهم بدنيا ؟

كان الاوردي مكانا معدا لآبادة الشيوعيين ، بالقتل المباشر والقتل غير المباشر ، ومن يبق بعد ذلك حيا ، وبصر على التمسك بعقيدته لا يكون من الناحية البدنية قادرا على خدمة عقيدته .

صحيح ان عملية القتل المباشر لم تمارس الا ازاء خمسة من الشهداء هم الرفاق : محمد عثمان - في مباحث طنطا - مصطفى شوقي البهناوي في ادارة المخابرات ، عبدالنواب جبريل - في محافظة القاهرة ، فريد حداد والاساذ شهدي عطية - وقد قتلوا على باب الاوردي - الا ان حقيقة ما قصد بقتلهما بشكل مباشر بواسطة الضرب هو وضعنا جميعا تحت التهديد المستمر بخطر الموت بضربات مماثلة لتلك التي اودت بحياتهما .

ولكن الابادة الجماعية كان مفروضا ان تتم بالقتل غير المباشر ، اي بالامراض الباطنية حيث لا يثبت التشريع وجود جريمة ما .

كان هذا هو الهدف من عملية الاجهاد غير المعقولة المتمثلة في الضرب

التواصل والمجهود البدني الذي لا يتوقف : التفتيش الصباحي يعقبه ما يسمى بطابور الرياضة الذي قصد منه ان يبذل الواحد منا في حوالي الساعة مجهودا بدنيا اضعاف اضعاف الطاقة البشرية مما يؤدي الى ما يمكن تسميته بتذويب العضلات . وهنا بالتحديد كانت تكمن الخطورة بالنسبة لكبار السن فالادارة تتفادى مسئولية ما قد يحدث لهم بان توفر عليهم الخروج للعمل في المحاجر ، ولكنها بالاضافة الى الاعمال المرهقة في مرافق السجن ، تعطيم تلك الجرعة المركزة من المجهود البدني في طابور الرياضة الذي ليس هناك من الناحية الرسمية ما يثبت ممارسته . ويعقب هذا الخروج الى المحاجر محملين طوال الطريق بالاحجار ، ثم العمل المتواصل في المحاجر لمدة اربع ساعات في حمل حجارة البازلت الثقيلة او تكسيرها، او في حمل التراب والجري به ، ثم العودة عدوا من الجبل ، والخروج بعد الغداء لتفريغ القطارات من الحجر الجيري .

يضاف الى ذلك سوء التغذية بدرجة بشعة لا تعوض حتى ولا ربيع المجهود الذي يبذله الواحد منا ، فمجموع ما كانت تحتويه وجباتنا اليومية تقل حتى عن ٢٠٠٠ كالوري ، بينما المتوسط المطلوب ٣ الاف كالوري، وفي حالة اشغال شاقة مرهقة كالتي كنا نقوم بها ، لم تكن حاجة المرء تقل عن ٥ الاف كالوري ، مع افتقاد الاطعمة لفيتامين (ا) مما يؤدي الى ضعف البصر وفيتامين ب مما كان يسبب التهابات الجلد واللسان، والحساسية للشمس حينما كانوا يفرضون علينا الجلوس تحت اشعتها المحرقة ورؤوسنا عارية حتى من الشعر الذي كان يقص اولا باول ، كما كان ينتج عنه تميل الاطراف بسرعة بسبب جلسة القرفصاء المفروضة علينا طوال اقامتنا في العنابر الى وقت النوم ، كما كانوا يفرضون علينا الجلوس مرتكزين فقط على امشاط الاقدام نصف ساعة او يزيد يوميا اثناء الاستعداد للذهاب الى العمل . وكان نقص الفيتامين ج يتسبب في تاخر التئام ابسط الجروح التي كنا نصاب بها ، فتتقيح وتظل مدة طويلة مصدرا للالام . كما تتسبب عنه التهابات اللثة وعدم القدرة على مقاومة البرد والانفلونزا . وقد ادى افتقاد فيتامين د الى تاكل اسناننا جميعا وتلفها . بالاضافة الى انعدام اصناف الطعام ذات الالياف والخضروات والفواكه تماما .

كان اهمال العلاج سلاحا اخر ، فالمرضى يتركون لتفتك بهم الامراض ثم تزور تذاكر طبية تفيد صرف العلاج لهم ، كما حدث في حالة الرفيقيين الشهيدين علي متولي الديب ، ورشدي خليل ، والحالات الطارئة كالتهاب

الزائدة الدودية لا تنقل الى المستشفى لاستئصالها .  
لقد كان حسن الحظ وحده هو الذي جنبنا الوقوع فريسة للحمى الشوكية ، ففي يناير ١٩٦٠ ظهرت حالات من هذه الحمى الوبائية بين جنود الكتيبة المكلفة بحراسة السجن وكل ما اتخذته الادارة من اجراءات لتفادي اية مسؤولية اذا ما امتد الوباء اليها هو وقف الخروج للعمل في المحاجر مع استمرار عمليات التعذيب البدني داخل الاوردي وبشكل اكثر تركيزا .  
وواجهت الادارة الحاحنا في طلب اقراص السلفا لتحصين اجسادنا ضد المرض بالامعان في التنكيل بنا .

ان التقدير الطبي لمدى ما كان يمكن ان نصاب به من خسائر لو استمر الاوردي بضعة شهور اخرى هو عشرات الوفيات خاصة بين اولئك المصابين بامراض القلب والصدر وكبار السن . لقد كان نقل عدد كبير من المعتقلين الذين لم يعتادوا العمل البدني الشاق الى ذلك المستوى من الارهاق البدني كميلا بتدهور قواهم الجسمانية الى اقصى الحدود . ان نقص الوزن بشكل خطير كان احد مقومات الحصاد الذي كان رجال النظام يطمحون اليه .

اما الشق النفسي من الخطة فيمكن ان نلخصه في انهم كانوا يعتمدون وضعنا في نوع من الحياة يتوفر فيه الاساس العام للمرض العقلي .

ان الانسان ينتقل من الطفولة الى المراهقة ، حيث يكون عليه ان يلائم بين ذاته وبين المجتمع بقيمه وتقاليده ونظمه ملائمة صحية ، واولئك الذين لا يستطيعون التوصل الى تلك الملائمة وتصطدم ذواتهم بالمجتمع ، فيحسبون للمجتمع ولتقاليده ونظمه عبئا شديدا الوطأة على « ذواتهم » يجدون انفسهم امام اختيار بين ذاتهم وبين المجتمع ، فيحلون ذلك التناقض بطريقة غير ارادية ، باسقاط المجتمع وقيمه وتقاليده ونظمه ، بالهروب من المسؤولية الاجتماعية التي يفرضها النضج الزمني والوجداني والحضاري وذلك بالنكوص الى مرحلة الطفولة حيث لا يكون الوعي الاجتماعي هو الذي يحكم السلوك وانما الذات بفرائرها ونوازعها البدائية .

ان ما كانوا يهدفون اليه بالتحديد بالنسبة لنا هو نوع من ذلك النكوص الى حالة نفسية تتحكم فيها الذات بفرائرها واساسا حب البقاء .

كانت الخطة هي تمرير المعتقلين لعبء حاد ، وترويضهم بالعنف على نوع من الحياة الحيوانية تمطل فيها النشاطات العليا للانسان متمثلة في

الفكر والإرادة . وتنشط فيها فقط النشاطات الدنيا متمثلة في الغرائز  
واساسا الخوف والجوع وحب البقاء . . واعتمدت تلك الخطة على عوامل  
شتى ، تعمل عملها على ارضية من محو كل علاقة للانسان بالمدنية : فنحن  
معزولون تماما عن الحياة ، لا زيارة من الاهل ولا اذاعة ، لا كتاب ، ولا  
خطاب ، لا نرى الا بعضنا البعض والا السجناء وجدران السجن ، والارض  
السوداء التي محظور علينا ان نرفع اعيننا عنها ، وصخور البازلت القاتمة .  
ان المخ محروم تماما من اي مثير يدفعه الى النشاط والتفكير . وفي المقابل  
لا ينشط المخ الا في اتجاه واحد فقط ، هو الشعور بالالام المتولد عن  
الضرب المتواصل والايذاء المستمر . . ولا يسيطر على المرء الا التفكير في  
محاولة تعادي الالم ، والخوف من الموت بسبب الضرب الذي ادى الى موت  
فريد حداد والذي يمكن ان يؤدي الى موت اي واحد فينا ، خاصة وهناك  
انسان يعرفان بعصيهما : يونس مرعي وضرباته الرعناء على الرؤوس ،  
والاومباشي ضعيف البصر عبدالحليم ، الذي يوكلون اليه ضربنا بعصاه  
الغليظة اثناء التفتيش الصباحي فيضرب ضربا عشوائيا ، على الرقبة بشكل  
خاص ، ضربات تسري لها الرعشة في كل اجزاء الجسم ويفقد الانساء معها  
التحكم في حركات اطرافه .

وللخوف من الموت دوافع اخرى كتهريضا للمخاطر عندما يدفعوننا  
الى العمل تحت صخرة كبيرة آيلة للسقوط ، او تكسير الحجارة في اماكن  
خطرة ، وكثيرا ما اصيب منا زملاء باصابات بالغة اثناء تلك العمليات .

ثم حالة الترقب الدائمة التي ينحصر فيها نشاط الانسان في احتمالات  
الاذى نتيجة لعمليات الانتقاء العفوي للبعض منا وضربهم ضربا مبرحا .

ان هذا العناء المستمر الذي كنا نتعرض له مفروض الا يسمح لنا باي  
نوع من النشاط الا في حدود نشاط غرائز الاكل والافراز والخوف .

ويلى ذلك اىحاء ذؤوب للمعتقلين بانهم اشبه بالحيوانات فالعصا المشهورة  
دائما تجعل المرء لا يرى نفسه الا في صورة الحيوان المقنوت الذي لا يعامل  
الا بالعصا .

ان الحراس المباشرين الذين يصطفون جميعا حولنا يحملون عصيا غليظة،  
وحيثما نتجمع في الجبل قبل توزيع العمل ، او للتمام وسط العمل ، او  
حينما نتجمع للانصراف بعد انتهاء العمل ، ففي كل مرة من هذه المرات



مفروض ان ننصرف بسرعة والعصي تنهال علينا .  
ان انضباط يصرون ان نتفرق بسرعة وتحت ضربات العصي كما تقفز  
الارانب اذا فاجأتها في حظيرتها . كان رفاقنا ينصرفون في هدوء  
محاذرين الاصطدام بعضهم ببعض او الدوس على من يسقط أرضاً ، فيصر  
انضباط على تكرار عملية الجمع والانصراف مرارا حتى يطمئنوا السى ان  
روح الحيوانات الفزعة قد سادت ، وكانوا ينتقمون بشكل رهيب اذا لم تتم  
الامور بالصورة المطلوبة .

اما تناول الطعام فكان مصمما بحيث ينحني الواحد منا ليختطف  
وعاءه وهو يجري والعصي تطارده تماما كما يجري الكلب بعد اختطافه  
قطعة لحم .

والعيشة داخل العنبر هي اشبه شيء بالحياة في حظائر الماشية ، فكل  
منا عليه ان يلزم مكانه كالماشية المربوطة ، ودورة المياه نفضها حفاة ، وليس  
هناك ماء للنظافة بعد قضاء الحاجة ، وليس هناك صابون لفسيل الأنية بعد  
الاكل لتتسلم فيها الوجبة التالية . والجوع يحول موقفنا من الاكل الى  
موقف غريزي بحت ، فنحن نلتهم الطعام بما يحمله من اتربة وبما يتساقط  
فيه من ذباب وحشرات ، وبما يلقونه فيه عمدا من سولار وفنيك .

واشكالنا المزرية .. ذقوننا غير الحليقة ، رائحة الافواه الكريهة لعدم  
وجود الصابون ، وملابسنا القذرة ، واجسادنا التي تتراكم عليها الاتربة طوال  
الاسبوع لتمتزع بالعرق المتصيب طوال اليوم ، والبق والقمل والباعوض ،  
كلها اشياء تدفع المرء الى ان يسقط كل القيم الاجتماعية والاحاسيس  
المدنية التي تربت فيه ، وينكص الى حالة حيوانية شرسة ليلائم نفسه بتلك  
البيئة المليئة بالمنفصات . ان تلك الحالة الحيوانية الشرسة هي التي تجعل  
سكان العنبر يعالجون الاخطاء الصغيرة بشراسة وحدة .

وتلي ذلك عملية الاذلال ومحو كل آثار للاعتداد والكرامة والثقة التي  
تتكون للانسان الراقي المفكر : فالراس مفروض ان يكون دائما مطاطاً ،  
ومخاطبة حتى اقل الحراس شأننا بكلمة « افندم » وانت ملقى كإنسان ، لا  
تخاطبه الإدارة في اي امر ، وغير مسموح لك بمخاطبتها في امر ، واحيانا  
يستدعي الضباط احد الرفاق ليتحدثوا معه من باب ازجاء الفراغ او  
التسلية ، ومفروض ان يقف هو ليستمع ولا يحق له التعقيب الا بعبارة «ايوه  
يافندم » فاذا صدرت عنه كلمة تحمل طابع التمرد ، كان يقول « طبعا » او  
« محتمل » فالويل له اذ يصرخ الضابط : «انت بتتكلم افرنجي ، ياابن الكلب »

وينهال بالضرب عليه .

واحيانا كان يخرج بعض المنهاريين من غير السياسيين ليبلغوا الضابط استعدادهم لاستنكار الشيوعية فيصرخ فيهم .. استنكار ايه يا ابن الكلب، احنا عاوزينكم تموتوا .

وتصل عملية الاذلال الى قمتها : الركوع المادي والركوع السياسي فالتفتيش الصباحي مفروض فيه انه اذا ما فتح الباب وصاح الصول : « تفتيش » ان نركع جميعا ووجهنا الى الحائط ، وهذا هو الركوع المادي .

اما الركوع السياسي فكان هو المقصود بمحاولة اجبارنا على الهتاف لعبدالنصر ، وكل ما نعايه يتم باوامر منه ..

ولكن قمة الاذلال التي ما بعدها قمة حقا ، كانت في اجبارنا على ان نمهد الطريق الذي سار فيه شهدي الى الموت . وان نفرش الارض التي سار عليها قاتله اللواء « همت » بالرمل الاحمر ، وان نطلي الاشجار التي تحف بطريقه باللون الابيض .

كل هذا كان مقصودا به ان يهرب الانسان من عناء التناقض بين السلوك الحيواني الفريزي المفروض علينا ، وبين السلوك الحضاري .. بين المستوى من الهوان الذي انحدرنا اليه وقيمنا كأصحاب عقيدة تملانا اعتدادا وثقة ، وان يكون ذلك الهروب بان يسقط الانسان سلوكه الحضاري وان يسقط عقيدته بالنكوص الى حالة بدائية لا فكر فيها ولا قيم .. لا مدنية ولا عقيدة ، ولكن مجرد غريزة .. وغريزة فقط .. ليس فيها ضمير يتألم ، ولا كرامة تجرح ، وانما بهيمية سائمة .

كانت الخطة النفسية في الاوردي تعتمد فيما تعتمد عليه على النظرية السلوكية الجديدة المنتشرة في الولايات المتحدة ، والتي لا ترى السلوك الانساني الا مجرد عمليات من رد الفعل المنعكس الشرطي .

وعلى اساس من تلك النظرية كان المقصود بالتعذيب في الاوردي هو تمزيق كل الروابط النفسية التي تمثل ما اكتسبه الانسان من عادات اجتماعية جديدة له تجعله طوع بنان الحاكمين . وعليه فقد بدأوا تحت وطأة الارهاب تدريبنا على عادات جديدة تعتمد كلها على رد الفعل المنعكس الشرطي : فاستجابة لصفارة الصول علينا ان نجلس القرفصاء ، واستجابة

لصفارة اخرى ، علينا ان ننتفض واقفين وتكرر تلك العملية وسيلاتها بسرعة غريبة ، عشرات المرات، وغالبا ما يكون ذلك قبل ان يسأل الصول : « في هنا حد شيوعي » والمفروض انه كان يتوقع في غمرة المزاج الانسي ان يجيب الانسان على سؤاله بطريقة آلية : « لا يا فندم » . كل ذلك كان اعدادا للمعتقلين لكي ينصرفوا بشكل آلي في اللحظة النهائية التي يريدون فيها تصفيتهم كسياسيين ، حتى يطبع الواحد منهم بشكل آلي الامر الذي يصدر اليه : استنكر . . اعترف .

خطة شيطانية محكمة ، آتت نتائجها البدنية ، فقد نقص وزن كل منا لدرجة مخيفة ، وما زالت الامراض تفتك بنا حتى اليوم : السل ، المسالك البولية ، الروماتزم ، امراض العيون ، المص الكلوي ، القرع المعدية التي نتجت اساسا من اصطحاب تناول الطعام بالضرب وما يسببه ذلك من تهيج العصب الحائر . الاسنان تآكلت ، والبيوريا تفتك باللثة ، والذبحة الصدرية تهدد الكثيرين ، ومات بها الرفيق شعبان حافظ ، وعديد من الرفاق اصيبوا بالتسمم البولي، ومات به الرفيق حسب الله علي مرسي ، سرطان المسالك البولية ومات به « علي زهران » : ستة اصيبوا بالجنون ، وثلاثة حاولوا الانتحار بقطع الشرايين وعشرات في حالة صحية متدهورة ، تأجلت نهايتهم فقط بسبب اغلاق الاوردي قبل الموعد الذي كان محدد له .

ولكن كعب اخيل ، نقطة الضعف الوحيدة في تلك الخطة هي ان رجال النظام الناصري نسوا انهم كانوا يطبقونها على شيوعيين . فلقد كان لنا نحن ايضا خطتنا المضادة . كان الاساس في خطتنا هو تماسك التنظيم الحزبي .

فلقد كانوا يهدفون الى تحلل التنظيم ، وذلك بارهاقنا طوال النهار حتى ننام منهكين فور اغلاق الابواب في السادسة مساء ، والوامر المشددة بان يلزم كل مكانه اثناء تواجدها بالعنبر ، وعدم جلوس اثنين او ثلاثة معا ، وعدم الحركة ، وعدم الكلام ، والتجسس الدائم علينا من النوافذ ومن ثقب الباب ، ولكن كل ذلك لم يمنع انتظام الرفاق في وحداتهم الحزبية، وكانت الاجتماعات تتم في دورة المياه وفي المكان المخصص لحفظ القمامة . واتصلت الاقسام الحزبية في كافة العنابر بشبكة اتصال محكمة ، واستطعنا من وقت لآخر الحصول على الاخبار السياسية من الخارج ، كانت تصدر التعليقات الحزبية عليها ، من قيادة الحزب بالمعتقل ، وفتحت المناقشات السياسية حول خطة الحزب (1) . كما كان هناك ضمان لوصول التعليمات الحزبية لكافة العنابر في وقت واحد ، حتى يتسنى للرفاق ان ينصرفوا

كتيبة واحدة . ثم تشعب الخطة بعد ذلك :

فأولا : هناك مقاومة لخطة محو العقل ، يوم الجمعة في كل عنبر هو يوم الصحافة تصدر بكل عنبر مجلة ناطقة تقدم تحليلات سياسية ونصائح طبية تقلل من مخاطر الحياة التي نعيشها وموضوعات اقتصادية واجتماعية واخرى ادبية ركازيكتيرات ناطقة وفكاهات . في عنبر واحد كانت تصدر مجلة « دوغري » ومجلة « الدبورة » في عنبر (٢) ، وتلفزيون عنبر (٣) ، ومجلة « التشوينة » في عنبر (٥) و « الفلكة » في عنبر (٦) .

ويلاحظ ان المجالات اتخذت لها اسماء من بين الكلمات التي كانت تنكرر يوميا ، فكلمة « دوغري » معناها قف ، والدبورة هي قضيب مذبذب من الصلب يستخدم لاحداث ثقب في الصخور توضع فيها المتفجرات لتفتيتها ، والتشوينة هي كومة البازلت الكبيرة بعد تكسيره ، والفلكة هي الاداة التي كانت ترفع بها اقدامنا للضرب .

وفي المساء كانت هناك نواد مختلفة . نادي السينما في عنبر (٢) ، ونادي القصة في عنبر (٣) ونادي الرواية في عنبر (٦) كما كان لكل عنبر لجنته الثقافية .. كان هناك غداء للعقل تقدمه كل تلك التشكيلات .

كانوا يضربوننا ضربا مبرحا في صباح اليوم التالي عقابا على سهرنا نسمع قصة او محاضرة ، او نحتفل باحدى المناسبات كعيد النصر ، او رأس السنة او ذكرى شهيد او عيد الحزب او عيد اول مايو او عيد ميلاد رفيق .. ولقد تم الاحتفال بعيد الام في الثامن من مارس احتفا لا عاطفيا جياشا ، ارتفعت فيه الاغاني التي تعبر عن اجمل المشاعر للام وغنى رفيق لنا اغنية كتبها ولحنها واحد منا بهذه المناسبة :

لا تحزني يا زوجتي .. يا ام طفلي .

وفي الصباح التالي تعرض عنبرنا لمذبحة ، ولكن كان يهون العقاب ازاء

---

(١) الحق ان ذلك كان امرا غربيا ، فبدلا من ان تفكر اللجنة المركزية في خطة لمواجهة حملة التطبيب التصاعدي اذ يقسم منها يتزعمه اسماعيل صبري عبدالله يهاجم خطة الحزب ، ويتهمها باليسارية ، وبالخروج على ما كانت اللجنة المركزية قد اجمعت عليه من ان نظام عبدالناصر يمثل البرجوازية الوطنية ، وطالبت هذه المجموعة بفتح صراع فكري حول خطة الحزب - تحت التطبيب !! - والارجح ان الجانب الاخر في اللجنة المركزية رحب بهذا الطلب لانه يوفر عليه مسئولية التصدي لعملية التطبيب ، ويشغل الرفاق عنها بهذه المناقشات .

ما نحس به من تجدد الحيوية بعد كل ليلة من تلك الليالي، فلقد كانت خطتنا هي ان نحول دون النكوص عن المكتسبات الفكرية والحضارية ، وذلك بتفديتها قدر الامكان والابقاء على القيم الخاصة بالانسان حية في وعيه.

**ثانياً :** كان اي نصر نحزره على الادارة ، مهما كان جزئياً ، ينمش الروح بدرجة غير متصورة ، اذ من المهم ان يشعر المعتقلون انه بالامكان هزيمة العدو ولو في معارك صغيرة ، وانه بالامكان ان نشعر من حين لآخر اننا منتصرون فذلك يحفظ على الرفاق طبيعة المقاتل :

فتقديم نصف الكمية المطلوبة من البازلت والاصرار على الا تزيد رغم ما صاحب ذلك من اعمال انتقامية ثم رضوخ الادارة لهذا الوضع ، ومساعدة الرفاق العاجزين عن العمل رغم ان ذلك كان محرماً ، ورفض ترديد الاناشيد التي تمجد عبدالناصر وتصدي الرفاق في الصراف الامامية ، ورفض الهتاف لعبدالناصر في تحد ، والمقاومة الباسلة التي ابداهها رفاق انتقوهم للتعذيب الفردي في محاولة لارغامهم على الهتاف لعبدالناصر ، ورفض الاجابة على سؤال الصول : « في هنا حد شيوعي » والادارة تصر على انه اذا تحدث اليها عن شيء فليحدث عن نفسه فقط ، ونحن نصر على ان يخرج اليها مندوب تلو الاخر يتحدث باسمنا جميعاً مقدماً الاحتجاج على تلك المعاملة رغم ما يتعرض له بسبب ذلك من الحجز في زنزانات انفرادية ومعاناة التعذيب الفردي لمدة اسبوع او عشرة ايام . . كل هذه المعارك التي هزمت فيها الادارة كانت تبقي الرفاق في درجة عالية من النضال وروح القتال .

**ثالثاً :** كانت خطتنا تهدف الى التحقير من شأن خصومنا ووضعهم موضع السخرية دائماً : فأمور السجن اسمه فيما بيننا « الست صاحبة الشغل » وهو لقب يطلق على النساء اللاتي يدرن بيوتاً مشبوهة ، وعبء اللطيف رشدي اسمه « صبي الست » ويونس مرعي اسمه « نسر » والضابط سيد منصور الذي لم يكف عن استعراضاته على ظهر حصانه ومسدسه يتدلى من حزام وسطه مقلدا رعاة البقر كان اسمه « فارس بني زعبل » اما الضابط مورجان فكان مجرد اسمه يثير الضحك فهو دائم التلعم ، دائم الاضطراب ، بليد وبطيء الفهم ، ومن نوادره التي كانت تثير ضحكنا انه دخل العنبر يوماً وقال : « اللي عنده جوابات وموش عايز يكتب امانات يرفع ايده » وبالكاذ كتم الرفاق عاصفة من الضحك من ان تنطلق . كان طبعاً يريد ان يقول : « اللي عنده امانات وعايز يكتب جوابات » . . كانت بلادته

وبطء فهمه يوقعانه دائما في ازمات ، وكان يعود علينا مستقظا كل ازمته  
النفسية على اجسادنا المسكينة . وكان هناك الامباشي عبدالحميم ذو النظر  
الضعيف الذي كانوا يطلقونه علينا ليضرب ضرباته العشواء . كان اسمه  
فيما بيننا الشاويش « عوكل » وهو اسم يرمز الى جندي البوليس المجرد  
من اي ذكاء ، كان « عوكل » هذا يطرب لمديح الضباط له اذا ما قست  
ضرباته علينا واخطر ما في الامر انه كان يضرب ونحن في الجبل وعينه  
على الضباط الجالسين بعيدا ليتأكد من انهم يشاهدون نشاطه مما كان  
يهدد بان تقع ضربته موقعا قاتلا ومرة نبهه احد الرفاق وهو منهمك في  
الضرب الى ان الضباط غير ملتفتين اليه فرمى بمصاه غاضبا ، واختطفها  
رفيق من الارض وسلمها لآخر فاخر حتى اختفت العصا وبعد ذلك اخذ  
عوكل يبحث عن العصا في جنون وسط ضحكاتنا المكتومة .

اما « الفيلد مارشال » فهو عسكري من الصعيد مفتول الشاربين  
طويل القامة ، امي لا يقرأ ولا يكتب ، كان يشمخ بقامته ويرفع يده الى  
شاربيه ليفتلها ثم ينادي الواحد منا « يا غبي ! » .

ولعله من الطريف ان هذا العسكري كان مكلفا بحراسة عنبر (٣) وذات  
يوم انتظمت خطوات الرفاق العسكرية بدرجة ملحوظة اثناء الطابور العسكري  
فالتفت الصول اليه قائلا : « عنبرك دا كويس يا عبدالصادق » فانتفخت اوداج  
عبدالصادق ومن يومها وهو لا يفتأ يقتل شاربيه ويفاخر زملاءه الحراس  
قائلا : « عنبري اجدع عنبر » واذا ما كانت هناك مخالفات في المنبر كالسهر  
ليلا ، او ارتفاع الصوت او التقصير في العمل ، ويشور « الفيلد مارشال »  
فالكلمة السحرية التي تهدى من نائوته : « دا عنبرك يا فندم » . حينئذ  
يزوم قائلا : « آه يا مكارين » حينما كان يصيح الضابط ونحن في  
الجبل « جرى ايه ، يا عبدالصادق ، عصايتك ما بتشتغلش ليه ؟ » كان هذا  
ينطلق بعصاه على ظهور المعتقلين . . ولكن من سكان عنبر اخر ، ورغم  
ايلام ضرباته الا ان سلوكه في حد ذاته كان يبعث على الضحك ، ثم يعود  
الى فرقته ليقول وهو يقتل شاربيه : « ها مبسوطين كده » . كان اذا نقل للحراسة  
على عنبر اخر ، يحاول الرفاق هنالك استخدام الكلمة السحرية معه قائلين  
« دا عنبرك يا فندم » فيقول لهم في صرامة « لا عنبري هو عنبر (٣) » . ان  
سكان عنبر (٣) سيظلمون بذكرون له ، كم تدخل لدى حراسهم الاخرين  
ليخفف عنهم الاذى ، وكم بكى هذا العملاق الصعيدى وهو يودعنا محتضنا  
كل واحد منا يوم غادرنا الاوردي .

ويوم ١٢ يناير كان يوما مشهودا ، لقد فوجئت الادارة بان اولئك الاربعمائة الذين كانت تعتقد انها قد احالتهم الى مخلوقات كسيرة تعسة ما زال في داخلهم وتحت ذلك المظهر الذي يحمل كل سمات الهوان ، روح مرحة عالية ، كان الصول « مطاوع » وهو المكلف بقيادة طابور التمام في اخر اليوم ، قد قام في اجازة وحسب النظام العسكري ، مفروض ان يحل محله اقدم سجان من ناحية مدة الخدمة، وكان هذا هو الشاويش « عبدالحليم » - عوكل - فاخذ مكانه امام الطابور ثم نادى « صفا .. انتباه » وكررها ثلاثا وعدل وضع القاييس ( الحزام ) على كرشه الكبير ثم رفع يده الى جبهته مؤدبا التحية العسكرية ، وفتح فاه ليردد الهتاف واذا بلسانه يتلعثم فيقول « اتحيا الجم .. جم .. جم .. » لم يستطع ان ينطق بكلمة الجمهورية العربية المتحدة الا بمشقة كبيرة وحتى حينما نطقها اخيرا اذا بها «الجمهورية العربية المتحدة» وهذا هو غاية فهمه للامور .. وضج الطابور بالضحك ..

صحيح انهم انتقموا منا انتقاما رهيبا لاننا ما زلنا آدميين نضحك للنكتة ، ولكنه كان يوما مشهودا امدنا بمادة فنية للفكاهة عن طبيعة النظام الذي يحكمنا .

## الفصل الثالث

### خرجنا من القصب

#### خرجنا من القصب

سكون تام ، وكل منا يلتمس ثوبا او فرجة في الستائر الكثيفة التي تغطي السيارة محاولا ان يتبين معالم الطريق الذي نسير فيه ، وما كادت السيارة تخرج الى الطريق الرئيسي ويحمل الينا نسيم رائحة المانجو من البساتين الممتدة على طول الطريق حتى صحنا جميعا في صوت واحد « خرجنا من القصب » . وضحكنا جميعا ، فلم نكن نتصور ان تكون هناك مثل تلك الوحدة في التعبير عن دلالة خروجنا من الاوردي .

ففي ذلك اليوم ، الخامس عشر من يوليو ١٩٦٠ ونحن على وشك الخروج الى المحاجر في الجبل ، وصلت رسالة الى السجن بقائمة تحوي اسماء مائة وعشرين معتقلا ، نودي عليهم ، وصدرت اليهم التعليمات بجمع حاجياتهم والخروج بها الى فناء السجن ، فطوى كل منا بطانيته ، وآنية الطعام ، وملابس السجن في الحقيبة وسرت همهمات وتوقعات ، ثم جاء كاتب السجن ، ففتح المخزن وسلم كلا منا حقيبته التي تحوي ملابسه وحاجياته المدنية . ووقعنا في دفتر السجن على استلامنا لتلك الاشياء : نظرا لترحيلنا الى سجن القناطر الخيرية . عمت المعتقلين موجة من الدردشات حول ذلك النقل الفجائي وماذا عسى ان تكون دلالته ، الا انه ما من احد خطر له ان هناك احتمالا بان يكون الافراج هو الخطوة التالية ، حتى اعضاء المجموعة المنقسمة لم يستطيعوا ابدا ان ينطقوا بتلك الكلمة التي ظلت تراودهم منذ اول يوم في المعتقل . انتظرنا ان يطلبوا منا تسليم مهمات السجن وملابسه وبطاطينه وكلها سلموها لنا يوم دخولنا الاوردي ، وان يسمحوا لنا بارتداء ملابسنا المدنية ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ،



وعندما بدأ النهار يقترب من نهايته دون ان يطلبوا منا تسليم ملابس السجن ومهماتنا ، بدأت الحيرة تأخذ بنفوسنا ، هل سيتم ترحيلنا هكذا بملابس السجن ، حفاة يحمل كل منا بطاينته ملفوفة في البرش ؟ ان شيئا من ذلك لم يتم ابدا ، في يوم من الايام . وهل سجن القناطر تنقصه مثل تلك المهمات ؟

وعندما وزعوا على كل منا ستة ارغفة ، اي خبز يومين ، اتضح الموقف تماما . . فالمسافة بين الاوردي وسجن القناطر لا تتهدى ساعتين بالسيارة ولا نحتاج الى هذا الخبز . . . لقد سجلوا في دفتر السجن اننا مرحلون الى سجن القناطر ، وتعمدوا ان نرى ذلك ونحن نوقع على استلام ملابسنا حتى لا يحدث تمرد يشاركنا فيه الثلثمائة معتقل الاخرون الذين سيقون في الاوردي ، اذا ما علمنا بالجهة التي نحن مرحلون اليها حقيقة . . . ان الستة ارغفة التي وزعوها على كل منا كانت تعني ان الرحلة التي نحن مقدمون عليها ستستغرق يومين ، وترحيلنا بمهام السجن ، كان يعني اننا ذاهبون - هكذا استنتجنا في البداية - الى معتقل انشء حديثا . هل سيكون ذلك هو معتقل الطور في جنوب سيناء ؟

ولكن عندما هدأت الحركة في السجن واغلقت العنابر نهائيا، بعد الفروب وظللنا وحدنا مع السجانة في الفناء بعيدا عن رقابة الضباط، ابلغنا هؤلاء السجانة اننا مرحلون الى سجن الواحات الخارجة .

كان الرفاق الذين امضوا مدد عقوبتهم التي حكم عليهم بها ثم اتت بهم المباحث الى الاوردي حينما رفضوا استنكار الشيوعية قد قصوا علينا ، كيف ذهب « همت » الى الواحات بعد اسبوع من استقبال ٩ نوفمبر في الاوردي . وصنع نفس الشيء برفاقنا المعتقلين هناك ، ولم تكن لدينا ادنى فكرة عما تطور اليه الموقف في الواحات . وقررنا الا نؤخذ على غفلة في تلك المرة ، واعددنا عدتنا للمقاومة ورد اي اعتداء قد يكون معنا لنا هناك .

كانت اللحظات الاخيرة في الاوردي لحظات مليئة بكل ما هو انساني في طباع شعبنا ، اولئك السجانة الذين كانوا بالامس القريب يحملون العصي الفليضة وينهاون بها علينا ، الذين كانوا ينطلقون علينا كالكلاب المسعورة لدى اية اشارة من احد الضباط ، الذين لم يتركوا واحدا منا دون ان يصيبوه بجرح او كسر ، هؤلاء الرجال الذين كانوا يبدون بالامس القريب وكأنهم وحوش ضارية ، اخذوا جميعا ، بما في ذلك اكثرهم غلظة وقسوة ، يكون ويحتضنوننا ، ويطلبون منا الففران عما بدر منهم ، ويلعنون ظروف

حياتهم التي لم تسمح بفرصة الحصول على قوتهم الا من تلك المهنة القذرة، ان اي تردد منهم ، او تراخ في تنفيذ التعليمات التي كانت لديهم باستخدام اقصى درجات القسوة ، كان يعني العقاب الشديد ، ليس فقط مجرد خصم عشرة ايام او خمسة عشر يوما من راتبهم الهزيل ، بل كانوا دائما يهددونهم بان اعين المباحث العامة عليهم ، وان اي تهاون مع المعتقلين يعني التعاطف معهم ، وان الدولة لا تعادي الشيوعيين بل تعادي ايضا من يتعاطف معهم . وكان المساكين يرتعدون لذلك التهديد ، فهم يرون باعينهم ان بيننا عددا كبيرا لا صلة له بالشيوعية ولا حتى بالسياسة بل ويرون ايضا ضباط جيش سابقين ، فلم يكونوا ليستبعدوا ، ان بدر تقصير من احدهم ان يتهم بالتعاطف معنا ، ثم ينضم الينا : على حد تعبيرهم .

لقد اقسام الكثيرون منهم لنا انهم لم يكونوا يستطيعون تناول طعامهم حينما يجلسون بين ابنائهم وزوجاتهم لغداء او عشاء ، ثم يتذكر ان النقود التي اشترى بها ذلك الطعام قد حصل عليها مقابل ضربنا . . .

وحينما نودي علينا لركوب السيارات التي سنرحل بها ، لسم يعبأوا بوجود الضباط وامور السجن واخذوا يشدون على ابدينا ويطلبون منا الصفح وكل منهم يكرر « سامحونا . . احنا اصحاب عيال . . ربنا يعلم اننا مظلومون زيكم » .

وانطلقت بنا السيارات التي اقلتنا بعد ان خيم الظلام ، وما كادت اضاءة الطريق الرئيسي تلوح ، وما كادت رائحة المانجو في البساتين المجاورة تداعب خياشيمنا ، حتى صحننا جميعا في وقت واحد : خرجنا من القصب « يا اولاد » ان كلمة القصب في بلادنا تحمل في ظلها كل معاني التخاف ، حيث لا دولة ولا قانون ولا منطق وانما عريضة مطلقة .

في الصعيد ، وحتى يومنا هذا يأخذ الصراع الاجتماعي شكلا فريدا ، فهذا واحد من فقراء الفلاحين يملك فدانا يلاصق ارض احد الاغنياء ، فيقوم هذا بالاستيلاء على ارض الفلاح المسكين قسرا . . وانتزاع ارض الفلاح ، كانتزاع حياته .

وذاك اخر يعمل لدى الاغنياء ، ويكتشف ان هذا الغني او ابنه قد اعتدى على زوجته او ابنته . والاعتداء على عرض احد ابناء الصعيد ، نار تاكل قلبه ، حتى الدم لا يكفي لاطفائها .

وثالث قتل له اخ او ابن او احد اقاربه بيد احد الاغنياء ، والعار يلاصق ابن الصعيد ان لم يأخذ بثأر من قتل في عائلته .

ورابع وخامس وعشرات من فقراء الفلاحين ينعرضون لصنوف الاضطهاد من اغنياء الريف ، ويعصف بالحقد بنفوسهم ، فيحملون بنادقهم ويتجمعون عصابات في القصب .

وتمتد مزارع القصب في الصعيد ، على مساحات تصل في بعض الاحيان الى ستين الف فدان تغطي كل الارض المحيطة بالنيل بين سلسلتي الجبال الممتدتين على ضفتيه الشرقية والغربية ، وينبت القصب متمسكاً ابيدان كثيفا بدرجة مخيفة ويعج بكل وحوش الجبل من ذئاب وضباع وثعالب ، تقتتل على ما تختطفه من دجاج او خراف او صفار الماشية من القرى والعزب المجاورة ، وتدوي جنبات مزارع القصب بعوائها وزئيرها طوال الليل ..

ويضم القصب بين ما يضم تلك المخلوقات التعيسة التي حولها استبداد الاغنياء الى وحوش كاسرة ، عصابات فقراء الفلاحين الذين يقيمون اكواخهم وسط مزارع القصب وهم مطمئنون تماما الى ان يدا لن تمتد اليهم ، فليس هناك من يجروء على اقتحام القصب ، فان لم تفرسه الوحوش ، فاجأه الرصاص من حيث لا يدري .

وكما تتسلل الذئاب والضباع لاختطاف فرائسها ، يتسلل هؤلاء التمساء لممارسة ثأرهم ضد من آذوهم ، باختطاف افراد من عائلاتهم والعودة بهم الى القصب ، فهناك يجبروه على ان يكتب خطابا الى ذويه يطلب فدية كبيرة ... والا دفع حياته ، وتتطور عمليات الاختطاف هذه من اجل الثأر الى اسلوب عادي في حياة هذه العصابات التي يصبح افرادها طريدي القانون .

ان الصعيد باسره ، الذي يزرع ذلك القصب ، يخشاه خشية الموت ، فلقد اصبح القصب عالماً لا يعرف القانون ، ولا تسود فيه الا القوة .. واثناء الليل ، تتعالى صيحات المختطفين ، اما من الرعب او من التعذيب ، بصرخات الفريسة وزمجرة الوحوش .. لا قانون في القصب ، ولا قانون في الاوردي ، العربية في القصب ، والعريضة في الاوردي ، القتل في القصب ، والقتل في الاوردي ، الاختطاف في القصب والاختطاف بالليل من بيوتنا الى الفيوم ، ثم الى الاوردي ، وحوش في القصب ، وحوش في الاوردي ، العزلة الرهيبة عن العالم داخل القصب ، والعزلة التامة عنه داخل الاوردي .

والمنطق عند وحوش القصب هو حياتك او خطاب تطلب فيه فدية .  
والمنطق عند وحوش الاوردي هو حياتك او استنكار عقيدتك . والذي

يخرج من القصب حيا ، كأنه ولد من جديد .

وكلنا كان يعرف قصة القصب ، وحينما حمل الينا نسيم الليل رائحة المانجو ، شعر كل منا انه خرج من الاوردي حيا ، وكلنا لم يملك الا ان يعبر من شعوره بالحياة بصيخته .. « خرجنا من القصب يا ولاد » .

وفي كلمة اذا اراد المرء ان يحدد من اي المنابع في حياتنا الاجتماعية استمد رجال النظام تصميم الاوردي كمنسكركم للتعذيب ، فسيجد انهم قد استمدوا من دوائر الاقطاعيين حيث استبداد اغنياء الريف بقرائه ، حيث يجلد الفلاحون ويقتلون ومن الوجه المقابل للدوار .. من القصب ، حيث حياة اخرى معزولة عن العالم ليس فيها الا الوحوش والعصابات ، حيث لا قانون ولا منطق ، ولكن عواصف الحقد الاهوج والثأر المعريد .

كل القاهرة تخرج الى النيل في هذا الوقت من العام ، هربا من الحر ، وكورنيش النيل يتحول الى معرض لكل ما هو جميل في القاهرة ، شبابها ، فتياتها ، اطفالها .. عائلاتها تجلس على النيل ، تستروح نسيمه ، ورب العائلة وزوجه واطفاله يلهون حولهما .. والام توزع زجاجات المشروبات الثلجة ، نموذج لعشرات الالاف من عائلات القاهرة التي لا تمتلك القدرة على التردد على المصايف ، فتكتفي بشاطيء النيل ليلا ، وشباب القاهرة الفتى ، جماعات من الاصدقاء ، او فتى وصديقه ، والزوارق تنزلق حالة على صفحة الماء ، والموسيقى الراقصة تتعالى من الكازينوهات المنتشرة على شاطيء النيل .

هكذا رأينا القاهرة والسيارات تقطع بنا كورنيش النيل في الطريق الى محطة الجيزة . ان ثمانية شهور ونصف لا نرى فيها الا حجر البازلت الاسود ، وملابس السجانة الصفراء ، وجدران السجن البيضاء جعلتنا لا نصدق ان ذلك الذي نراه حقيقة من حقائق الحياة ، وانما شيئا اشبه بشريط سينمائي ملون .

كان الرفاق يلتهمون كل شيء بعيونهم التهاما .. حتى الناس الذين كانوا يستروحون النيل ، على الكورنيش ، كانوا يتطلعون في دهشة الى تلك المخلوقات الغريبة التي تحملق من العربات ، وكأنها ترى الحياة لأول مرة .

نزلنا امام محطة الجيزة وقد فرض عليها حصار شديد من رجال البوليس السري والعلني ، ودخلنا الى الرصيف يحمل كل منا في يده حقيبة ، ويحمل على كتفه البرش الذي لفت فيه بطاينته وملابس السجن وآنية الطعام . وكان المنظر غريبا لولا الحقائق التي نحملها ، ولولا الحراسة

المشددة ، لتصور من يرانا اننا احدى فرق العمال التي تستجلب من الصعيد  
لاعمال البناء الشاقة ، التي تحتاج جهدا عضليا غير عادي ولا يحظى عملها  
الا باجر زهيد ، ولا يجد الآلاف من ابناء الصعيد الفقراء غيرها سبيلا  
للهرب من الموت جوعا .

وفي الحادية عشرة وصل اكسبريس الصعيد ، واطلت الرؤوس كثيرة  
من نوافذ العربات وهي تمر بنا ، وامتدت اياد كثيرة من عربات الدرجة  
الثالثة تلوح لنا ، وعبارة تتردد : هؤلاء هم الشيوعيون وما كان ابلغها عبارات  
تعبر عن شوق مواطنينا اليها .

وحشرنا انفسنا في عربتين ملحقتين بالقطار خصيصا لنقلنا ، كانت  
العربتان خاليتين من المقاعد وابوابهما كأبواب الزنازين لها مزاليج ضخمة  
ونوافذها كنوافذ الزنازين مقفولة بشبكة من القضبان الحديدية .

استلقينا على امتعتنا ومضى القطار رغم ان الليل قد انتصف ، فلم  
يرض احد منا ان ينام بل جالسنا الى النوافذ نمتع ابصارنا برؤية الوادي  
الحبيب ، وتعالق اغانينا الشعبية وحراسنا ، حتى الضباط المرافقون لنا ،  
طالما انهم قد ابتعدوا عن اعين المباحث العامة ، اندمجوا معنا في دردشاتنا  
وسخرياتنا من النظام ونقلوا الينا اخر احاديث مواطنينا ، واخر ما تردد  
بينهم من اخبارنا واخبار تمديننا ، واخبار شهدائنا . ونقلوا الينا اخر نكاته  
تعبيرا عن سخريتهم بالنظام . يردد مواطنونا ، كما قال لنا هؤلاء الحراس  
تلك الفكاهة : « ذهب عبد الناصر مساء الى احدى دور السينما يرفه عن  
نفسه ، متخليا عن كل الاعتبارات الرسمية ، ودون ان يظهر حقيقة شخصيته  
لاحد ، وقبل ان يبدأ العرض الرئيسي ، عرض فيلم اخباري قصير ، ظهر  
عبد الناصر خلاله في مناسبات مختلفة ، وكلما ظهرت صورته على الشاشة  
صفق الجمهور ، ولحظ رجل يجلس الى جانبه انه لا يصفق عند ظهور  
صورة الرئيس على الشاشة ، فلكزه وهو يقول هامسا : « صفق والا ذهبوا  
بك الى الاوردي » .

لقد كان سلوك هؤلاء الحراس يدفع المرء الى ان يقف قليلا متأملا . . .  
هؤلاء الحراس الذين يؤدون عملهم في روتينية بحتة ، والذين اذا ما انفردوا  
بنا كمعارضين للنظام ، بعيدا عن اعين المباحث ، بدأوا يسخرون من النظام  
في حرية تامة . . واولئك الجنود الذين يودعوننا بالاحضان في الاوردي ،  
وجنود المباحث الجنائية العسكرية الذين كانوا يساعدون رفاقنا هناك في  
محتنهم ، ونماذج كثيرة من هذا القبيل وحينما يقف المرء امامها متأملا . .

لا يملك الا ان يخرج بنتيجة واحدة : ان النظام القائم يرتكز على قاعدة لا تؤمن به ، ولا الجهاز الاداري الذي يقف على قمته يؤمن به .. هذه الالاف من رجال المخابرات والمباحث العامة ، هل ستستطيع ان تبقي النظام طويلا على ارض لا ترضى تربتها بان تمتد جذور الناصرية في بطنها ؟ هل ستستطيع تلك الالاف من رجال المخابرات والمباحث ان تثبت الناصرية طويلا على فوهة بركان نائر يرفض ان يظل مختنفا ؟ .

كل المحطات التي مررنا بها كانت تموج برجال البوليس السري والعلني ولم يمنع ذلك الواقفين بالمحطات من مواطنينا من التلويح لنا بأيديهم .. وفي احدى المحطات اقترب من عربتنا صبي من باعة الثلجات وقال بسرعة : « شدوا حيلكم » ، وقلنا له حتى نعرفه بانفسنا « احنا شيوعيين » ، فقال بسرعة « احنا عارفين انكم شيوعيين ، وعارفين كل الي جرى لكم .. البلد كلها عارفة كل حاجة .. وكنا عارفين انكم جاين » .

لم يكن هناك وقت لنعرف منه كيف وصلتهم اخبارنا واخبار ترحيلنا ، ولكن على اية حال كانت لتلك الكلمات فعل السحر في نفوسنا ، ان مجرد معرفتنا ان مواطنينا كانوا يذكروننا دائما ، وانهم كانوا يتتبعون اخبارنا ، كانت تمنعش معنوياتنا بدرجة مذهلة بل كانت تفصل عنا عناء الشهور التي قضيناها في الاوردي .. وتهون علينا السنوات المقبلة في المنفى ..

طلع علينا الصباح بعد ان غادر القطار مدينة اسيوط . وكم كان رائعا وكم اهتزت ضلوعنا ونحن نرى في الحقول فلاحا توقف عن العمل واتكأ على فأسه او على دفة محراثه ووقف يرقبنا ويلوح لنا ..

وعند الظهر توقف بنا القطار في محطة «المواصلة» وهي محطة صغيرة بعيدة عن العمران ، مع بداية الطريق الحديدي المتجه الى الواحات الخارجية ، على بعد مائتي كيلومترا في الصحراء ، بعيدا عن وادي النيل ، كانت تلك المحطة الممزولة اشبه بميدان حربي فقد حوصرت تلك البقعة الصغيرة بحوالي ثلاثمائة من الجنود مسلحين بمختلف الاسلحة من المسدس الى مدافع البرن والقنابل اليدوية .

وكان في انتظارنا قطار مكون من عربتين وقاطرة ديزل . فانتقلنا اليه حيث سار بنا الى الصحراء .. وبعد قليل غاب الوادي تماما عن الانظار ، ولم يعد هناك ما تطل عليه اعيننا سوى الكشبان الرملية ، الصحراء التي لا يحدها البصر .. الا ان رفاقنا الذين سبق لهم ان جاءوا الى سجن الواحات الخارجية نبهونا الى الا يفوتنا منظر « غيظ البطيخ » والواقع انها ظاهرة

طبيعية غاية في العجب فعلى مساحات شاسعة من الصحراء فسي منتصف الطريق تقريبا كانت تنتشر على الارض عشرات الآلاف من الصخور السوداء الصغيرة والمستديرة الشبيهة بالبطيخ، ومن حين لآخر كنا نمر بتلال رملية ذات الوان مختلفة وفيما عدا ذلك كانت الصحراء عادية . .

وحوالي العاشرة مساء توقف القطار في محطة المحاريق وهي قرية صغيرة على مشارف الواحات الخارجة ومعروف انها كانت تستخدم من ايام الرومان منفى لاعدائهم ، كما نفى فيها ايضا الزعيم احمد عرابي قبل نقله الى سيلان ونفى فيها سعد زغلول وغيرهما من انسياسيين .

كان في انتظارنا الصاغ فريد شنيشن قائد السجن ، وضباطه وحراسه ، وجنود الكتيبة المكلفة بحراسة السجن ، فحملنا امتعتنا وسرنا بين صفين من جنودها على ضوء الفوانيس ، حتى وصلنا السجن الذي يبعد حوالي ٥٠٠ متر ، ان السجن يقع على مساحة تقدر باربعة افدنة ، وبخلاف مبنى الادارة يتكون السجن من ثلاثة عنابر متوازية بكل عنبر عشرون زنزانة . وكانوا قد اخلوا لنا عنبر (٢) ، فادخلنا ابيه ، ولم يسمحوا لنا الا بشعانية زنازين ، حشر في كل منها اربعة عشر منا .

ولاول مرة منذ شهور طوال تذوقنا اكواب الشاي ، فلقد كانت بحقائبنا المخزونة طوال تلك الشهور بعض الكميات من الشاي والسكر ، وزعناها فيما بيننا بواسطة سجانة العنبر ، الذين قابلونا بترحاب شديد ، وزودونا بعد انصراف الضباط بمواقد بدائية مصنوعة من طوب السردين ، خلفها رفاقنا الذين كانوا يسكنون العنبر .

ومع الشاي ، اشعلت لفافات التبغ مما كان محفوظا في امتعتنا ، واشترك كل خمسة او ستة من الرفاق في تدخين اللغافة الواحدة .

ومع الشاي ، ولفافات التبغ والخواطر الشتى التي ازدحمت بها صدورنا حينما تجسد لنا الواقع الجديد . . منفى في جوف الصحراء يباعد ما بيننا وبين وادينا الحبيب بمئات الاميال من الرمال الصفراء . . من التلال والجبال . . من الحر القائلظ نهارا والبرد القارس ليلا . . من الحنين والحب . . وخواطر عن ثوار عرفتهم المنافي قبلنا ، وثوار يعانون آلام المنفى معنا في هذه الايام . . ثوار اثينا ولشبونه ومدريد . . مع كل هذا انطلق زميلنا النبوي « حمام » بصوته الاغريقي الممتلىء يعني وقد اسند رأسه على قضبان باب الزنزانة حتى يسمع كل الرفاق ، اغنية بول روبسون :

مدريد

ومقاومتك الباسلة  
يا أمي الحبيبة  
كانوا يريدون الاستيلاء عليك  
ولكن ابنائك الشجعان  
يا أمي الحبيبة  
كلهم دافعوا عنك  
ولكن في مساء عيد ميلاد حزين  
يا أمي الحبيبة  
شنعوا جميعا .



الجزء الخامس

وجها لوجه

# الفصل الأول

## أكلة الضهير

لا يدري احد ، على اية صورة كانوا يدبرون لوضعنا امام ذلك الاختيار النهائي في الاوردي . بين الحياة والعقيدة . لو لم يجبروا علي وقف الضرب كأخطر اشكال التعذيب هناك ، ولكنهم على اية حال بدأوا يتلمسون اي حصاد انضجه التعذيب بعد ان نقلونا على دفعات الى منفى الواحات حيث تجمع بها حوالي خمسمائة معتقل .

ذات صباح حضر الى العنبر الضابط عبد العال سلومه فأخلى بعض الزنازين ، واعلن انه على كل من لا يعتبر نفسه شيوعيا ان يتوجه اليها ، فسارع اليها عشرات من غير السياسيين واولئك الذين تهاووا تحت وطأة التعذيب في الاوردي ، فابتعدوا عن التنظيم الحزبي ، وطلب اعضاء المجموعة المنقسمة ان تفرد لهم زنازين خاصة يعيشون فيها بعيدا عن اعضاء الحزب .

بدأ ذلك الضابط يستدعي اولئك الذين سارعوا الى زنازين غير الشيوعيين ويطلب منهم ان يكتبوا تأييدا للحكومة ولسياستها وان يعلنوا فيما يكتبون انهم ليسوا شيوعيين . وما كاد ينتهي من تلك العملية حتى حضر للسجن العقيد حسن المصيلحي مستشار الرئيس لمكافحة الشيوعية ، وبصحبه البكباشي احمد صالح داود ، مدير مكتب مكافحة الشيوعية ، واخذوا في استدعاء عدد من المعتقلين فردا فردا ، فمن ابدى استعدادا لتنفيذ تعليماته امر بعزله ، وبلغ عدد المعزولين على هذا النحو حوالي عشرين معتقلا .

بعد مضي خمسة عشر يوما تقريبا ، اي في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٦٠ خرجت من الواحات قافلة من ٧٤ معتقلا ما بين مستقلين ، وحزبيين واطباء في مجموعة المنقسمين ، كما ضمت اولئك الذين كان المصيلحي قد امر بعزلهم ، واتجهت تلك القافلة الى معسكر العزب بمديرية الفيوم . . .

ويومها كان هناك موقفان في سجن الواحات الخارجة فاعلنت كل من مجلتي « الهواء » و « الطريق » وهما مجلتان ناطقتان يصدرهما الحزب الشيوعي : ان ترحيل المعتقلين الى معسكر العزب بالفيوم هو استمرار في خطة تصفية المعتقلين سياسيا ، وانهم سيوضعون هناك في معتقل العزب على عتية الحياة ، ثم يخبرون بين استنكار الشيوعية وما يتبعه من الافراج عنهم او العودة الى منفى الواحات ، اما اعضاء المجموعة المنقسمة فقد تجمعوا حول احد كبار قادتهم ، الذي اخذ يرقص على تصفيق اتباعه ويصيح قائلا « خط الافراج .. النصر يا اولاد .. الثقة بيننا وبين الحكومة بدأت تعود يا اولاد » .

ان العودة الى الواحات كانت تعني العودة الى طوابير السخرة تحت شمس الصحراء المحرقة من الثانية صباحا الى الثانية ظهرا وكانت تعني ان تعود الاقدام الحافية لتحترق بالرمال الملتهبة وان تدمي من الشوك والحصى . والعودة الى الجوع ، الى الحساء النازي ، الى الزنازين الممسة مدة عشرين ساعة في اليوم ، وكانت تعني العودة الى ملابس السجن الخشنة والى الحرمان من كل شيء ، من صحيفة او كتاب ، او خطاب من الزوجة او الخطيبة او الام والاب .. من الابناء او الاخوة ، كانت باختصار تعني ان المرء سيلقى مرة اخرى في تلك البقعة المهملة .. السحيقة في جوف الصحراء وما يدري متى يعود منها .

ولئن كانت سياسة القتل المباشر قد توقفت ، فانما لتبدأ سياسة الموت البطيء ، حيث الامراض تفتك بنا ، امراض بسبب سوء التغذية ، وامراض بسبب الارهاق ، واخرى بسبب القذارة التي مفروض ان نعيش وسطها ، امراض الصدر والمسالك البولية والروماتزم والحمى الروماتيزمية . ولا علاج لاي منها ، بل حتى الانفلونزا كثيرا ما يندر ان يجد المرء اقراص الاسبرين لعلاجها .

وعلى واقع من تلك المقارنة البشعة يذهب حسن المصيلحي الى معسكر العرب بالفيوم ليواجه المعتقلين هناك بهذا الاختيار الصعب ، الحياة والعودة الى الاهل والى العمل على بعد ساعتين عبر الطريق الصحراوي من الفيوم الى القاهرة ، او الواحات عبر الطريق الطويل الشاق ، الى المنفى والحرمان والسخرة .

استنكار الشيوعية او الموت البطيء ...

تقديم اعترافات مكتوبة عن كل صلاتك السياسية ، او الموت البطيء ...

ان تكون بعد خروجك اداة طيعة في ايدي المباحث العامة او الموت

البطيء ..

واستخدموا كل الوسائل حتى يكون الاختيار الى صفهم : خطابات من الاهل مع صور الاطفال ، مفتاح شقة احد الرفاق يقدمه له « المصليحي » قائلا : « لقد ارسلته زوجتك معي اليك انها تنتظرك هناك » لقد اتوا للمعتقلين بكل ما يجعل رائحة الحياة قوية في خياشيمهم .

وذلك الشيخ الكبير « عبدالعليم عمارة » الذي يعاني مرضا مزمنيا في عينيه ، يستدعيه المصليحي ويقول له : « انت تعلم ان زوجتك واولادك الاربعة قد ماتوا في حادث تسمم اثناء اعتقالك ولم يبق لك من اسرتك الا طفلتك اصغر ابناؤك ، اتريد ان تتركها لتموت هي الاخرى بسبب اهمالك لها ؟! » ويرد الشيخ الذي يحمل بين جنبه كل نقاليد البروليتاريا ونضاليتها: « اما زوجتي واطفالي الاربعة فانت قاتلهم ، واما طفلي التي تبقت لي فدعها وشأنها . »

وانصرف المصليحي وجاء من بعده بعض ضباط المباحث ، استدعوا المعتقلين واحدا واحدا بكل عنجهية ، وبورقة بيضاء وقلم يقدمونهما يسألون سوالا واحد مختصرا . هل ستكتب ؟

من قال نعم اعطي الورقة والقلم ، ومن قال « لا » ، اعيد الى عنبره ، كانوا ثمانية وثلاثين هم الذين تلقفوا الورقة والقلم ، وستة وثلاثون هم الذين رفضوا . . ووضع من تلقفوا الورقة والقلم في عنبرين وسمح لهم بالنوم على الاسرة ، وسمح لهم بقراءة الصحف وبالاستماع الى الراديو ، وتركت لهم الابواب مفتوحة طوال النهار .

اما الستة والثلاثون الاخرون فتركوا ليناموا على ابراش رقيقة وغطاؤهم بطانيتان مهلهتان والابواب مغلقة عليهم الا ساعة في الصباح ، واخرى في المساء . بصوت الراديو . . الاخبار والموسيقى ، والفناء . . صوت الحياة ياتيهم من بعيد من عنابر المستنكرين مشوشا غير واضح ، وتمط الاذان عليها تسمع شيئا من صوت الحياة ولكن يصددها صوت المستنكرين وقد اوقفوهم طابورا وجعلوهم يهتفون بحياة عبد الناصر وبسقوط الشيوعية . وخلال ذلك تقذف المباحث العامة اولئك الذين استعصوا عليها بخطابات من ذويهم ، من الزوجة ، من الطفلة او الطفل يطالبون فيها الازواج والاباء بالعودة ، ولكن تمر الاسابيع والذين قالوا « لا » لا تتخلخل صفوفهم فتصدر الاوامر باعادتهم الى سجن الواحات الخارجة .

اما اولئك الذين اختاروا الورقة والقلم فقد رحلوا فيما بعد الى معتقل القلعة في القاهرة حيث امضوا ثلاثة شهور يستمعون فيها الى محاضرات من الدكتور طعيمة الجرف والشيخ محمد ابو زهرة وغيرهما من اساتذة

جامعة القاهرة الذين ارتضوا ان يساهموا في تلك المهمة القذرة ، مهمة انتزاع العقيدة وتخريب الضمير . كانوا يلقون عليهم محاضرات حول الاشتراكية الناصرية ، وعن الشيوعية ومطامعها الاستعمارية ثم اجريت لهم امتحانات تحريرية فيما استمعوا اليه من محاضرات ، واعطوا الورقة والقلم من جديد ليسطروا مزيدا من الاستنكار للشيوعية ومزيدا من الاعترافات ... عن حياتهم السياسية ، وايدلوا بمعلوماتهم التي تجمعت لديهم عن الشيوعيين اثناء اقامتهم معهم في المعتقلات .

كان بين اولئك الذين سقطوا اربعة من اعضاء الحزب لم يصمدوا للتجربة ، واثنا عشر من المجموعة المنقسمة والباقون كانوا من غير السياسيين ولقد كان من بين الذين عادوا الى الواحات شخصيات ديمقراطية منهم : الدكتور فوزي منصور عضو المجلس القومي للسلام ، والنقابي حامد ابو قمر ، والنقابي سيد العطار رئيس نقابة عمال السكر بكرم امبو والدكتور فائق فريد عضو مجلس الامة السابق ، والدكتور حسين كمال اندين عضو المجلس القومي للسلام .

وفي هذه التجربة يتكشف جانب جديد في عريضة رجال المباحث ، واستهتارهم بالانسان واحتقارهم له ، واستعدادهم للتضحية به في تجاربهم المختلفة من اجل تحقيق اغراضهم .

لقد شهد « بوخوالد » كيف استخدم النازيون المعتقلين السياسيين لكي يجروا عليهم ما سمي بالتجارب الطبية كوضعهم في الماء الثلج لاختبار تأثير البرودة على الانسان او تركهم ليلا في العراء عراة الاجسام لمعرفة ما سيتركه ذلك فيهم من آثار او حقنهم بجراثيم الامراض الفتاكة لتتبع تطور المرض فيهم ، ولا يذكر الفيورون على قدسية الجسد البشري تجارب اخرى اجريت على الانسان كتلك التي اجريت في بلادنا ، لقد تبين لنا في الاوردي سر اعتقال تلك الاعداد الفقيرة من المواطنين العاديين الذين لم يسبق لهم الاشتغال بالسياسة او حتى الاهتمام بها ، لقد اعتقلوا وعرضوا لكل تلك التجارب المميته ليكونوا قوة انهزامية في صفوف المعتقلين اما اليوم وبعد رحلة الفيوم ، فقد تكشف جانب اخر من ذلك السر .

ان رجال مكافحة الشيوعية ، الذين خبروا الشيوعيين المصريين اعواما طويلا ولمسوا مدى عنادهم وصلابتهم ، لم يكونوا واثقين تماما من نتيجة حمامات الدم المصحوبة بعملية غسيل المخ ، ولذلك فقد اعدوا ذلك الرصيد الكبير من العناصر التي لا ترتبط بعقيدة ما تقايل من اجلها والتي لا يعنيه كثيرا ان تعلن استنكارها للشيوعية خصوصا بعد ما عانوه في الفيوم

والاوردى وبذلك يضمون قائمة طويلة من مستنكري الشيوعية يستعرضونها امام الراى العام المحلى وواعالى يشوهون بها سمعة الشيوعيين المصريين ، ويظهرونهم بمظهر المنهارين بالجملة ، ومن ناحية اخرى يثبتون كفاءتهم فى محاربة الشيوعية .

لقد احترقت فى الفيوم بعض الاوراق الجافة ، اوراق اثنتها جراح ابى زعل وببستها شمس الواحات الملتهبة ، اوراق ذابلة هزيلة ، تفتت بسا حملت من افكار مرتدة متعبة ، الا ان قوى الطليعة ، وانصار السلام ، والنقابيين والديمقراطيين الشرفاء ، عادت وقد ركلت محرقة النظام ، وبصقت عليها ، عادت اشد مضاء وعزما ، لم يرهبها الوعيد بحبس مديد ، ولا الترغيب بالمستقبل المفتوح والزوجة والولد الحبيب .

وفى الواحات استقبل العائدون استقبال الابطال ، وفى قلب الشاعر ، هذا القلب الذى عاش المعركة ، عاشها بكل ابعادها السياسية والنضالية والانسانية انطلق النغم تحية للمناضل ، وصرخة فى وجه المرتد . . فى وجه الراكع . . .

كان مناضلو قطاع غزه الفلسطينيين قد جىء بهم من السجن الحربى بعد ان امضوا فيه عاما ونصف بين كلابه المتوحشة وسياطه المجدولة من السلك ، جىء بهم الى الواحات لتفرض عليهم معنا نفس المعركة ، الجوع ، والسخره والعري والحفاء ، ويساهم المناضلون الفلسطينيون فى المعركة ضد التصفية ، وتنطلق قصيدة « المرتد » يلقي بها الشاعر الفلسطينى « معين بسيسو » قذيفة مدوية فى وجه الارتداد ويتلقفها الرفاق سلاحا يشهرونه فى وجه اعداء الفكرة واكله الضمير البشرى .

المرتد . . . . .

اركع للورقة

اغرس قلمك

فى عينى طفلك ، واكتب ما امرك

ان تكتب من ذبحك

بالقلم على عتبة بيتك

كوم ايامك قدامك ، اوراقا واسأل

لا تخجل

جلادك عن عود ثقاب

اعجن من وحل دخانك ، ورمادك ،

صفحات كتاب

امجن اوراقك وتذكر  
لو كان الميت يتذكر  
انك من هذي الكلمات تضفر  
حبلا ، وتعلق من هذي الاسطر  
عض كذئب قلب حبيبتك ،  
وقدمه على طبق من ورق اصفر  
قص ضفائرها لتضمد  
جرح الضبع الاسود  
الدغ كالمقرب عينيها اقدم  
لا تحجم  
اقدم واقرع  
كالضفدع  
اجراسك للمستنقع  
وقع وقع  
اسمك في ذيل الورقة وقع  
وقع وتسلل  
كاللص الى بيتك واحذر  
ظلك ان يقع على مصنع  
فامضغ ظلك منديلا من سم واهرع  
اطرق اطرق  
بابك حتى تتمزق  
يدك فلن تسمع  
خطوة من كانت تهواك ويخفق  
ساعدها في يدك كسيف من ماس  
وكبيرق  
فالان كمود رماد وكخيطة دخان اسود  
ساعدهك تبدد  
اقرع اقرع  
لن تسمع خطواتها لن تسمع  
قد نزعت طوقا من شوك  
خاتمك من الاصبع  
المهرب ابن المهرب

لم تقهر اطفال لينين ولم تعذب  
قد كذب المخلّب  
قد كذبت كل عصى الجلاد فلم تغشل  
في ابي زعبل  
اطفال لينين ولم تهرع  
تملاً شدقي ذنب الفيوم الاصفر  
ورقا هو لحم الحزب وقد فتح  
علما من ورد احمر قد فتح  
يتحدى سكين المذبح  
فاغرز عينيك كظفر وتطلع  
لو تقوى ان تتطلع  
انا المح فوق الرمل الاصفر  
قضايا المزة « تتكسر »  
ودمشق بدمية « عمار » دمشق تلوح  
لكم اطفال القاهرة تلوح  
فتطلع ولتتوقد  
على عنقك جمرة جرح اسود  
جمرة جرح لا يخمد  
فتطلع لو تقوى ان تتطلع . . ان تنصور  
قلب فريد المصاب على قلبي نور  
كروانا احمر  
قلبي كروان احمر  
قلبي حنجرة الاسوار ولن يهدأ يصدح  
لن يهدأ شرر الاغنية يقدم  
القلم السكران من السم ترنج  
عبثا يسنده السجان وتسنده الاسطر  
والذكرى موجة شوك تتكسر  
فوق جفونك وتورق  
حتى الصمت ، فلا يهدأ بالقدم  
العريانة يطرق  
ارض الزنزانة ، والليل على  
صدرك باب مفلق



سجانك اقبل  
كالحفرة كالمعول  
اين ستمضي ؟ البيتك ؟  
بيتك في ظهرك خنجر  
الطفلك ؟ طفلك فوق صليب  
الاوراق بدميته سحر  
ستساق الى الشارع فتمثر  
في ظل السجان تعثر  
اين ستمضي والريح تطير  
خطواتك اسطر ورقة .

## الفصل الثاني

### بصقة فو وجه الذئب

مرة اخرى يتسلل ذئب الفيوم الى الواحات ، على امل ان يملأ شذقيه بأوراق جديدة عليها تكون قد جفت وتساقطت بفعل شمس الصحراء الحارقة ، والمنفى البعيد ، والحرمات الطويل .

في صباح ذلك اليوم ، الثاني عشر من فبراير ١٩٦١ ، ساد سجن الواحات الخارجة جو غير عادي ، وسرت شائعة ان شخصيتين كبيرتين من وزارة الداخلية في طريقهما الى السجن . توقعنا ان القادمين هما : حسن المصليحي واحمد صالح داود ، فتجمع المعتقلون في احدى الزنازين في عنبر (١) والقى فيهم فخري لبيب كلمة عن طبيعة تلك الزيارة وما هو موقفنا منها ، ثم اسرع الى عنبر (٢) حيث تجمع المعتقلون المقيمون فيه والقى فيهم كلمة اخرى .

**قال فخري لبيب في كلمته :**

« ايها الرفاق :

يا من حملتم على عاتقكم عبء نضال مر ، نضال شاق ، يا من واجهتم الفيوم وهزتموه ، وعلى انقاضه ارتفعت اغانيكم وانشيدكم ، يا من واجهتم الاوردي ، ووضعتم حدا لمذبحته ، يا من عشتم ايام السخرة اقوى من اعدائكم واشد مضاء وكرامة من سجانكم .

ايها الرفاق :

يا من تصنعون اليوم ملحمة نضال خالدة ، وتعيشون اياما سوف تخفق فوق بلادنا رايات ظفر وانتصار .

اننا نواجه اليوم ذلك الجزار ، ذلك الرجل الذي يحضر الينا وفي اعتقاده اننا خراف سهل ذبحها او جزّ صوفها « احين الذبح » . ولكننا ابنا

الشعب المصري أبناء عرابي ومحمد فريد ورجال ثورة ١٩ ، أبناء العمال والفلاحين ، أبناء « دنشواي » « ويهوت » وكفر الدوار وشبرا الخيمة ، نحن ورثة كل امجاد شعبنا ونحن حملة الامانة خلال هذا التاريخ . نحن لسنا وحدنا ، اننا جزء من معركة عاتية في الشرق العربي ، جزء من قوى النضال الوطني الديمقراطي في بلادنا ، جزء من قوى التحرر العربية ، جزء من قوى السلام والاشتراكية على النطاق العالمي . اننا نواجه مندوب النظام ، وكل منا تراث من النضال ، وكل منا يمثل هذه الامجاد وكل منا يعبر عن اصرار شعبنا وعناده .

ان ثمانين عاما في النضال الديمقراطي تتطلع اليها اليوم ، ثمانون عاما منذ وقف عرابي على صهوة جواده يركل الخديو باسم الشعب ، باسم الفلاحين ويطالب بحياة دستورية .

ان محمد عثمان وفريد حداد وطابور الشهداء ، هؤلاء الذين رسموا لنا طريق النصر وكانوا علامات الدرب الظاهر نحو الديمقراطية والاشتراكية ، يتطلعون الى دمائهم وقد جرت في عروقنا ، هل صارت ماء باردا ، او وقودا مضطربا من اجل الاهداف التي ماتوا في سبيلها . اننا اليوم نستلم نضال رفاقنا في اسبانيا والبرتغال واليونان وفاقنا الذين صنعوا اكتوبر ، في موسكو وفي بكين ، وفاقنا في كل مكان . اننا نقف في ذلك الطابور المترامي ، الطابور الزاحف المنتصر ، اننا باسم تراث شعبنا وامجاد ونضاله وراياته ، وباسم تراث الانسانية التقدمية نواجه العنف ورايات الطغيان .

ان عبدالناصر يعلن دوما انه على موعد مع القدر ، ونحن هذا القدر ، نحن قدر الناصرية ، نحن الصخرة التي ستمزق عليها الرايات الشرسة ، رايات العدا للديمقراطية والاشتراكية والشيوعية .

وفوق كل الرايات ستملو رايتنا ، وفي المقدمة راية حمراء صيغتها دماء الشهداء ترفرف مزهوة ، لقد عبدوا الطريق وسرنا على الطريق . فلنواجه مندوب النظام ، بكل عناد شعبنا وعراقة نضاله ، اننا نواجه باسم الام وباسم الابن ، باسم الاسرة باسم الوطن باسم الاب وباسم الشعب . ليوافق كل منا هذا الرجل لا كفره ولكن كمثل للشعب . كمعبر عن حركة التاريخ ، كمعبر عن الثورة التي تغلي لتنضج في المستقبل .

والواقع ان يوم الثاني عشر من فبراير ١٩٦١ كان مسرحا لمعركة بين رايتين واحدة منهما تحمل تراث شعبنا المجيد في معاركه الباسلة طوال القرون ، والاخرى تحمل تراث كل الرجعيين والمستعمرين الذين ناضل

شعبنا بلا هواده ضدهم ، الاولى رايتنا نحن الشيوعيين . ورثة كل بطولات شعبنا والثانية راية مكافحة الشيوعية ، ورثة كل العفن الذي ركله شعبنا وناضل لفصله بدماء شهدائه .

لقد خاض الشيوعيون معركة ذلك اليوم ترفرف عليهم راية رائد ابطال المقاومة الوطنية في التاريخ الحديث ، السيد محمد كريم :

كان السيد محمد كريم حاكما للاسكندرية حينما زحف عليها نابليون بجيوشه في اواخر القرن الثامن العاشر . ورفض السيد محمد كريم الاستسلام ، وحصن المدينة ونظم اهله للمقاومة ، ولم يستطع الفرنسيون ان يحتلوا الاسكندرية الا بعد معركة عنيفة ، فقدوا فيها الافا من رجالهم ، وجرح فيها اعلى ضابطيين في الحملة ، كليبر ومينو ، وكاد يقتل فيها نابليون نفسه ..

وبمسالة محمد كريم ، وبفدائية قائد الاسكندرية البطل ، واجهنا نحن الشيوعيين ، اصلب من حمل راية الوطنية ، ابطال معارك المقاومة الوطنية في ميدان الاسماعيلية امام ثكنات قصر النيل ، وامام القيادة البريطانية في الاسكندرية ابطال الكفاح المسلح في القنال ، رفاق الشهيد عباس الاعسر ، ابطال المقاومة السرية في بور سعيد ، رفاق الشهيد الشيوعي حسن حمود ، واجهنا حسن المصليحي ، رئيس مكتب مكافحة الشيوعية ، ومستشار الرئيس لهذه المهمة ، الذي يدبر لنا نحن اعز ابنا ووطننا الموت كما دبر « مينو » الموت للسيد كريم .

كان الفزاة الفرنسيون في ١٧٩٨ هم اول من حاول حرمان شعبنا حقه في الاشتغال بالسياسة ومناقشة مقدراته ، وحينما لمحو نذر الثورة تتجمع ، اصدروا بيانهم الى الشعب محذرين فيه .. « انه على العامة ان يتركوا الفضول والكلام في شئون الدولة .. وانه ان بلغ الحاكم من المتجسسين عن احد يتكلم في ذلك عوقب او قتل » .

ان شعبنا اليطل لم يهرب انذار الفرنسيين ، بل جعل مقامهم في مصر اشبه بالمقام في الجحيم ، وظلت المقاومة مشتعلة في كل ركن من بلادنا وقدم شعبنا ابطالا وشهداء في المعركة ضد الفرنسيين متحدين انذارهم بعدم « الكلام في امور الدولة » متحدين اوامر نابليون بحرق القرى ونهبها وقتل كل من يبدي مقاومة .. قدم شعبنا محمد كريم الذي ظل يقود وينظم المقاومة في الاسكندرية . وبينما قبض عليه الفرنسيون رفض في كبرياء ان يدفع مبلغا من المال ، او ان يعتكف في داره مقابل الافراج عنه .. وقدم شعبنا السيد عمر النقيب ، واحمد المحروقي قادة ثورة القاهرة وقدم

المناضل « ابو فورة » بطل « المنصورة » وابن شقير بطل فرية « عسما :وحسن طوبار قائد جيش الفلاحين في المنزلة ، والامام مهدي قائد جيش الشعب في دمنهور .

لقد وجه النظام للشعب نفس الانذار الذي وجهه اليه الفرنسيون قبل قرن ونصف ، ففي اول يوم لهم حذروا من انهم سيضربون بيد من حديد كل من يقوم بالمظاهرات ثم شنقوا خميس والقبري لانهم تجرأوا وقادوا العمال في المطالبة بحقوقهم ، وتطور نظام يولييو في محاولته ابعاد الشعب عن مناقشة « امور الدولة » وعن العمل بالسياسة ، فحرم قيام الاحزاب السياسية ، وحرم اصدار الصحف والى الحياة النيابية ، واحتفظ لنفسه وحده بحق الاشتغال بالسياسة ، وبحق مناقشة امور الدولة ، وبحق اصدار الصحف !

وكما لم يكثرث شعبنا بانذار الفرنسيين ، لم يكثرث شعبنا بانذارات النظام ، وقدم كل ركن في وطننا مناضلين اشداء من اجل حق الشعب في الاشتغال بالسياسة ومناقشة امور الدولة وابداء رايه في مقدراته . وكما استخدم الفرنسيون « المتجسسين » للتبليغ عن مناقش امور الدولة انتشرت المباحث والمخابرات في كل شبر من ارضنا للارشاد عنمن يتجرأ على الخوض في امور الدولة . لقد قتل الفرنسيون مواطنين ابطالا رفضوا انذار الفرنسيين وتحذوه ، وقتلت السلطة مناضلين بوسائل رفضا الوصاية على شعبنا ، واخيرا ياتي مندوب النظام ليطلب منا الكف عن الاشتغال بالسياسة والتخلي عن عقائدنا التي تحدد لنا موقفنا من امور الدولة ، متى تكون لصالح الشعب ومتى تكون معاكسة لها . بعد ثرن ونصف من الزمان ياتي مندوب النظام ليتحدث بلغة المستعمرين الفرنسيين ايام غزوهم لبلادنا .

\*\*\*

وبدأت المعركة ..

اتخذ حسن المصليحي مستشار عبدالناصر لمكافحة الشيوعية هو ومعاونه احمد صالح داود مكانهما في مكتب قائد السجن وبدأ يستدعي سكان كل زنزانة من المعتقلين دفعة واحدة .

كان اول من استدعاهم سكان الزنزانة رقم (1) بعنبر 1 ، وكان يقطنها بعض المصريين ، وبعض المناضلين الفلسطينيين من قطاع غزة . وفي مقدمة سكان الزنزانة ، دخل احمد يس عبدون ، وهو مناضل قديم من ابناء اسوان .. ودهش المصليحي حينما وجده يتوجه مباشرة الى

ترسي « فوتيل » بجوار المكتب ثم يجلس عليه فقال له : « لم تجلس؟ » فرد عليه المناضل الاسواني .. « ولم اقف؟ » .. و « امام من اقف » . قال له المصليحي: « طب استاذن اولا في الجلوس؟ » .. فرد عليه عبدون : « استاذن منك انت؟ .. اسمع نحن اننا مطالب .. لا بد من وقف هذا الاسلوب الذي تعاملوننا به .. اننا نريد دستورا ديمقراطيا ، اما دستوركم هذا الذي تضمنونه فانه يولد سفاحا .. والشعب لا يعترف به » ..

واستمر المناضل الاسواني يكيل الاتهامات للمصليحي وللنظام ، ويذكرهم بمقتل محمد عثمان وفريد حداد وغيرهم من الشهداء ..  
لقد بلغ من عنف المناضل عبدون في هجومه ان استفز احمد صالح داود والمصليحي فقال داود : « نعم .. نحن امرنا يقتل محمد عثمان وفريد حداد » .

فقال له عبدون « اذن نستحاكمون كقتلة » .. وعلى صوت تلك المشادة جاء المأمور والوصول وقوة من الجنود فأخرجوا عبدون وزملائه من امام المصليحي .. وكانت كلمات عبدون هي الطلقة الاولى في معركة ذلك اليوم ..

وتوالى بعدها القذائف في وجه المصليحي ..  
قال الاستاذ خليل عويضة مدير التعليم في قطاع غزة واحد قادة الجبهة الشعبية في قطاع غزة .. « ما شأنكم بنا .. ما شأنكم يا ممثلي السلطات المصرية ببناء شعب اخر ، قولوا انكم تتحكمون فينا كسادة .. وانكم بهذه الصفة تلقون بنا في المنفى في بلد غير بلدنا .. قولوا انكم فرضتم وصايتكم على بلدنا .. وانكبن بهذه الصفة تتصرفون معنا بلا قانون .. »  
لقد كان الاستاذ خليل عويضة واحدا من العشرات من المناضلين الفلسطينيين في قطاع غزة ، وعلى رأسهم الشعاعين .. معين بسيسو ، وعبدالرحمن عوض الله .. سيقوا من قطاع غزة في ابريل ١٩٥٩ - الى السجن الحربي في القاهرة ، ومعهم لاول مرة في تاريخ بلدنا فتاة في الثامنة عشرة ، هي « صهباء اليربري » لكي يذوقوا كل اصناف التعذيب في ذلك السجن اللعين من جلد بالسيط الجدولة من السلك .. الى الكلاب المتوحشة .. ثم جيء بهم الى الواحات في اغسطس ١٩٦٠ .

واستلمى المصليحي سكان الزنزاة رقم ٣ بعبير ١ .. كانوا اربعة عشر رفيقا ، ملابسهم ممزقة ، حفاة الاقدام ، ولكن نارا مشتعلة كانت تتأجج في صدورهم ..  
وحينما وقفوا امام جنس المصليحي ، واحمد صالح داود ، اخذ

الاخير في كتابة اسمائهم .. ثم نظر اليهم المصليحي بجفوته المتفتحة وقال:  
- هه ؟ ..

وتقدم فخري لبيب ليتكلم  
- احنا لنا مطالب ، هي وقتنا السخرة ، والسماح لنا بالجراندوالاداعة  
والمكتبه وزيادة التعامل مع الكاتنين والزيارة ..  
ولكن المصليحي قاطعه قائلا :  
- عندك حاجة ثانية ؟

وبدا الرفاق جميعا يتكلمون واحدا بعد الاخر ، كسل يعرض بعض  
المطالب .. وعاد فخري لبيب يؤكد تلك المطالب من جديد ..  
ولكن المصليحي عاد فقاطعه :  
- بلاش سفطة ..

فرد عليه فخري لبيب محتدا :  
- الاوضاع اللي انتوا فاضيها علينا هي السفطة :  
وقال المصليحي في برود ..  
- المسالة في بساطة .. انتو شيوعيين ؟  
وبلغ الاستغزاز اشده ، ورد عليه فايز علام سكرتير نقابة شركة مصر  
للغزل والنسيج الرفيع  
- ايوه ، امال انتو جاييننا من الكباريهات ؟ .. احنا جايين من  
وسط الشعب ..

وتدافع كل الرفاق : نعم نحن شيوعيين ..  
وصرخ المصليحي .. واسرع الصول المكلف بالحراسة يطلب من الرفاق  
الخروج ، ولكنهم شعروا انهم لم يوفوا ذلك الرجل حقه ، فحاولوا العودة  
مرة ثانية الى حجرته ، فتزاحم الجنود وضباط السجن لمنهم من اقتحام  
غرفة المكتب عليه ..

فصاح به فخري لبيب على متبة الباب :  
- انا فخري لبيب يا حسن مصليحي ، انا بقواك حاجي اليوم اللي  
نحاسبك فيه ، ودم محمد عثمان على رأسك وموش حانسيبك .. يا قاتل  
.. يا مجرم ..

وارتفعت اصوات الرفاق في مظاهرة علومة .. وتجمهر الرفاق الذين  
كانوا خارج الزنازين وكانت زنزانة رقم ٤ معدة لمقابلة المصليحي ، فسارت  
تهتف ضد الجزار وضد القاتل . ومنمها قائد السجن وجنوده من الدخول ،  
ثم اسرع المصليحي ومعاونه بمغادرة المكان ..

غادر المصليحي ومعاونه السجن .. وران الصمت على مبنى الادارة .. ولكن في داخل العنابر كانت مظاهرات تحية للرفاق الذين اجبروا المصليحي على الفرار ..

وجاءت انباء من خارج العنبر بان المصليحي قد اتجه هو ومعاونه وقائد السجن الى بلدة الخارجة حيث مقر المحافظ ..

وسرت اشاعة بانه يعد العدة بالاتفاق مع المحافظ لاستخدام العنف انتقاما لما حدث له .. لن تؤخذ على غرة مرة اخرى .. هكذا كان يفكر كل الرفاق .. ويجب ان نستعد لمواجهةهم .. فان يعود الاوردي مرة اخرى .. حتى ولو ادى الامر الى اشتباك دموي يسقط فيه العشرات وصدرت التوجيهات للرفاق :

رد اي اهانة .. مقاومة اي اعتداء .. في حالة استدعاء رفيق لاستخدام العنف معه فايهتف بحياة الحزب الشيوعي ، وحياة ذكرى الشهداء .. وستكون تلك اشارة لسكان العنبر حتى ينطلقوا هم ايضا لتنفيذ الخطة التي اتفق عليها ..

ومرت الساعات .. العنابر مغلقة .. والزنازين مغلقة .. ولا يدري احد ماذا يدبر في الخارج وجاء المساء .. ولم تتم المجزرة ..

وبعد ان حمل سجانة العنابر « التمام » الى الضابط النوبي ، تناولنا عشاءنا .. وشربنا الشاي الذي نحصل عليه تهريريا .. ونصنعه خلسة بوسائل بدائية ... وانطلق الرفاق في ثرثراتهم المعتادة .. اقاصيص .. وذكريات .. وتأملات .. ومناقشات سياسية واخرى اديبة .. ثم فتح باب العنبر . ودخل ضابط نادى بضعة اسماء .. المعركة لم تنته اذن ..

لقد غير المصليحي خطته .. سيقابل بعض المعتقلين .. فردا فردا .. كان من بين من استدعاهم قدري حنفي .. المعيد بكلية الاداب جامعة عين شمس ..

قال له المصليحي : الا تريد الخروج ..

فاجابه قدري حنفي : لا ...

وانتهت المقابلة ..

وجاء دور محمود عطاالله رئيس نقابة عمال النسيج بكفر الدوار ..

قال له المصليحي : اني اريد مساعدتك ..

فاجابه .. : يفتح الله ..

وانتهت المقابلة ..

ثم جاء دور وازع هذا الكتاب ، وهنا اراد المصليحي ان يستغل علاقة



مصاهرة بينه وبين احد اقاربه ، ليدير حديثا هادئا يكسر به حدة ذلك اليوم .. وجرى الحوار على النحو التالي :

قل المصليحي : « اني اخاطبك باسم الاسرة .. باسم والدتك .. واخوتك واقربائك ..

كان ردي عليه : اتلقى بشقيقتي في السجن .. وتقى بي في الاوردي ثم في الواحات .. وتأتي الان لتتحدث باسم العائلة ؟ .. لا تتحدث عن روابط عائلية انت لا تعرفها ولا تحترمها ..

فقال المصليحي : لننسى الذي كان . ولتحدثني لا باعتباري العقيد حسن المصليحي ولكن باعتباري فردا من الأسرة ..

فجاءه الرد : ليس بيني وبينك سوى شقيقتي المسجونة بلا اتهام ولا تحقيق ، محرومة من دراستها لما يزيد الان عن عامين ، والسخرة والحفاء اللذين نعايهما هنا .

فقال المصليحي : اعدك بشرفي اني سأفرج عنها حتى ولو كانت شيوعية ..

طاهر : بعد ان تعلن استنكارها للشيوعية ؟

المصليحي : بشرفي لن اطلب منها استنكارا لاي شيء ، اعتبر موضوعها قد انتهى .. ولتتحدث في امرك انت .. وفي خروجك .. طاهر : سأخرج يوما .. فهذا حقى كمواطن ، ولكن ليس بالطريقة التي تحددها انت ..

المصليحي : اقسم بشرفي اني لا اطلب منك استنكارا .. فقط دع تلك المرارة وخطبتي كفرد من الاسرة ..

طاهر : ستبقى المرارة ما بقيت ذكريات الماضي وما بقيت ذكريات شهور طويلة في الاوردي واربعة شهداء سقطوا هناك ، كان من الممكن اكثر من مرة ان اكون خامسهم ..

المصليحي : انتم تتحدثون كثيرا عن مسئوليتي عما حدث في الاوردي، ولا تعرفون اني كنت مسئولاً عن اشياء طيبة كثيرة حدثت هناك ..

طاهر : نعم .. انت مسئول عن اشياء طيبة حدثت هناك : السخرة .. والجوع .. والضرب واربعة قتلوا ..

المصليحي : مرة اخرى .. ارجوك ان تتخلى عن تلك المرارة حتى نستطيع ان نفاهم ..

طاهر : ومرة اخرى ، ستظل تلك المرارة ما بقيت ذكريات الماضي، وتلك الوقفة التي تجبرني عليها امامك حافيا بتلك الملابس المزرية ..

المصليحي : تفضل بالجلوس ..

طاهر : افضل البقاء واقفا ككل الذين سبقوني لاختاپيك بنفس اللفظة  
التي خاطبوك بها ..

المصليحي : بشرفي لا اطالبك بشيء .. سوى ان تتعقل ..

طاهر : لا داعي لتلك الكلمات .. فكل ما قدمته من اجل بلدي .. من  
ما كتبتہ دفاعا عن قضاياها .. وانتصارا لاسلامها وسلام العالم وعلى  
صفحات جريدة ، كان يملكها رئيسكم نفسه .. كل ذلك لم يكن جنونا اللهم  
الا اذا كنت تعترف الان ان مقاييسكم تغيرت وان الفضال من اجل الوطن  
و ضد الاستعمار ، ومن اجل السلام قد اصبح في نظركم اليوم جنونا .. وان  
العقل في نظركم ان اضع قلمي في خدمتكم الى جوار اقلام المرتدين وعملاء  
المخابرات الاستعمارية والموازية لامريكا ..

المصليحي . من هم عملاء المخابرات الاستعمارية هؤلاء ؟ ومن تقص  
بالموالين لامريكا ؟

طاهر : انت تعرفهم جيدا .. رجال اخبار اليوم والمصور والاهرام ..  
مصطفى وعلى امين وهيكل وغيرهم .. انذين وقفوا الى جانب كل اعداء  
الشعب ، والذين تضعونهم اليوم في قمة صحافتكم .. مساومتكم مرفوفة .  
المصليحي : ارجو ان تفهمني ..

طاهر : كل ما افهمه اني امقت ذلك الحديث ، وامقت الاستمرار فيه  
واستدرت خارجا .. كان قائد السجن وبعض الضباط قد اسرعوا الى غرفة  
القائد على صوت تلك المشادة الحادة ، وكان الدهول على وجوههم لذلك  
الذي يرفض الخروج بلا استنكار ، ولكن شدني اكثر من كل ذلك احد  
الموظفين المدنيين كان يشرف على بعض مرافق السجن لمحتة من خلال الباب  
واقفا خارج الغرفة . فضم قبضته لي بقوة معبرا عن تأييده .

كنت بالباب حينما سمعت صوت المصليحي من خلفي يسأل :

– الا تريد ان ترسل كلمة او رسالة لوالدتك ؟

واجبته : ليس عن طريقك ..

ومع رفض تلك المساومة الرخيصة ، ذاب القسم الذي اقسمه حسن  
المصليحي بشرفه ان يفرج عن ليلي عبدالحكيم شقيقتي ، وظلت رهينة سجن  
القناطر الافراج عنها مرهون بان اضع قلمي في خدمة سياسات النظام ..

وهو الامر الذي الح .. ولمح اليه المصلحي في حديثه (١)  
كانت الكلمة الشريفة سلاحا هائلا في يد شعبنا اثناء معاركه المتعددة  
ضد اعدائه ، ولقى اصحاب الكلمة اضطهادا لا مثيل له على يد كسل اعداء  
شعبنا .

في تاريخنا .. ان معلمي الكتابيب كانوا يخرجون بتلاميذهم ، ايام  
الفزوة الفرنسي البونابرتي في اواخر القرن الثامن عشر .. ويدورون  
في شوارع القاهرة .. يرددون .. اللهم انصر السلطان .. واهزم  
فرط الرمان » ..

كان الفرنسيون هم المعنيون « بفرط الرمان » .. ولم يكن تشبيههم ..  
« بفرط الرمان » فقط من زاوية احمرار بشرتهم كأحمرار الرمان .. ولكن  
المقصود به ايضا ان الفرنسيين كفرط الرمان .. اشياء متهاوية لا اصل  
لها ولا رابط ..

كان مشايخ الازهر ، وهم رواد الثقافة في تلك الايام .. هم قادة  
الثورة ودعاتها .. ومثيروها .. ومنظموها .. ولقي كل هؤلاء من الفرنسيين  
العنت الشديد .. القتل والاعتقال ..

وفي تاريخنا ايضا ان الخديوي اسماعيل تأمر على حياة « يعقوب  
صنوع » - ابو نضاره .. اكثر من مرة ، بسبب مسرحياته التي كان يؤلفها  
ويخرجها ويمثلها على مسرحه ، وينقد فيها حكم اسماعيل ..

وبسبب ما كان ينشره في مجلته .. « ابو نظارة » ولما فشل اسماعيل  
في قتل « يعقوب صنوع » نفاه الى خارج البلاد حيث واصل اصدار مجلته  
في باريس وارسالها لتوزع سرا في مصر .. الى ان مات يعقوب المناضل  
الديمقراطي غريبا عن وطنه ..

وجاء جمال الدين الافغاني لينشر تعاليمه في اصلاح نظم الحكم .. وركز  
حملته على الحكم الاستبدادي ، وضرورة استبداله بحكم يستند الى  
الشورى - اي حكم نيابي - وصدر الامر بابعاده هو الاخر من البلاد ..

ولكن تعاليمه وجدت ارضا خصبة بين صفوف شعبنا .. لقد ابعده  
الافغاني .. ولكنه ترك وراءه تلاميذ مخلصين لتعاليمه .. وراياء مايلتف  
حول دعوته للنظام النيابي .

---

(١) .. المرجع منها وهي واربعة من زميلاتها المعتقلات في سجن القناطر في اكتوبر سنة  
١٩٦٢ بعد هذا الحديث بعام ونصف تقريبا .. وبعد ان سادت حالتهم الصحية بدرجة فير  
عادية ، وعلى اثر تدخل بعض الهيئات النسائية الدولية .

وكان ابرز تلاميذه « الشيخ عبدالله النديم » . . ذلك المناضل العتيق من اجل الديمقراطية ضد استبداد اسرة محمد علي . . والذي سار في انحاء الريف المصري ، يدعو الفلاحين للالتفاف حول عرابي . . والتبرع لحركته . . وقام يشرح اهدافها ، للمواطنين . . ويجمع توقيعاتهم على بيانات تأييد عرابي وحينما هزمت الثورة العرابية صدر الامر بنفسه « عبدالله النديم » : فهرب الى الريف ، وظل سنوات يتجول فيه متنكرا رافعا راية النضال من اجل حكم نيابي ، الى ان قبض عليه ، ونفى من البلاد ثم عرض عليه الخديوي عباس حلمي الثاني العفو والعودة مشروطا عليه « عدم الاشتغال بالسياسة » ولكن رغم ذلك ، عاد « عبدالله النديم » ليصدر مجلة « الاستاذ » التي واصل على صفحاتها تعبئة الراي العام ضد الاحتلال البريطاني ، ومن اجل الحريات العامة ، ولم يطق « اللورد كرومر » المندوب السامي البريطاني في مصر ذلك ، فاصدر امره بنفي « عبدالله النديم » . . فأبعد عن البلاد ، وظل غريبا الى ان مات بعيدا عن وطنه وشعبه ودفن في احدى ضواحي مدينة استانبول بتركيا الى جوار استاذة جمال الدين الافغاني .

وهكذا نستطيع ان نلمح المنابع التاريخية لذلك العداء للكلمة الشريفة. في تاريخنا ان كل اعداء الشعب ، واعداء حريته ، واعداء الديمقراطية واعداء الدستور والحكم النيابي قد واجهوا كل اصحاب الكلمة المنادية بالحرية والديمقراطية وبالدستور وبالنظام النيابي ، بالنفي والاعتقال واشترط عدم الاشتغال بالسياسة مقابل العفو . . وبنفس هذه الاساليب واجه النظام باجهزة انشائها المستعمرون اصحاب الكلمة ، من كتاب وصحفيين وفنانين ، ممن يطالبون للشعب بحريته ودستوره ، وحقه في ان يقول كلمته في مقدراته من خلال نوابه المنتخبين انتخابا مباشرا حرا .

تراثان تقابلا في ذلك اليوم على ارض الواحات : كل التراث الرجعي العفن جاء يحمله حسن المصيلحي الذي عمل في خدمة الملك السابق وتدرج على ايدي الانجليز والامريكان ، وكل التراث النضالي الديمقراطي حملناه في مواجهته وعاد المصيلحي ، وما يحمله من تراث عفن ، مهزوما في ذلك اليوم . . عاد وهو على يقين اننا على استعداد ان نموت لكي تحيا الكلمة الشريفة . . لانها كلمة الشعب .

عاد وهو على يقين اننا على استعداد ان يأكل الرمل الاصفر لحمنا ، ولا ان نسلمه له لينهشه . . عاد وقد ترك لنا ، بهزيمته ، يوما مشهودا ، صار عيدا من اعياد الشيوعيين .

## الفصل الثالث

### الانسان ارادة

في شهر ديسمبر ١٩٦٠ ، وفي واحدة من زنازين السجن ، كان هناك حفل وداع ، كان الرفاق يدخلون في صمت ثم يجلسون في هدوء ونظراتهم تنجى الى واحد من اركان الحجرة ، حيث جلس علي زهران ، وهو عامل معتقل ، السرطان ينهش جسده .

كانت الكلمات قصيرة ومؤثرة ، وكان علي يبتسم للرفاق ويشكرهم بالكلمات الرقيقة ويعددهم بان يكون ابنا بارا من ابناء الطبقة العاملة ، في مواجهة المرض ، شجاعا في مواجهة العدو الذي مزقه شهورا طوالا في معسكرات القتل والتعذيب . . .

كان المرض قد هدّد قواه ، وحول العامل الفارع ، القوي البنيان الى شبح يتحرك والالام القاتلة تمزق احشاءه . .

كان الحفل بمثابة التأبين ، فسرنا حواليه الى باب المعتقل وهويرفض ان يسنده احد ، ويبتسم ليوحي لنا انه بخير ، اما نحن فقد كان لدينا شعور يقيني باننا نشيعه وباننا نراه لآخر مرة . كان يشد على ايدينا ويحلم بالصحة وووية النيل والناس واطفاله وزوجته فلم يكن يعلم ان السرطان يأكل احشاءه ويجعل ابامه في الحياة محدودة .

وذهب علي زهران الى احدى المستشفيات بالقاهرة ولم يعد ، فقد افرجوا عنه ليلفظ انفاسه الاخيرة في بيته بعيدا عن مسئولية السلطات . .

اما المسكر فقد كان يسير الى حافة بركان . العامل حسب الله مرسى يصاب « باليوريميا » - التسمم البولي - وتنقذه ايدي رفيق طبيب من موت محقق بمعجزة وسليمان سيدادروس يسقط وهو ينزف حياته قطرة قطرة ، ورفاق كثيرون تهاجمهم امراض القلب ، والصدر ، والحمى الروماتزمية ،

وامراض الفيتامينات والمواد الغذائية الاساسية ، كالانيميا ، والانهيار البدني ، بلا مقدمات تجتاح المعسكر ، والحفاء والعري والسخرة ، الموت البطيء المنظم الجوع ، والاهمال المتعمد في علاج المرضى ، وشبح المجاعة يلمسه الجميع ، وعلم الموت يرفرف فوق الرؤوس وافواج الرفاق المسجونين يذهبون الى القاهرة للافراج فيعودون الى اصفاة المعتقل ، واستنكار العقيدة ثمن الخروج ، والاعترافات ، والجاسوسية ثمن الحرية الكاذبة .

الابواب موصدة على المسجونين والمعتقلين : اما حياتك واما عقيدتك ، وفرجة الباب ضيقة للخونة والمرتدين والمستنكرين هؤلاء الذين اتعبهم طول الطريق واضنتهم وعورة مسالكه .

والعقيد حسن المصليحي مستشار الرئيس لمكافحة الشيوعية ومن كبار المعادين للشيوعية والديمقراطية والذي تربى على ايدي « رسل الباشا » و« فيتز باتريك باشا » حكمداري القاهرة ومن رجال المخابرات البريطانية ايام الاحتلال ، هذا الرجل يزور سجن الواحات ويواجه المعتقلين بسؤاله : هل انت شيوعي ؟ ويصفعه المعتقلون بجوابهم : نعم نحن شيوعيون . ويهرب المصليحي الى القاهرة ليتوعدنا من هناك بالموت .

واليوزباشي « فتحي قته » ضابط المباحث العامة وعضو مكتب مكافحة الشيوعية يصل الى السجن ليقم فيه متنكرا في زي واحد من ضباطه ويبدأ نشاطه المريب : التجسس على الزنازين ليلا والاستماع الى ما يدور داخلها من مناقشات . استخدام السلم المتحرك للنظر من طاقات الزنازين وتكشف ما يجري بداخلها . الاتصال بالعناصر الضعيفة والمنهارة لتشكيل شبكة من الجاسوسية تمده بكل ما يحدث داخل العنابر والزنازين خلال اليوم . ثم استدعاء المعتقلين وعرض الاستنكار والتجسس عليهم مقابل وضعهم في قوائم الافراج المرتقب ثم يسافر اليوزباشي فتحي قته الى القاهرة ليعود ومعه عدد كبير من ضباط السجون وقوائم بتغيير توزيع المعتقلين والمسجونين على العنابر والزنازين .

لقد قصد بهذه العملية فرض تسكين معين علينا بهدف توزيع شبكة من الجواسيس في مختلف الحجرات ، وتجميع عناصر من مختلف الاتجاهات السياسية في مكان واحد ، لعل ذلك يوفر ارضية صالحة لنشوب المشاجرات وبلوغها درجة حادة من العنف ، خاصة وان المعتقل يضم اعضاء الحزب الشيوعي المصري وله موقفه المعارض لعبدالنصر كما يضم الجماعة المنقسمة على الحزب والتي تتبع خط المراجعة السياسية والمساندة المطلقة

## للنظام الناصري .

كان اليوزباشي فتحي قته يتلصص بالليل لسمع ما يدور في الزنازين ، وصدمة ان ما ارادته المباحث العامة لم يحدث . لقد ادرك الحزب تلك اللعبة ، وشن هجوما فكريا مضادا لها ودعا الرفاق الى عدم الاستجابة لاية اعمال استفزازية . وان يتخذوا من هذا السكن المشترك فرصة لفضح افكار تلك المجموعة المطرودة من الحزب ، ولكن بأسلوب موضوعي بعيد عن المهاترات .

لم يخف ذلك اليوزباشي صدمته ، بل اعرب عن دهشته لاكثر من رفيق . لان معارك ما لم تنشب ، بل وصل به الامر الى ابداء دهشته البالغة لانه يسمع حفلات سمر وقصص واغاني .

لم يكن الهدف هو المشاجرات في حد ذاتها اذ ان ذلك كان شيئا ثانويا، بل كان الهدف الاصيل هو شل العمل الحزبي تماما وخلق ارضية مواتية للتفكك والتصفية السياسية ، كذلك كان هذا العمل علامة على جولة من الهجوم جديدة .

وسرعان ما عاد المسجونون والمعتقلون الى تسكينهم السابق رافضين التسكين الجديد ، معلنين انهم على استعداد لخوض اي معركة في حالة اي محاولة جديدة لارغامهم على العودة الى الوضع الذي ارادته المباحث العامة .

المنفى السحيق والمسافات الشاسعة من الصحاري لم تمنع صوتنا من ان يصل الى العالم ، ويهب الشيوعيون والديمقراطيون والشرفاء في كل مكان يدافعون عن المعتقلين السياسيين في الجمهورية العربية . . اصوات الشرفاء في موسكو وبكين في لندن وباريس في بيروت وفي امريكا اللاتينية تحتج على اعتقال السياسيين في مصر ومعاملتهم بذلك الاسلوب غير الانساني .

والواحة ارض من الشوك والثعابين ، في وادي الموت وسط بحر الرمال الاصفر الملتهب الخانق ، والوجود الانساني يقاتل من اجل البقاء في عناد واصرار ، واسطورة تنسج من خيوط الاحلام ، والمستقبل والاطفال والزهور ، والوادي وماء النيل ، والرشاء والحب والسلام ، والاحلام ارادة والانسان ارادة ، لن تكون بلادي غربتي ، والارض التي ولدتها لن تكون منفاي . . لن تكون القبر والنسيان . . وصرختي نشيد . . اضراب ونداء .

وجدار الرمل الاصفر . . وجبال الاصفاذ ، لن تحول دون ان يسمع العالم نداء الانسان .

وهكذا بدأ الاعداد لمركة الاضراب عن الطعام ، بيانات الى كل الهيئات في مصر والعالم ، الى المدرسين والصحفيين والاطباء والادباء ، الى النقابات والشخصيات العمالية ، الى الامهات والاباء والاصدقاء .

ورغم العيون المغروزة في القضبان ، ورغم قبضات السجان ، قرأت عيون الاصدقاء وعقولهم نداءاتنا ، فارتفعت قبضاتهم توازر معركتنا . وعبر الحصار المفروض علينا سمعنا اصوات الرفاق والاصدقاء تدافع عنا : راديو موسكو ، وراديو بكين . . « الاخبار » البيروتية و« الاوماتيه » و« اليونيتا » . وتشكلت لجنة لقيادة الاضراب عن الطعام من فخري لبيب ، وطاهر عبدالحكيم ، ونبيل زكي .

وفي المعتقل كان الرفاق يناضلون كي يكونوا في الدفعات الاولى وحتى المرضى كانوا يصرون على ان يأخذوا مكانهم في صفوف المضربين عن الطعام . وفي ٤ يوليو سنة ١٩٦١ بدأت الدفعة الاولى للاضراب . . كانوا سبعة من الرفاق انهم عقوبة السجن في مدد تتراوح بين الخمس والسبع سنوات ، ثم تحولوا الى معتقلين لانهم رفضوا استنكار عقيدتهم .

وحددت الادارة زنزانة لعزل المضربين عن الطعام في عنبر اخر مخصص للسجناء من القنلة وتجار المخدرات وودعت تلك الدفعة الاولى من المضربين وهي في طريقها الى مكان عزلها بالهتافات والاناشيد . وفي طرف العنبر الذي تقيم فيه علقت صورة كبيرة رسمها فنان شاب مناضل : نجمة تلمع فوق الواحات ، ويد قوية تنبض في عروقها ارادة الملايين من الاصدقاء تزيح اسلاك المعتقل .

وفي المساء عندما اضيئت انوار المعتقل والسجن ارتفعت اصوات المسجونين والمعتقلين تنشد :

في ثورة على الظفاه

والكادحون حولنا

نبني دعائم الحياه

من دمنا وهمرنا

والليل صامت ، وزئير النشيد يهز الجدران تحية للمضربين :

انهضوا وارفعوا راسكم

بالساعه المتبول



حطموا وجه اعدائكم  
والفجر يبدو ينادي  
هيا ارفعوا اعلامنا  
قد خضبت من دمنا  
هيا ارفعوا اعلامنا  
قد خضبت من دمنا  
بالساعد المفتول  
حطموا وجه اعدائكم  
والفجر يبدو ينادي  
هيا ارفعوا اعلامنا  
قد خضبت من دمنا

واليوم التالي ، يصفق باكف ملتبهة لنداء الديمقراطيين وانصار السلام  
والنقابيين الى مصر والعالم ، وهم ينضمون الى الاضراب :

« ان الحملة التي يشنها النظام الناصري ، هي حملة للقضاء على  
الديمقراطية والديمقراطيين ، للقضاء على حق التنظيم والتعبير ، انها حملة  
لسحق الكلمة الشريفة واعلاء الزيف والخداع . انه لا يخص الشيويعيين  
وحدهم وان كان لهم لديه النصيب الاوفى ، ولكنه يصب سخطه على كل  
من يريد تنظيما لحركة الجماهير ، على كل معبر عن ارادتها » .  
انها اليوم معركة الديمقراطية .

وترتفع النداءات ، نداءات المعلمين ، نداءات الاطباء ، نداءات المحامين ،  
نداءات الصحفيين ، نداءات النقابيين ، نداءات الطلاب .  
ونداء المعتقلين جميعا .

« انها معركة ضد القتل المتعمد البطيء: انها معركة ضد محرقة الفكر  
والارادة ، انها معركة شعارها لن يمر شعار العدو ، سنحطم شعار « حياتك  
او عقيدتك » وسنرفع علم المنفى ، صليبنا يطوف افاق العالم ، صلب عليه  
نظام عبدالناصر محمد عثمان ، فريد حداد ، البهناوي ، عبد التواب  
جبريل ، وعلي الديب ، وسيد امين ، رشدي خليل وكل الشهداء .. علم  
غمس في الدم وزين بأروع التضحيات .

انها نداء العالم ليتعرف علينا ، وعلى ما يدور في بلادنا ، وما يدور  
على ارض المعتقلات انها نداء للعالم ، ان بوخنوالد ، او شفتز ، وداخار ،  
تعاد على ارض النيل : الفيوم وابي زعبل والسجن الحربي والمواحات .

انها نداء للعالم : بان السلطة وان عجزت حتى الان عن ان تقيم  
محرقه للاجساد فقد اقامت ابشع منها ، محرقه الضمير والارادة :  
الاستنكار والاعتراف والتجسس والخيانة .

انها نداء للعالم ، اننا الحفاة العراء ، الواقفون على حافة الهاوية  
السحيقة من الموت جوعا وبلا علاج ، ناضلنا بكل بسالة الانسان ، دفاعا  
عن حقوق الانسان ، وعن الوجود الانساني .

انها نداء للعالم : انه في النصف الثاني من القرن العشرين وبينما  
الانسان صانع الحياة ، يفزو الكون والفضاء ، فان السخرة وسلاسل العبيد،  
والشوم والكرباج ، والقتل الفادر ، والقتل العاجل والقتل البطيء هي اهم  
منجزات النظام الحاكم في مصر .

انها نداء للعالم : اننا ، من زج بنا داخل هذه المجررة بلا قانون ، وبلا  
محاكمة بلا عرف وبلا انسانية ، نحن ضمير هذا الشعب وارادته الحرة ،  
ستقاوم الى النهاية كل عدوان على هذا الضمير وعلى هذه الارادة .  
ان معركتنا هذه نداء للعالم .

فليتبدد دخان الاكذوبة التي روجها النظام : ان لا ممتلكات وان الحجة  
تقارع بالحجة .

\*\*\*

اليوم الثامن من يوليو : الدفعة الثالثة تبدأ الاضراب عن الطعام ،مائة  
واربعون مناضلا يدخلون الاضراب عن الطعام دفعة واحدة . وادارة  
المعتقل تعد عنبرا كاملا للمضربين الجدد والسابقين وعلى الوجوه سمات ثقة  
واعزاز ، والرفاق الذين سيفادرون العنبر بعد اخلائه للمضربين يودعوننا  
بالاحضان والمشاعر الجياشة . الصمت يفمر العنبر والابواب مغلقة ، وصوت  
مهيب رهيب ينطلق في تماسك هادئا ثم راعدا ، صوت باقي المضربين  
القادمين من العنبر الاخر الى عنبر الاضراب :

يا شعوب الشرق هذا	وقت رد الفاصيين
فاركبوا الهول الشدادا	وامطرزها باسليين
طال عهد النوم فيكم	والاعادي ساهرين
انعمم وبنوكمم	في المنافي تائهين
شتتونا في المنافي	واملاوا منا السجود
سوف تاتيكم ليالي	برقها حتف المنون

ويدوي العنبر بصوت المضربين يستقبلون القادمين :

ياشعوب الشرق هيا لنضال لا يلين  
سوف يحيا الشرق حرا رغم انف الغاصبين

المساء ، والسجن يضح بالاناشيد والهتاف من الرفاق غير المضربين في عنبر (١) تحيات وامنيات للمضربين في عنبر (٢) . واوامر الرفيق الطيب وهو واحد من المضربين مشددة : الزم الراحة التامة ، وحافظ على كل قدر من جهدك ، فستحتاجه ، والصمت في عنبر الاضراب ، فقط تحيات من خلال قضبان الزنازين وبسمات ، وشعور بمواجهة المجهول ، ولكن العالم معنا والزنازين تفيض بالثقة الهائلة والقدرة على مواجهة كل الاحتمالات .

لقد فتش حرس السجن المضربين عن الطعام تفتيشا دقيقا ، ومنعهم من اخذ معجون الاسنان ، فقط الملابس والبرش والبطاطين .

ان ادارة السجن ما كانت لتتصور ان هنالك اضرابا حقيقيا ، فاولئك المتخومون لم تكن هنالك قوة تقنعهم بان في قدرة الانسان ان يبقى اياما بلا طعام .

وتمر الايام ، ودفعت جديدة تغذي الاضراب من بينها دفعة من المناضلين الفلسطينيين دخلوا معنا الاضراب من اجل نفس الاهداف مضافا اليها احتجاجهم على انتزاعهم من وطنهم والقائهم في منافي مصر . ويبلغ عدد المضربين عن الطعام مائة وستة وتسعين مضربا .

اليوم التاسع من يوليو . وصل الى السجن ضابط كبير برتبة اميرالاي يرافقه ضابط برتبة يوزباشي من مصلحة السجون وطبيب وعدد من المعرضين ، وكذلك نائب الاحكام العسكري في منطقة الواحات الخارجة لتسجيل محضر بالاضراب . ويطلب الاميرالاي مقابلة مندوبين للتفاوض ، وفي لحظات تحسم المناقشة ، قال انه يساوم على الاضراب ، وان الحكومة لا تستجيب لاي مطلب الا اذا « حل » الاضراب ، وكانت المساومة في حدود تحسينات تافهة في حدود المعاملة المحلية لا تمس جوهر القضية ولا جوانبها الاساسية . وحددت له نيابة عن اللجنة القيادية وعن مجموع المضربين اهداف الاضراب على النحو التالي :

« الافراج عن المعتقلين ، وحتى يتم هذا نطالب بالغاء السخرة ووقف سياسة الاستنكار الاجرامية والتعهدات بعدم الاشتغال بالسياسة ، والافراج عن المسجونين الذين ينهون الفترة المحكوم بها عليهم ، ومحاكمة المسؤولين عن جرائم التعذيب والقتل » .  
ويتقبل المضربون هذه النتيجة بالتأييد الكامل .

ويصدر الطبيب القادم من مصلحة السجن امرا بسحب البطاطين من  
المضربين ما عدا واحدة بحجة ارسالها للتبخير ولكنه في واقع الامر ينفذ  
عقوبة على المضربين ، وهكذا يصير كل مضرب ، وكأنه ينام على الارض  
مباشرة ، ويحتج المضربون ويواجهون الطبيب بكذبه وخيانتة لشرف مهنته .

وتدخل دفعة جديدة وكانها رد على وعد ووعد القادمين من القاهرة ،  
وتعود المفاوضات مع قائد المعتقل وضباطه والاميرالاي ويوزباشي مباحث  
السجون يرقب اقوال المضربين ، ولا جديد ، كل لزم مكانه .

والطبيب لا يقدم التقارير عن حقيقة حالة المضربين ، فهو يسجل انهم  
في حالة طبية وواقع الامران الاضراب يدخل في اليوم الثامن وحالة  
المضربين الصحية تسير من سيء الى اسوأ ، ويقاطع المضربون الطبيب  
ويعمنونه من دخول الزنازين ، والطبيب جاهل ولص ومرتش وجبان ، وهذه  
الصفات المعروفة لرؤسائه جيدا هي التي اهلته ليكون طبيب الحكومة  
للاشراف على المضربين .

ويعتذر الطبيب ، ويقرر انه سيقدم تقارير حقيقية عن حالة المضربين ،  
ولكنه يعود الى جولة جديدة ، انه يناقش في السياسة وفي ضرورة تأييد  
الحكومة والخروج من هذا الموت بتنفيذ رغباتها، فيسبه المضربون ويطردونه .

دفعات جديدة تتوالى ، دماء جديدة تفذي الاضراب وعيون الرفاق  
غائرة ، ووجناتهم بارزة ، والكثيرون منهم صار في حاجة لمن يعتمد عليه  
حتى يصل الى دورة المياه . ولكن شيئا ما يضيء وجوههم ويلمع فيها .  
بسمات زاهية وعيون تومض وكأنها تستمد ذلك البريق من شيء عميق في  
اعمق اعماق الانسان ، قدرته على ان يقبض على مصيره بيده . . في هذا  
المكان تعيش ارادة الانسان . . والزنازين تعبقها اساطير النضال الشعبي  
وبطولات المناضلين ، فوتشك ، بيريه ، وابطال مدريد واثينا ومسيرة  
المناضلين الصينيين الكبرى ، وثور اكتوبر وشهداء اول مايو . كل ليلة كان  
المضربون يستمعون من بعض رفاقهم انى واحدة او اكثر من هذه القصص .

والنائب العسكري يسجل محضر الاضراب ، يسجل فهمنا السياسي  
للنظام الناصري ، يسجل اوردي ابي زعبل والفيوم والواحات والسجن  
الحربي ، والشهداء واحدا بعد الاخر يبعثون احياء ، تاريخهم وتضحياتهم  
ونضالهم وجريمة قتلهم ، وصفحات المحضر تترى حتى تبلغ تسعمائة صفحة

من الحجم الكبير . (1)

القاهرة تتابع الاضراب يوما بيوم والسجن ليس جدارا ، ولكنه الان فوهات مدافع سريعة الطلقات وبنادق ، لقد حوصر من كل مكان استعدادا لاي طارئ ، فصحة المعتقلين المضربين في تدهور متزايد ، ومن المحتمل في اية لحظة ان يسقط من بينهم شهداء وان ينفجر الموقف .

وعنبر الاضراب محاصر بفرق القنابل المسيلة للدموع ، والاسلحة سريعة الطلقات ، وكذلك عنبر (1) حيث ان الذين لم يدخلوا الاضراب .

اليوم الرابع عشر والاجساد قد ازداد هزالها ونقل الى المستشفى حوالي اربعين مضربا حالتهم تنذر بالخطر ، وهناك يرفضون اي علاج ، واما المعنويات ففي ذروتها. ان نداءنا قد بلغ العالم ، وصرختنا قد حطمت ستار الرمل الاصفر ، الى النيل الحبيب ، الى كل العالم ، لقد حقق الاضراب هدفه ، فالواقع الحي يدحض الاكذوبة والعالم قد عرف كيف يعادي هذا النظام الفكرة ، وكيف يقف اصحاب الفكرة في بسالة ضد عدوان النظام عليهم .

اليوم الخامس عشر : مندوب عن رئاسة الجمهورية ، يصل الى السجن قادما من القاهرة وتستمر المفاوضات حتى الساعات الاولى من اليوم الجديد ، ويسجل محضركامل بالمعاملة التي واجهناها . وسؤال حائر ينطلق على شفاه المسؤولين من حين لآخر . : لماذا اضربتم في هذه الظروف ؟ ، ان كنتم على موعد مع الحملة التي قامت في العالم من اجلكم ؟ .

واجابة منا واضحة : ان الحملة العالمية من اجلنا ، سواعد من فولاذ تساندنا . . نحن جزء من نضال العالم في طريق السعادة الانسانية . . اننا مع عالم التقدم وعالم التقدم معنا .

(1) نائب الاحكام العسكري لمنطقة الواحات الخارجة. اليوزباشي وحيد ابو العلا ، كان ضابطا في اللواء السادس مدرعات ، الذي جرت فيه آنذاك حملة تطهير واسعة بتهمة انه « لواء احمر » ، وكان نصيب هذا الضابط من حملة التطهير انه نقل للواحات الخارجة ، وعندما تقرر انتهاء الاضراب ، وذهبت لابلغ . ه رفيقا كانوا قد نقلوا الى المستشفى بذلك ، كان هو موجودا هناك ، ثم جاءت رسالة عاجلة ابلفني بمضمونها وهي ان القيادة العامة نستدعيه الى القاهرة ، وانه يعتقد ان ذلك يعني محاكمة عسكرية له . - تقبلت ما قاله في تحفظ ، وتمنيت له التوفيق ، ولكنه كان صادقا في توقعاته ، فحالما وصل القاهرة جرد من رتبته العسكرية والتي القبض عليه ووضع في السجن الحربي دون محاكمة حتى 1966 .

ويتهي الاضراب في مجموعه في اليوم السادس عشر .  
والاضراب المنتصر نداء للعالم ، وصفعه لكل سياسة التصفية  
والاستنكار . ان هؤلاء الذين واجهوا الموت الجاثم فوق ابي زعبل ، والحرب  
النفسية والمعنوية في الفيوم والكلاب المسعورة في السجن الحربي ،  
والسخرة في الواحات ، يملنون في وجه النظام صمودهم البطولي ، وان  
شيئا من هذا لم ولن ينال من عزيمتهم واصرارهم .

وتوقفت السخرة وسمح لنا باستخدام الملابس الداخلية وانتعال  
الاحذية ... ركنان اساسيان من اركان خطة التصفية هدمهما الاضراب :  
السخرة والقدم العارية .

وادارة السجن ، من ضباط ، وصف ضباط ، وجنود ، والنزلاء  
العاديون يرون الاسطورة تتحقق امامهم ، ارادة الانسان تتجسد في هؤلاء  
المضربين ، التضحية بالحياة من اجل الحياة .

والاضراب المنتصر يرفع علم الاصرار في وجه شعار : ( اما حياتك واما  
عقيدتك ) الذي رفعه النظام في مواجهتنا ، انه يبصق على علم التصفية  
الرث . والاضراب المنتصر راية منقوش عليها بتضحيات المئات وبمشرات  
السنين التي دفعناها من عمرنا « لن تمر الوامرة » لن تنتصر المحرقة .

والاضراب المنتصر ، امل لشعبنا ، وقد مالت الماساة بجناحها وعربدت  
في ظلالها كل الخفافيش ، ان اولئك الذين يحملون للشعب ترائه اماناء على  
هذا التراث ، وسياتي اليوم الذي ينطلقون فيه حاملين النور ليبددوا ظلام  
الماساة ويطردوا الخفافيش .

الجزء السادس  
الكلمة المسمومة

## الفصل الأول

### للمرتد وظيفة

كان ابو الهول الذي لاقاه « اوديب » علي اسوار مدينة « طيبة » يقتل من لا يستطيع ان يجيب على سؤاله : « ما هو الشيء الذي يمشي في الصباح على اربع ، وفي الظهيرة على اثنين ، وفي المساء على ثلاثة ارجل ؟ » .

اما ابو الهول الذي نصبه نظام التكنوقراط على ابواب الحياة في بلادنا، فيقتل من يجيب ومن لا يجيب على سؤاله : « هل تستنكر الشيوعية ؟ هل تعترف ؟ » من قال « نعم » اخرجه الى الحياة خرقة بالية ، يلصق ما تبقى من ايامه تحت اقدام النظام ورجاله . ومن قال : لا ، اعاده الى المنفى ، ليواجه الموت البطيء .

ان اي نظام يريد ان يلوي عنق التاريخ ويرسم له مسارا تعسفيا ، لا بد وان يحارب الحقيقة ، فالحقيقة الى جانب الشعب ، مع حقه في ان يأخذ قضاياها بين يديه ، مع حقه في حكم نيابي سليم ، ودستور ديمقراطي ، والحقيقة تفرض حق الناس في ان يعرفوا ماذا يراد بهم ، وان يقولوا ماذا يريدون ، ان يعرفوا اي طريق تسير فيه البلاد ، واي طريق يريدونه هم لكي تسير فيه البلاد ، والذين لا يستطيعون الا العمل في الظلام ، بعيدا عن رقابة الشعب ، لا يطبقون انور ، والذين لا يحترمون ارادة التاريخ ، لا يطبقون المعرفة ، والذين يكرهون الحقيقة يجدون انفسهم في حاجة الى نظرية زائفة تبرر وجودهم التعسفي ، والنظرية في حاجة الى اقلام ماجورة تحملها الى الناس . ومنذ وجد الناصريون في نهاية سنة ١٩٥٨ انهم مجبرون على خوض معركة احتكارهم للسلطة في وجه معارضة الجماهير ، بدأوا يبحثون عن تلك الاقلام الماجورة التي تسطر لهم تلك النظرية الزائفة .

لقد كان لهم رجالهم الذين باعوهم اقلامهم من زمن ، ولكن هؤلاء كانوا



مفوضين . مما دفع النظام للبحث عن اقلام جديدة يكون لها رصيد من ثقة الجماهير .

ان اغراء المال من جانب وسعار الحملة ضد الشيوعيين والديمقراطيين من جانب اخر ، وسيف الاعتقال المسلط على رقاب الجميع ، كل هذا ادى الى ان تسقط في يد النظام بعض الاقلام التي ساندت الشعب في مراحل كفاحه السابقة وكانت لذلك عزيزة عليه ، كما تهاوى بين ايديهم فنانون كانت لهم مكانة كبيرة في صفوف شعبنا .

ثم تضيد النظام من بين المعتقلين بعض المفكرين والكتاب بعد ان اذاقهم ويلات الفيوم والاوردي ، ليفرض عليهم ان يضعوا اسماءهم على صفحات صحافته التي اصابها الهزال . كما وجد رجالا تخلوا عن كل تراثهم الفكري . . وعن كل التزام لهم بشرف الكلمة . . وعن كل القيم التي تكونت لهم من خلال ثقافة حرة ، ارتبطت بكفاح طويل من اجل الحرية ، ليقدموا الزيف للشعب على انه الحقيقة خرجوا لينفتخوا سمومهم على صفحات الجرائد والمجلات: ثلاثة من المرتدين، «المطيعي»، «حسني ناتان»، حمدان الذين اشنروا حربتهم بالارتداد والعمالة للمباحث العامة ، تاملع اسمائهم اليوم في جريدة المساء على نفس الصفحات التي كانت تمتلئ يوما بكتابات الشرفاء من امثال : خالد محي اندين ، سعد التائه ، وبقية اسرة تحرير المساء .

المزددون نفتح لهم صفحات جريدة « الجرائد » المستنكرون المتحللون من امثال عبدالمنعم صبحي يتقيأون وجدانهم المتآكل ، واوراقهم المهترئة على ثقافة شعبنا وحضارته . . وللمرء ان يحكم : اي فكر هذا الذي لا يجد الناصريون من يروج له ، سوى هؤلاء المنهارين المتعبين الذين خطوا بايديهم تنازلهم عن حقهم في حرية العقيدة ، واشتروا وجودهم بالركوع امام المباحث العامة .

ولئن كان هؤلاء يستطيعون ان يذفوا بالكلمة المسمومة في وجه شعبنا من صحف النظام واذاعته ، فالعشرات ممن استنكروا الشيوعية ، وقدموا اعترافات بكل معاوماتهم عن الشيوعيين ، سواء ما عرفوه في تاريخهم السياسي - ان كان لهم تاريخ - او ما عرفوه داخل المعتقل ، ان لم يكن لهم سابق صلة بالعمل السياسي ، هؤلاء لم تتركهم المباحث العامة وشأنهم ، فابواب الرزق المفلقة امامهم ، والمنفى ، والتهديد بالعودة اليه ، كل ذلك جعلهم ادوات طيعة في ايدي المباحث العامة . . انها تدبر لهم الاماكن التي يعملون بها . ولكي تطوعهم على حياة التجسس والعمالة، عليهم

ان يكونوا عيوننا لها هناك ، وان يقدموا لها تقارير دورية عن يعملون معهم . . اية تقارير حتى ولو تحوي اية معلومات لا دلالة لها . . المهم . . ان يمارسوا مهنة التجسس . ولكن عليهم ان يقوموا بمهمة اخرى تلك هي ان يساهموا مع المباحث في الحصار النفسي ، الذي تفرضه على المعتقلين . ان عليهم ان يواصلوا قذف عائلات المعتقلين بالكلمات المسمومة ، ان يثيروها ضد من هو معتقل من افرادها ، وان يحولوها الى احتياطي للمباحث العامة في خطتها لتصفية المعتقلين سياسيا .

ان كل واحد من هؤلاء حددت له المباحث عددا من الاسر ، ممن كانت له بها سابق صلة ، ومهمته هي ان يدفع تلك الاسر الى تحويل كلماته السامة الى خطابات مسمومة يرسلون بها الى ذويهم المعتقلين . . وهذه فقط هي الخطابات التي تسمح المباحث العامة - كاستثناء - بان تسلم للمعتقلين .

« خطيبتك تريدك »

ممتاز حسين فرغلي ، مناضل في مقتبل العمر من كلية دار العلوم ، توطدت الصداقة بينه وبين طالبة زميلة له في الكلية ، كانت نضاليتها تضفي على شخصيته من الملامح الطيبة ما حببه اليها ، وكسب له احترامها واعزازها ، واتفقا على الزواج بعد التخرج الذي كان وشيكا . . ولكنه يعتقل .

وتمر سنوات ثلاث ، وبشكل ما او بالآخر ، كانت تصل منها كلمة . . تقول له فيها انها تنتظره ، وستظل تنتظره ، وسهما طال الزمن فانها تريده ان يخرج اليها رجلا .

ثم بدأ واحد من هؤلاء الافاعي يتردد على اسرة ممتاز ، وتبتلع اسرته سم الافعى ، ان الابن لكي يخرج ، يجب ان يلين عوده ، ويكتب سطورا للمباحث ، ولكن لكي يلين عوده ، يجب ان يحسن ان بقاءه في المعتقل سيجلب عليه خسارة اعز الناس اليه . . . ويتسلم ممتاز خطابا من اخيه يقول فيه : « ارجوك يا اخي ان تشد حيلك ، وتعمل قصارى جهدك للخروج لاجل خاطرنا وخاطر والدك الذي يبكي ليل نهار عليك . ارجوك يا اخي ان تخرج لاجل خاطر ( . . . ) خطيبتك وموقفها الحرج ، فان اهلها يريدون ان يزوجوها ، وهي زعلانة منك كثيرا فلا تخيب آمالها ومستقبلها لانها ضحت بمرسان كثر ، واصبحت في موضع حرج . » .

« خطاب من جاسوس »

وفي مدينة الفيوم ، سعى واحد من هذه الافاعي التي اطلقها

« المصليحي » على عائلات المعتقلين ، وراح ينفث سموه ، ففور خروج واحد من المرتدين يدعى « صليب ابراهيم » انهال على بعض المعتقلين من ابناء مدينة الفيوم سيل من تلك الخطابات السامة .  
العامل للميكانيكي « رمضان شمبولية » يصله من شقيقته خطاب تقول فيه :

« ان والدك قد اصيب بالشلل ، واصبح لا يستطيع الحركة ، والجراج الذي كان مصدر رزقنا قفلناه واصبحت الحياة صعبة جدا ، فلا يوجد احد يعول الاسرة من بعده » .

وترسل ام « صفوت حماد » من مدينة الفيوم ايضا خطابا تقول فيه :  
« ولدي صفوت .. مضت ثلاث سنوات ونحن في انتظارك ، ولان لم نرك ، فماذا تنتظر يا صفوت .. ماذا تنتظر من امك التي لا حول لها ولا قوة وهي وسط اطفال صفار لا تدري ماذا تفعل ، لقد مات والدك ولكني لم اياس ، قد عوضني الله بك واعتمدت عليك في تربية اخوتك الصغار ولكنك تركتنا وآثرت الحياة مع هؤلاء الكفرة الملحدين الخونة الجبناء ، لقد كان والدك رجل دين يا صفوت .. الاتخاف على عرض امك وعرض اختك التي كبرت ، الا تهتم باخوتك الذين يقاسون من العري والجوع .. اعلم ان ما كان يوجد علينا به الاقارب قد منعه ولم يعد احد منهم يسأل عنا ، فاترك هؤلاء الكلاب المنحليين .

ان دينك ووطنك واهلك ينادونك فلا تتأخر ، وان زملاءك قد خرجوا واستلموا اعمالهم . واعلم اننا نعيش في عهد جديد يعمه الخير فاخرج لكي تساهم في بناء الوطن » .

والدتك

حبيبة عثمان

ان الامم تتحدث عن « الزملاء » الذين خرجوا واستلموا اعمالهم وليس هناك من خرج من المعتقل من ابناء تلك المدينة الا ذلك الجاسوس « صليب ابراهيم » الذي انفضح في اخر ايامه بسجن الواحات كأحد عيون الادارة على الشيوعيين . والابن يؤكد ان الخط الذي كتبت به تلك الرسالة ليس بخط امه . بل ويجزم بان الخطاب كتب بيد ذلك الجاسوس .

« زوجة بين الاسلامي »

ان دور هذه الافاهي لا يقف عند حد املاء تلك الرسائل المثيرة لقلق المعتقلين على الخطيبة وعلى الام او الاب او الاطفال الصغار او على مرض

الاخت ، بل يذهبون في وضاعتهم الى تخريب العلاقة بين الزوج وزوجته .  
فما كاد « النقايمي » المرتد « ابراهيم شرف » يفرج عنه ، حتى كان من  
بين مهامه التي كلفته بها المباحث ، السعي لدى زوجة العامل « ابراهيم  
موسى » السكرتير السابق لمجلس ادارة نقابة عمال نسيج القاهرة  
وضواحيها . ويصر المرتد « ابراهيم شرف » على ايفار صدر الزوجة على  
زوجها المعتقل . لقد كان « ابراهيم موسى » يتلقى من زوجته ، بصورة او  
بأخرى ، ما يفيد تفانيها في خدمة ابنائه مهما طال الزمن ..  
قالت له في احد خطاباتها :

« عزيزي وحببي ..

تحية طيبة ، تخرج من اعماق قلبي ، وشوقا زالدا لرؤياك والتمتع  
بوجهك الصبوح ... انني اعتيرك مصي ، ولا يفارقني خيالك ، وخاصة  
الاولاد ، وبالنسبة احب ان اعرفك بان « عصمت » في السنة الثانية  
اعدادي ، واخوه في السنة السادسة ، و « علاء » « وهنايات » بالفرقة  
الثالثة ، و « عاطف » بالسنة الاولى ، وهم جميعا بغير ، ولا يكن عندك  
اي شافل من جهتنا .. عزيزي .. لقد مضت مدة كبيرة على فراقنا . ومنذ  
هذه الايام وانا افكر فيها وفي السعادة التي فمرنتي بها ولا يسعني الا ان  
اقول :

« فوالله ما كان الجاد بخاطري ولكن هكذا حكمت بيننا الايام »

ان هذه الافاعي تلتف بالزوجة الوفية المخلصة ، وينفردون بها وهي  
غير مسلحة بشيء ضد سمومهم الا ذكريات حياة ماضية كانت الزوجة  
تفالب بها عبء اعتقال زوجها ، وما تحملته من مسؤوليات ضخام ازاء  
اطفالهما وتربيتهم . وتسري سموم تلك الافاعي في دماء الزوجة ، ويجري  
قلمها بكلماتهم المسمومة ، فتقول لزوجها في خطاب سمحت المباحث  
بتسليمه للزوج :

« عزيزي ..

لقد وصلنا خطابك ، وحمدنا الله على صحتك ، وسألنا الله عزت  
قدرته ان تعود الى رشذك وتفيق من سكرتك وتكون واقعيا ، وتنظر الى  
الدنيا بمنظار ابيض وتخلع ذلك المنظار القائم الذي لبسته زمنا طويلا وكان  
سببا في حرمانك من اولادك وفي تربيتهم بعيدا عنك ، محرومين من عطف  
الابوة مع وجودك ، فكن - يا عزيزي - واقعيا واعلم انك لن تغير شيئا  
ابرمة الله .. ان اولادك يمانون من شظف الميش ومر الحياة ويعانون من

جراء اليتيم الذي هو من صنع يدك .  
ابنك عصمت انتقل الى ثلاثة اعدادي والحمد لله وذلك بفضل  
مجهودي المالي والادبي والجسماني . وعزت دخل الامتحان خالي الذهن  
لانه مستهتر بسبب الحرية الفوضوية التي منحها له منذ طفولته ، اما  
بقية اخوته فهم يسكرون سير السلحفاة ، على كل حال ، انا التي جني  
علي ، فانا كالشمعة احترق لاضيء لغيري .

اما الحالة المعيشية فاعباؤها ثقيلة وخصوصا على من ابتلاه الله  
بابناء ستة لا مدد لهم ولا عون سوى راتبي البسيط ، هذا حظي من الدنيا،  
حظي ان يحترق شبابي في خدمة غيري ، ويا ليتني اكافأ .  
« ما ابشع الجريمة ، ان الزوجة التي كانت ترسل التحيات والاشواق،  
وتعيش في ذكرى السعادة التي فاض عليها بها زوجها ، تغير لهجتها  
فتتهمه بانه تسبب في يتم اطفاله وهو على قيد الحياة ، وانه في سكره  
وفي غير رشده .. الزوجة التي كانت تتحدث في اعتزاز عن تقدم اطفالها  
في الدراسة ، تقول اليوم انهم يسكرون سير السلحفاة ، وان احدهم  
مستهتر بسبب تربية ابيه ... »

الزوجة التي كانت تقول : « لا يكن لك شاغل من جهتنا » تتحدث  
اليوم عن شبابها الذي يحترق في خدمة « غيرها » و« غيرها » هذا هم  
« ابناؤك » وانها لا تكافأ .

ان جريمة تلك الافاعي وموجهيها تصل قممها حينما يواصلون الوقيعة  
بين زوجات المعتقلين حتى يصل الامر الى الطلاق .. عشرات الزوجات  
ارسلن الى ازواجهن طالبات منهم الاستسلام والخروج والا الطلاق، وانتهى  
الامر بالطلاق .

### « حتى الاطفال »

ولكن الذي يفزع له الضمير حقا هو ان تمتد انياب تلك المخلوقات  
الكريهة الى الاطفال لتشوه العلاقة بينهم وبين ابائهم ، وتمزق اعز الروابط  
الانسانية .

الطفل « عمر » الذي كان يعيش ومثلاه الاعلوان في الحياة هما امه  
وابوه ، يزوره المرتد « رشاد خميس » وينفرد به في غيبة امه المعتقلة في  
سجن القناطر ، وابيه المعتقل في سجن الواحات الخارجة ، ولا يتركه الا  
وقد كتب الطفل الى امه المناضلة « انتصار » خطابا يقول :

« عليك ان تقومي بتنفيذ المطلوب منك ، لتخرجي ، لان اولادك محتاجون اليك ، خصوصا « هشام » الصغير .. ومن غير المعقول ان تبقي في السجن انت وزوجك ، واولادك وحدهم في الخارج » .

الطفل يخاطب اعز مخلوق لديه بعبارات تبين مدى التمزيق الذي اصابوا به صورة الام والاب في ذهن ابنهم .. الطفل يقول لامه : « انت » ويتحدث عن اخوته ، فيقول « اولادك » ويحدثها عن ابيه بقوله « زوجك » .

« بابا ... لا احبك »

وتبدل محاولات شتى من جانب اخوة الصاغ صيدلي محمود القويسني عضو المجلس القومي للسلام لدى السلطات للافراج عنه ، وتشرط السلطات ان يبدأ « القويسني » من جانبه باعلان تأييده من المنفى لسياسة « الرئيس » عبد الناصر ، وتفشل تلك المحاولات ، وبايحاء من السلطات تلقي الكلمات المسمومة في اذني ابنته « امانى » وترسل له هذه الطفلة البريئة تقول :

« انا ما بحبكش يا بابا ، علشان انت مش هاوز تيجي لنا ، ومش معقول انك تقول بانك تحبني وانت مش هاوز ترجع لنا ، لو كنت بتحبا صحیح ، زي ما بتقول ، كنت لازم ترجع لنا لكن انت ما بتحباش ، وانا علشان كده ما بحبكش » .

ان مثل هذه الكلمات ، كلمة « ما بحبكش » من طفلة لايها ، لاقسى عليه من حكم الاعدام .. ان الاب يتلقى تلك الكلمات طعنات في صدره .. ابنته .. انفردت بها الافاعي ، انهم لا يحرمونها من حنانها ، ولا يحرمونه من حنانها وجبها وحسب ، بل يقتلوننا كأبنة ، حينما يمزقون علاقاتها بأبيها على هذا النحو ، حينما تعيش وتكبر ، وقد وضعوا في ذهنها ان اباه لا يحبها وانه قد اهملها ، وانها لا يجب ان تحبه .. ولتتعذب الطفلة ولتنهشها تلك الافكار الوحشية التي زوروها في رأسها ، ولتبكي كل مساء قبل ان تنام اذ تنتظر قبلة الاب فلا تأتي .. لان اباه « لا يحبها وقد اهملها » ولتمزق الحسرة نفسها الغضة ، كلما رأت ابا يحمل طفله ، او يسير بها يدها في يده .. ان يدها الصغيرة تمتد لكي تمسك بها يد ابيها ، فلا تجدها .. « فهو لا يحبها » وهو « قد اهملها » ..

ولتتمزق كل القيم الجميلة التي تنبت حول عاطفة البنوة والابوة ، ولتنبت مكانها المرارة ، والتمرد ، والحقد ، والكراهية ، « فابوها لا يحبها »

« وابوها قد اهلها » ... هكذا علموها .. وهكذا يعلمونها .  
والاب مظلوم اليدين في الواحات . يراهم يقتلون ابنته . ولا يستطيع  
حرآكا ، كيف يكتب اليها شارحا الموقف ؟ . واذا استطاع ان يكتب لها .  
فكيف ستفهم ؟ . انها ما زالت طفلة ، ولا تفهم ما هي الثورة ، وما هي  
الديمقراطية وما هو التسلط ، وما هو الاستبداد ... لن تفهم ماذا تعني  
كلمة العقيدة ، وماذا يعني ان يستنكر المرء عقيدته .

### « حكاية قديمة »

ان قصة الصاغ سيدلي محمود القويسني وابنته امانى التي يحاولون  
الانتقام من ابيها في شخصها قد تكتمل دلالاتها ، حينما توضع في اطار  
الصورة الاكبر ، الا وهي قصته هو نفسه مع رجال ٢٣ يوليو . ان علاقته  
بالضباط الاحرار ترجع الى عام ١٩٤٩ حينما انضم الى احدى تشكيلاتهم ،  
وعمل في تنظيمهم الى ان فصل من الجيش في يونيو سنة ١٩٥٤ .  
ومنذ بدأت الثورة ، اخذ مكانه الى جانب ذلك الفريق من الضباط  
الذي كان يرى ان خلع الملك فاروق يفتح الباب امام الشعب لكي يمارس  
حرياته بشكل افضل عن ذي قبل ، وعليه فلا بد من اطلاق الحريات واقامة  
حياة دستورية ودعوة الشعب لانتخاب ممثليه .

تأزمت الامور في مجلس قيادة الثورة حول هذا الموضوع فسي ٢٧  
فبراير سنة ١٩٥٤ ، وابتعد اللواء محمد نجيب من مجلس الثورة ومن  
رياسة الجمهورية ، وكان « القويسني » واحدا من عشرات الضباط الذين  
تجمعوا من مختلف الاسلحة في ذلك اليوم بثكنات سلاح الفرسان الذي  
يقع في مواجهة القيادة العامة للقوات المسلحة حيث كان مجلس الثورة  
مجتمعا لمناقشة الوضع . وما يذكر ان الصاغ خالد محي الدين ممثل  
الاتجاه الديمقراطي في مجلس الثورة وقتذاك ، كان واحدا من ضباط  
سلاح الفرسان . وفي تلك الظروف كان الصاغ « القويسني » من الضباط  
النشطين في تجميع رأي عام قوي داخل الجيش حول قضايا الديمقراطية .  
في ذلك اليوم حاصرت المدفعية ، بأمر من جمال عبد الناصر ، مبنى  
سلاح الفرسان ، وتوجه عبد الناصر الى الضباط المجتمعين في سلاح  
الفرسان ، وكان على رأسهم اليوزباشي المهندس جمال علام من سلاح  
الصيانة . كان الوقت بعد منتصف الليل ، وتصدى الضباط لجمال عبد  
الناصر مملئين تمسكهم بكلمة خالد محي الدين : « ان للشعب هو الذي  
اعلى علينا الثورة ، ومن حقه علينا ان نطلق جميع حرياته » .

لقد اعلن الضباط في تلك الليلة رأيهم الحازم في ضرورة حل مجلس الثورة ، وعودة الجيش الى ثكناته ، ودعوة الشعب لانتخاب برلمانه ورئيس جمهوريته ، والغاء الرقابة على الصحف فورا ، وتراجع جمال عبد الناصر امام اصرارهم ، وعاد الى مجلس الثورة حيث اوفد خالد محي الدين لاحضار اللواء محمد نجيب الى المجلس ، وكان المجلس قد حدد اقامته بمنزله في ذلك الوقت .

وفي منتصف مارس سنة ١٩٥٤ ، كان « الصاغ القويسني » واحدا من الضباط الذين نشطوا في الاعداد لمؤتمر ضباط الجيش الذي عقد بنادي الضباط بالزمالك وحضره ١٠٠٠ ضابط من مختلف الاسلحة ، واتخذ قرارا جماعيا بعودة الجيش الى ثكناته ، وحل مجلس الثورة ، واقامة حياة ديمقراطية ، ودعوة الشعب لانتخاب ممثليه وحكامه .

ازاء ذلك التصميم من مختلف الاسلحة ، اصدر مجلس الثورة قراراته المشهورة في ٢٥ مارس سنة ١٩٥٤ ، بعودة الجيش الى ثكناته وحل مجلس الثورة وتسليم الحكم للمدنيين .

الا ان امرا اخر كان يدبر في الخفاء ، فاذا بعبد الناصر - عن طريق جهازه السري الخاص - يدبر اضرابات وهمية من جانب عمال السكك الحديدية والنقل ، وواقع الامر ان رجال البوليس الحربي قد احاطوا بالمخازن والورش الاساسية ، ومنعوا خروج القطارات والترام وسيارات الاوتوبيس ، واذيعت بيانات بالراديو نسبت الى بعض النقابات تطالب باستمرار مجلس الثورة .

واجتمع مجلس الثورة في ٢٨ مارس سنة ١٩٥٤ ، في غيبة خالد محي الدين وبعض الاعضاء ممن يحملون اتجاهه ، واتخذ قرارا بالغاء قرارات ٢٥ مارس وببقاء مجلس الثورة ، وصدرت الاوامر الداخلية في الجيش بانه « على الضباط عدم الاشتغال بالسياسة والالتزام بقانون الاحكام العسكرية ، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للعقاب » .

وفي ١٢ ابريل ، استدعى جمال عبد الناصر مجالس ادارة النقابات المهنية لمناقشتها في الامر ، وكانت كلها قد سبق ان ايدته قرارات ٢٥ مارس بحل مجلس الثورة واقامة الحياة الديمقراطية . وجاء دور نقابة الصيادلة ، وكان ( القويسني ) بصفته صيدليا عضوا بمجلس ادارتها . طلب منه عبد الناصر ان يتكلم ، فقال القويسني : « انني متمسك بآخر منشور اصدرته قيادة الضباط الاحرار وانت على رأسها قبل حركة ٢٣



يوليو ، نطالب فيه بالفاء الاحكام العرفية واعادة الحياة النيابية الدستورية،  
واذا كان قد حدث ما حولك عن التمسك بما جاء في هذا المنشور ، فلم  
يحدث بالنسبة لي ما يحولني عن ذلك ، وما زلت ارى ان هذا هو الطريق  
الذي يحقق للبلاد مصالحها العليا .

كان القويسني مكلفا بمهمة في المملكة السعودية ، فاستقل اول طائرة  
في فجر اليوم التالي ، ولم تكد الطائرة تصل الى جده ، حتى وصله نبأ  
بان منزله قد فتنش وانه مطلوب القبض عليه ...

### « مسالة اخلاق »

لقد سمحوا له بعد ذلك بالعودة الى مصر ، وفور وصوله توجه الى  
المستشفى العسكري العام التي كان يشغل منصب اركان حربها ليعرف  
مبلغا من المال كان متبقيا له فيها ، اذ انه كان قد فصل من الجيش ، وهناك  
التقى « بالبكباشي » احمد انور قائد البوليس الحربي ، الذي بادر  
« القويسني » بقوله : « انت عارف انت اتفصلت ليه من الجيش » ؟ فرد  
القويسني : « اذا كنت تعرف السبب فاخطرني به » ، فقال البكباشي احمد  
انور « لانك شيوعي ابن كلب » ...

فلما طلب منه « القويسني » ان يتحفظ في كلامه ، هجم عليه  
كالوحش الضاري محاولا ضربه ، لولا ان تدخل بينهما ضباط المستشفى .  
وهنا مسالة لها دلالتها الاخلاقية ..

ذات ليلة قبل ذلك بعدة اعوام في عام ١٩٥٠ ، وصلت الى مستشفى  
العريش العسكري اشارة من محطة « المقصف » : اشارة تلفونية تقول ان  
القطار قد توقف وان به سيدة هي زوجة احد الضباط تعاني الام الوضع ،  
ولا بد من ارسال نجدة طبية لاتقاذها ، ورفض الضباط الاطباء الموجودون  
ان يقوموا باي عمل ، متعللين بانه ليس هناك طريق ممهد بين العريش  
والمقصف ، وانه من الغباء ان يحضر ضابط زوجته الحامل في تلك الرحلة  
الطويلة الشاقة من القاهرة الى العريش ..

ولكن القويسني الذي كان موجودا بمستشفى العريش العسكري  
حينذاك ، بحث عن احد الجراحين واقنعه بمرافقته ، وجهاز كل المعدات  
الطبية اللازمة ، وانطلق مع الجراح في منتصف الليل بسيارة اسعاف  
« رينو » مسافة ٣٠٠ كم في الصحراء الوعرة حتى وصلوا الى حيث وقف  
القطار . وعلى منضدة في عربة الطعام ، اجريت عملية جراحية للسيدة

وانقذت هي وولدها من موت محقق ، وعاد بها « القويسني » واقام لها جناحا في المستشفى العسكري ، حتى يضمن لها الرعاية الطبية ، مخالفاً بذلك اللوائح العسكرية ، التي رأى انها لا يمكن أن تقف في وجه الاعتبارات الانسانية ، الى ان حضر زوجها الذي كان يعمل في المخافر الامامية .  
كانت السيدة هي زوجة البكباشي « احمد انور » قائد البوليس الحربي بعد حركة ٢٣ يوليو .

الجزء السابع  
حیاتک او عقیدتک

## الفصل الاول

### في وادي الموت

حقيقة توقف التعذيب البدني الذي ساد الاوردي ، وحقيقة استطعنا بعد معارك دائمة ، وخاصة بعد اضراب يوليو ١٩٦١ ، ان ننتقل الى ظروف معيشية احسن نسبيا ، فقد تمكنا من الفاء السخرة ، ومن الحصول على حق انتعال الاحذية ، ولكن خطة النظام لتصفية اصحاب العقيدة اخطبوط ذو اربعين ذراعا ، تعتمد في الاساس على استغلال الطبيعة البشرية تجد لها عملاء في بعض العناصر ، وخاصة تلك التي انجذبت الى صفوف النضال في سنوات الكفاح الوطني الاخيرة ، ولم تتأصل فيهم طبيعة المناضل وثباته وصلابته .

كانت خطة التصفية تستهدف هؤلاء على وجه الخصوص ، فالمنفي البعيد وقسوة الحياة ، والحرمان العاطفي والمادي ، وانقطاع الصلة بالاهل ، لا زيارات ولا رسائل .. والزمن ... والشعور بالقربة .. والاحساس الذي يتكون عند البعض بانه مهمل .. وان العالم قد نسيه .. وتلك الخطابات المسمومة التي تبذر القلق على مصير الاهل ، الاب والام والاخوة الصفار ، الزوجة او الاطفال ، كلها عوامل يطعمون من ورائها الى ان يسيروا بالطبيعة البشرية خطوة خطوة نحو حالة من القلق المتصل ، والملل من المقاومة المتصلة تدفع صاحبها الى ان يكيف نفسه فكريا بما يتلاءم مع مقاومته التي ينال منها القلق والملل ، فتبرر اتجاهات المصالحة مع الحكومة ونظريات جوهرها النظر الى التمسك بالعقيدة وكأنه طريق مسدود ، والبحث عن طريق من خلال الناصرية .. وتبلور الموقف نهائيا لحملة تلك الافكار في هجران صفوف الحزب ... ومن ثم يكون هؤلاء ضمن المرشحين للترحيل الى معتقل الدرجة الثانية في الفيوم ، حيث

تعتصرهم المباحث نهائيا .. فلقد سار الواحد من هؤلاء شوطا بعيدا في التخلي عن تاريخه وقيمه ومعتقداته املا في المصالحة مع النظام .. ولقد سار الواحد من هؤلاء شوطا بعيدا لم يعد سهلا العودة منه ومن هنا يكون الانزلاق اسهل .. والاستنكار ، وتقديم الاعترافات .. والنظام لا يعتمد في الوصول ببعض العناصر الذين يأمل افتراسهم الى هذا الحال على عامل الزمن والقلق والملل فحسب ، بل يصر على ترك المعتقلين دائما مهتدين بالموت ، ويرسم رجال النظام خططهم ، بحيث يسقط عدد من المعتقلين موتى بسبب اهمال العلاج الطبي ، حتى يكون الموت كمصير مسألة مادية مجسدة لا مجرد خطر يتهدد ..

ان حسن المصليحي مستشار الرئيس لمكافحة الشيوعية يقول للرفاق الذين ينهون مدد عقوبتهم ويرفضون استنكار مبادئهم كمنم للافراج عنهم : « سأعيدكم الى الواحات حتى تموتوا كما يموت شعبان حافظ » .  
وبالفعل يصاب العامل علي زهران ويترك دون علاج وصرخاته تدوي في المعتقل حتى اخر لحظة فينقل الى المستشفى ثم يفرج عنه افراجا صحيا ليموت فور وصوله الى بيته .

والمهندس رشدي خليل « يصاب بالتيفوئيد » ويتقدم الى الطبيب ، فيصبح مأمور السجن متهما اياه بادعاء المرض ، ويجيب الطبيب ودون كشف على المريض يقرر ان لا مرض به ، ويظل اربعين يوما والحمى تفري امعاءه حتى اذا اشرف على الموت ، نقل الى مستشفى سجن القاهرة ، حيث يترك مهملًا ، وتأخذ الحمى بخناقه فينتفض بشكل عصبي راکضا ملتصقا ما يخفف عنه الحمى حتى يصل الى جوار بوابة السجن فيسقط وقد لفظ انفاسه الاخيرة ، وتلقى على جثمانه بطانية قدرة ويترك حيث سقط وتأتي عربة تسلمه جثة هامدة لامة المعجوز واشقائه الصغار وخطيبته التي كانت تنتظره .

ويصاب النقابي « سيد امين » عضو مجلس ادارة عمال نسيج القاهرة بالسل ، فيترك مهملًا ، يتحالف عليه البرد والجوع والمرض حتى اخر لحظة، ثم ينقل الى المستشفى حيث يموت وتسلم جثته الى زوجته في شماتة ، فلقد اعتقلوها رهينة حينما اختفى زوجها المناضل النقابي عند صدور امر باعتقاله وكم ضربوها على قدميها وكم عذبوها واهانوها ليجبروها على الادلاء على المكان الذي يختفي فيه ، ولكنها صمدت وقاومت وابست ان تسلم زوجها بيديها الى ان سلموها هم زوجها جثة هامدة .

ويصاب العامل « حسب الله علي موسى » عضو مجلس ادارة النقابة العامة لعمال النسيج بشبرا الخيمة بتسمم بولي « يوريميا » للمرة الثانية ويترك دون علاج ثم ينقل في اخر لحظة الى المستشفى حيث يموت وتسلم جثته لزوجته واولاده ، ولم يكن لهم في الحياة غيره .

والمناضل « احمد البكار » يصاب بسرطان في المعدة ، ويفحصه طبيب السجن اكثر من مرة ويقرر الا مرض به ، ويرفض ملاحظات الاطباء المعتقلين الذين يبدون قلقهم لان اعراض المرض التي يرونها ، هي اعراض الداء الخبيث . حتى اذا تدهورت حالته ، نقل الى المستشفى الجامعي في القاهرة ، وهناك يضعه الجراحون على منضدة العمليات ولما شقوا بطنه وجدوا السرطان قد استشرى بما لا يترك ثمة بصيص من امل في انقاذه ، فلا يجرون له اية عملية جراحية ويفرج عنه افراجا صحيا ليموت فور وصوله الى داره .

## الفصل الثاني

### « خيط من الماضي »

ولكن المصليحي مستشار الرئيس لم يكن ليكتفي بذلك ، بل كان يريد للموت ان يتم امام اعين المعتقلين في الواحات الخارجة ، فرؤية الموت اوقع اثرا من السماع به ، وكانت كلمات الرفاق العائدين تشير الى انه قد اختار شعبان حافظ لهذه التجربة .

فمن الشكاوى المستمرة التي كان يرسلها الشهيد شعبان حافظ كان المصليحي يعلم ان هذا الشيخ الذي ناهز الستين من عمره مريض بالقلب وانه مهدد بالذبحة الصدرية ولذلك فحينما انتهت في اول يناير سنة ١٩٦٢ السنوات الثلاث المحكوم بها عليه من المحكمة العسكرية العليا ، رفض المصليحي الافراج عنه ، واستصدر امرا عسكريا باعتقاله ، ابقاه بمقتضاه في سجن الواحات الخارجة معتقلا ، كل الذي حدث انه نقل من سجلات السجن من قائمة المسجونين الى قائمة المعتقلين ، وسلمت له ملابس المعتقلين الخشنة البيضاء ، بدلا من ملابس المسجونين الزرقاء .

وعلى الرغم من ان الطبيب الذي يمر بالسجن مرة كل اسبوع مرورا عابرا لم يستطع امام حالة الشيخ المتدهورة الا ان يقرر خطورة وضعه وضرورة نقله الى احدى المستشفيات لعلاج ، وسجل الطبيب ذلك في تقاريره التي ارسل بها الى المباحث العامة ، ورغم كل ذلك اصر المصليحي على تجاهل حالة الشيخ وتقارير الطبيب ورفض السماح بنقله الى اي مستشفى للعلاج .

ان اختيار شعبان حافظ لكي يموت بين ايدي المعتقلين في الواحات لم يكن فقط لان السلطات تعلم بانه مهدد بالذبحة الصدرية وانها توشك ان تجهز عليه ، ولكن ايضا لثأر قديم بين سلطات مكافحة الشيوعية وبين الشهيد .

فهذا البروليتاري الشيخ ، كان واحدا من قادة الحزب الشيوعي المصري الذي تأسس عام ١٩٢١ ، وساهم مع سكرتير الحزب الرفيق « انطون مارون » في تأسيس اتحاد عمال مصر الذي حله سعد زغلول عام ١٩٢٤ حينما اصدر في نفس الوقت قرارا بحل الحزب الشيوعي وقام بمطاردة اعضائه .

كان **شعبان حافظ** من ابرز المناضلين الشيوعيين في ذلك الوقت ، ومثل مصر في مؤتمرات « الكومنترن » وهو الوحيد الذي استطاع الافلات من الحملة التي شنها سعد زغلول على اعضاء الحزب . وحينما القي القبض عليه بعد ذلك اسقطت عنه الجنسية المصرية ونفي الى خارج البلاد فعاش في الاتحاد السوفيتي زمنا ، ثم عاد سرا الى مصر عام ١٩٢٦ ، وواصل نشاطه في تنظيم صفوف العمال ملتجئا الى الريف كلما احس بايدي رجال مكافحة الشيوعية تقترب منه ، والقي القبض عليه مرة ثانية ، فحكم عليه بالسجن لمدة ستة اشهر ابعد فور انقضاءها عن البلاد . وعاد سرا للجرة الثانية ، وانخرط في صفوف الحركة الشيوعية الجديدة التي تأسست اثناء الحرب العالمية الثانية ، وساهم في انضاج قضية توحيد المنظمات الشيوعية في حزب واحد للطبقة العاملة .

وامتدت اليه الايدي الائمة في اول يناير سنة ١٩٥٩ .

لقد ظل الشهيد وسط قسوة المنفى ، ورغم كبر سفه وآلامه التي كان يكتمها ، يعيش بيننا بجسده الضئيل ووجهه المفضن وبسمته التي لا تفارق شفثيه ، رمزا للصلابة البروليتارية وقبسا من الرواد الاوائل شهداء ١٩٢٤ وخيطا ممتدا من امام شهداء الشيوعية في مصر الرفيق ( انطون مارون ) . لقد اخذ على عاتقه رغم مرضه ، ان يبيت كل ليلة في زنزانة من زننازين السجن يحكي لابنائه مناضلي حزب ٨ يناير قصة ابائهم مناضلي حزب ١٩٢٤ .

وفي صبيحة ١٤ مارس سنة ١٩٦٢ ، خرج معنا الى بوابة السجن لتوديع مجموعة من الرفاق الذين انهوا مدة عقوبتهم ، وهم يرحلون الى القاهرة ، ليخبروا بين عقيدتهم ، وبين العودة الى منفي الواحات . وعاد شعبان حافظ الى زنزانه ، وهناك فاجأته ازمته القلبية . وفي اقل من عشر دقائق وقبل ان يصل اليه طبيب من زملائنا المعتقلين كان شعبان حافظ قد لحق برفيقه وزميل نضاله « انطون مارون » .

وتجمعنا امام زنزانة الشهيد ، والحزن والغضب يغمران المكان



والكلمات النارية يليها بعض الرفاق « فليكن الدرس الذي نتعلمه من حياة الرفيق الشهيد هو كيف نمسك برايتنا في قوة وثبات مهما كانت الاحوال، وليكن الدرس الذي نتعلمه من موته ، هو كيف نحقد على قتلته من اعماق قلوبنا » .

ان الفرع والقلق ، والخوف من الموت ، الذي اراد المصليحي ان يبذر بدوره في نفوس المسجونين والمعتقلين بموت شعبان حافظ بينهم قد تحول الى عاصفة من الحقد .

لقد نعش الشهيد في بطانية حمراء وزين بالزهور ، وثبتنا فيه بطاقة ، كتب عليها « من اجل انبل قضية مات شعبان حافظ » وفي الرابعة بعد الظهر حمل اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري نعش الشهيد وسار خلفه خمسمائة من المسجونين والمعتقلين ولاول مرة يزى سجن من سجون مصر مثل هذه الجنازة المهيبة حيث طفنا به جنبات السجن والاصوات تدوي من حوله بنشيد الشهداء :

سلام تقدمه في فخار	جنود الكفاح لابطاله
الى اكتوبر والثوار	والى يوم مايو وعماله
لكل شجاع الى الانتصار	مضى في ثبات الى حتفه
سلام يزلزل قلب الطفلة	بحطم من ليس يحيا به
سلام تقاتل دون حماه	ونمشي الى الموت من اجله
سلام يقيم بناء الحياة	نعيم الملايين في ظله
سلام عليكم رفاق اباة	ومن جاد منكم بانفاسه
على قبركم في مهب الرياح	حفراء تحقق راياتنا
نحيي رفاقا خاضوا الكفاح	وماتوا ليحيا بهم حزينا
ازاحوا الظلام بحد السلاح	وبالدم خطوا تقاليدنا
وما دام ليل يليه صباح	يعيش ويخلد شهداؤنا

لقد شاركنا في تشييع جنازة الشهيد كل من في السجن ، وكلما مر جثمانه بواحد من الحراس اخذ بجلال الموقف فادى للجثمان التحية العسكرية ثم وضع النعش في السيارة التي ستقله الى محطة اسيوط . حيث ينقله القطار ليسلم الى ذويه في الاسكندرية ، حيث تحتضنه الارض التي كافح من اجلها ، والتي حاولوا عبثا ان يبعده عنها . وفي بطء نحرمت السيارة خارجة من السجن وحراسها يلوحون بايديهم ، يردون عن الشهيد تحياتنا الاخيرة له ، وخرجت السيارة من باب السجن واصوات خمسمائة من المسجونين والمعتقلين تدوي في سماء السجن مودعة الشهيد :

- تحيا ذكرى شعبان حافظ .
- عاش كفاح الشعب المصري .
- عاش كفاح الشيوعيين المصريين .
- تحيا ذكرى شهداء الشيوعية .

لقد اتار موت الرفيق الشهيد شعبان حافظ مشكلة العلاج الطبي والاهمال المتعمد فيه ، خاصة وقد جاء موته في اعقاب « انفلونزا » اجتاحت السجن بشكل وبائي ، وظهر من آثارها ، كيف تدهورت حالتنا الصحية بحيث ادت الى عجز ما يزيد على المائتين ممن اصيبوا بها عن الحركة تماما لمدة اسبوعين .

فما زلنا حتى اليوم نعيش في سجن الواحات الخارجة على قطعة جبن من نوع رديء للغاية في الفطور وكمية هزيلة من الفول او العدس للفداء وبضعة ملاعق من الارز الى جوار ماء ساخن يسمى كدبا بالحساء، وقطعة صورية من اللحم تقدم ثلاث مرات في الاسبوع لطعام العشاء . وغير مسموح لنا بالتعامل مع مقصف السجن الا في حدود الجنيهين للفرد خلال الشهر الواحد ، ولما كانت الاقلية منا هي التي تملك نقودا للتعامل مع المقصف فان نصيب الفرد من المتوسط لا يتعدى بضعة قروش لا يمكن ان نشترى بها المرء الا اشياء هزيلة اذ تنص لائحة المقصف في السجن على ان يكون الربح في السلمة ٢٥ بالمئة من ثمنها الذي تباع به في السوق .

لقد طال الاحنا على ادارة السجن بضرورة نقل الحالات المرضية الخطيرة الى المستشفى الجامعي في القاهرة للعلاج ، اذ بيننا عشرات من حالات القرع المعدية والتهابات القولون ، وامراض المسالك البولية وضغط الدم ، والربو ، وامراض القلب والسل والانيميا الحادة وغيرها من الحالات التي تحتاج الى تشخيص دقيق .

وازاء تلك الادارة ومماطلتها امتنعنا عن تسلم الطعام لمدة يومين احتجاجا على هذا الاسلوب ، وبالطبع رفضت قيادة المجموعة المنقسمة مشاركتنا في ذلك الاحتجاج، اذ على حد قول احد المسؤولين فيهم : « اننا نبالغ اذا ما طلبنا للمسجون والمعتقل مستوى من الرعاية الطبية مساويا لما يحظى به المواطن خارج الاسوار» .

وواجهت الادارة الموقف بترحيل بعض الحالات الخطيرة الآتية : اديب ديمتري عضو مجلس السلام القومي المصري ، اشتباه سرطان في الحنجرة . محمود عطاالله ، رئيس نقابة عمال شركة مصر لكفر الدوار للفضل

والنسيج ، ضغط دم ، نزلة شعبية ربوية ، جيوب انفية ، التهاب في المثانة .

- سعيد عارف ، رسام بجريدة الشعب ، سل رئوي .
- احمد رضا ، مهندس ديكور ، سل رئوي .
- عبدالمنعم ناطوره ، عامل نسيج ، سل رئوي .

ولكن ترجيل هذه الحالات لم يكن يعني اي تحول في الموقف ازاء حالة المعتقلين الصحية ، ولقد ظهرت حالات من حمى التيفوئيد والتهاب الكبد المعوي ورفضت الادارة ارسالها الى مستشفى الحميات للعلاج ولابعادها عن الزنازين المزدحمة والتي يضم كل منها اربعة عشر معتقلا ، مما يهدد بانتشار تلك الامراض الوبائية بينهم وهم في زنازين مغلقة ، داخل عنابر مغلقة ، داخل سجن معزول ، وسط بحر من الرمال لا توجد به الادوية اللازمة مثل حبوب الكلورومايسين وحقن الجلوكوز والفيتامينات ، وحيث لا توجد صيدلية قريبة ، وحيث لا تنبت الصحراء خضرا اوفاكهة ، وباختصار حيث لا غذاء ولا دواء ، وبين المعتقلين اربعة اطباء وعدد من طلبة الطب تحاول الادارة عزلهم عن المرضى وتحرم عليه قراءة اي كتاب طبي ، او مرجع علمي ، وتسفه من ارائهم ولا تعطى لاحكامهم اذنا صاغية .

## الفصل الثالث

### أردنا له الحياة

لقد حذر الدكتور عبد المنعم عبيد ، وهو احد الاطباء المعتقلين من ان حالات اخرى من التهاب الكبد الوبائي يمكن ان تظهر نتيجة عدم توافر امكانية المزل او تنظيف الاواني ، ونقص المطهرات والادوية .

وفي احدى الزنازين المغلقة ليلا، ارتفعت الحرارة لدى احد المعتقلين وانتابته ادوار من القيء الشديد مدة يومين ، وفحصه الدكتور عبيد فتبين ان بوله له لون العرقسوس الداكن فأخذ منه عينة ، وحدث ان استدعت الادارة طبيب مستشفى بلدة الخارجة ليأمر بترحيل صحفي شاب كاد يفقد بصره ، بعد ان اضرب عدد من زملائه المعتقلين عن الطعام مطالبين بضرورة ترحيله الى احدى المستشفيات لانقاذ نور عينيه ، وطالبنا بان يأتي الطبيب لفحص اسماعيل عبدالحكيم وهو المريض الجديد ، فتوجه الطبيب الحكومي الى زنزانه ليراه راقدا على برش على الارض الصخرية ، ودون ان يفحصه او يقيس درجة حرارته ادار وجهه وانصرف قائلا: انها مجرد حالة انفلونزا . ورغم عينة البول التي اراها له الطبيب المعتقل منبها الى ان المريض مصاب بحمى التهاب الكبد الوبائي وانه يجب ترحيله الى مستشفى الحميات ، فان الطبيب الحكومي لم يعياً لكل هذا خوفا من غضب السلطات اذا هو امر بترحيل المريض ، واستجابة لاوامر سرية من المباحث العامة بعدم ترحيل اي مريض جديد الى المستشفى .

وبدا الدكتور عبيد يعالج المريض الجديد بالكميات الضئيلة من الجلوكوز التي امكن وجودها في السجن الا انه في اليوم التالي بدأ المريض يهذي ويردد بعض الكلمات بلا توقف ، وكان هذا انذارا بان المريض قد دخل في مرحلة شبه الاغماء الناتج عن التسمم الصفراوي .

ومع ذلك اصرت الادارة على عدم نقل المريض ، لقد افهمنا قائدالسجن انه اتصل بالمباحث العامة بالقاهرة بخصوص تلك الحالة الجديدة ولكنهم رفضوا ترحيلة وكان هذا يعني انهم قد حكموا عليه بالموت في الواحات ،

وثارت ثائرة المعتقلين والمسجونين ، ورأى قائد السجن ان الامور تنذر بالانفجار مما قد يؤدي الى موقف لا يستطيع التحكم فيه ، خاصة وان حالة الهياج لدى المريض قد ازدادت حدة واخذ يتقلب في السرير كل عدة ثوان ويتشنج كلما حقن بالجلوكوز ومع ازدياد حالته خطورة تزداد حالةالهياج لدى المعتقلين والمسجونين الذين تجمعوا عن بكرة ابيهم امام حجرة المريض حيث كان قائد السجن فيها في ذلك الوقت .

وازاء هذا الموقف اضطر الى ان يرسل مستدعيا طبيب مستشفى بلدة الخارجة وان يحضر معه بعض الادوية والاجهزة التي طلبها الاطباء المعتقلون الذين تجمعوا حول المريض . كان المريض يحقن بالجلوكوز بمعدل ٦٠ سم ٣ في درجة تركيز ٤٠ بالمئة كل ثلاث ساعات مع حقن فيتامين ج وخلصا الكبد وفيتامين ب المركب ومحلول الملح بوساطة جهاز نقل الدم الذي علق في حبل نظرا لعدم وجود حامل .

#### ظهر الاثنين ٤ يونيو :

المريض في حالة اغماء ، ساكن في سريره ، لا يستجيب لاي نداء ، وتنفسه ثقيل ، لا يستطيع البلع ، وبانت على شفثيه واذنيه واطرافه زرقة خفيفة ، لا يستجيب حتى لوخزات الابر الكثيرة . أعطى المريض ثلاثين انبوب جلوكوز ٢٠ سم ٣ . ٤٠ بالمئة في الوريد وترا من محلول الملح على مدة طويلة مع الكلسيوم وفيتامين ك ، وخلصا الكبد .

#### مساء ٤ يونيو :

بدا اللون الازرق التراخي يغطي الوجه والاطراف مختلطا بالصفرة الشديدة والمريض لا يعي انه يبول على نفسه بولا في لون عصارة الكبد .

ولفت نظر الاطباء المعتقلين حالة صعوبة التنفس والزرقة الشديدة والاغماء الكامل . كان التنفس بواسطة عضلات البطن علامة مزعجة ، الى جانب صدور صفير من الانف اثناء الشهيق ، مما يشير الى ان الجهاز التنفسي قد تأثر بالحالة . ولما ارتفعت الحرارة الى ٣٩/٥ تبين الاطباء المعتقلون انهم امام حالة جديدة هي الالتهاب الرئوي وادركوا ان مهمتهم في شفاء المريض المعنى عليه قد غدت شيئا بالغ العسر والمشقة وجرى البحث

في كل السجن عن اي دواء مضاد للحيويات ، وبالكاد عشر على ثلاث حقن « تتراسيكلين » ولما اعطي المريض اول قطرة في الوريد اصيب بصدمة وتقيا ولكنهم واصلوا اعطاء الدواء .

#### ٤ يونيو ليلا :

امضى المريض اسوا لحظاته ، وكل لحظة تمضي به بسرعة نحو الموت ، وحينما ادرك بعض الاطباء المحيطين به ذلك ، بدأوا يتسربون من الحجرة واحدا اثر الاخر ، وفي طريقة العنبر حيث لم تستطع الادارة اغلاق الزنازين ، كان مئات الرفاق يجلسون واجمين ، مصممين في حالة الوفاة ان يمنعوا خروج الجثة بالقوة حتى تأتي النيابة لتسجل ان الموت قد تم نتيجة للاهمال المتعمد مما يشكل حالة جنائية .

المريض في اغماء تام ، ووصل التنفس الى مرحلة « تشاين - نتوك » وهي علامة خطيرة على قرب الوفاة وصار النبض ضعيفا للغاية .

#### الساعة الرابعة صباحا ٥ يونيو :

توقفت ماكينة النور التي تمد السجن بالكهرباء عن العمل واضيء مشعل صغير . الدكتور عبدالمنعم عبيد هو الوحيد الذي بقي الى جانب المريض يراقبه وقد اشتدت عليه الحمى .. المريض يلفظ انفاسه الاخيرة وقد اكتست يده وساقاه باللون الازرق واخذ يأتي بحركات بسيطة من يديه ويمشط شعره باصابعه بينما يصدر حشرجات متقطعة ، وتطرق قطرات اللعاب في حنجرته مع الانفاس الضئيلة، وليست هناك اسطوانة اوكسجين .

ادرك الجميع انه لم يبق سوى دقائق ويستقبلون جثة رفيقهم .. ولكن كلما سألوا الدكتور عبيد عن حالته ، اجاب : طالما انه يتنفس فهناك امل .

وفي غمرة اليأس اعطى الدكتور عبيد للمريض انبوب « اميتوفيلن » ربع جرام ، ثم اتبعه بانبوب « كورامين » ٥ سم ٣ كان قد حصل عليه لتوه بعد صراخ المعتقلين لمدة خمس عشرة دقيقة حتى حضر جندي ذهب فايقظ المريض واحضر منه انبوب الكورامين هذا رغم ان المرض كان ينكر وجوده طوال تلك المدة . ولما لم يحدث تقدم يذكر بدأ الدكتور عبيد في اعطاء النقط الاولى من انبوب كورامين جديد، ولكنه وجد ان النفس بدأ يتوقف فتترك الحقنة في يد احد زملائه ، وقام بممل تنفس صناعي عن طريق الضغط على الصدر فوق القلب والرئتين ، الا ان المريض بدأ يعطس بعد ثوان عطسا شديدا ، اضطر الطبيب الى سحب الحقنة من فراع المريض بعد تكرر

العطس والشهيق الشديدين مزات عديدة ، وبدأ التنفس يعود تدريجيا وفي مدى ربع الساعة صار منتظما ، وذا عمق معقول ونام المريض في هدوء زغاد النبض الى حجم متوسط وحسن اللون ، وبدأ الرفاق الساهرين يقابلون هذه الأنباء الجديدة بأمل بسيط حذر .

### صباح الثلاثاء ٥ يونيو :

وأصل الأطباء المساعدون من المعتقلين اعطاء كميات كبيرة من حقن الفداء والدواء ومحلول الملح والمقويات بكثرة وتركيز ، كررت حقنة التتراسيلين ٣٥٠ مع بعد ١٢ ساعة من الحقنة الاولى ، استمر انتظام التنفس ، وصار من السهل ان تدرك الانظار العديدة المسلطة على المريض انه يقلق اذا ما كان لديه رغبة في التبول فكانوا يساعدهونه ليتمكن من ذلك ، وصار في قدرة المريض ان يبلع بعض شراب الليمون ، الا ان الفواق «الزغطة» بدأ يسيطر على المريض ويضايق نفسه ، مع ارتفاع الحرارة الى ٣٩ رغم الجرعة الثالثة من التتراسكلين ، وبطول المساء بدأت الزرقة تعود ولكن بشكل اقل من الليلة السابقة ، وبفعل الكمادات الثلجة انخفضت درجة الحرارة ، وكان الخبر الذي هز السجن كله هو ان المريض قد جلس في سريره في شبه اغماء واستجمع كل قوته ليهمس في اذن من يسندونه بثلاث كلمات يعبر بها عن رغبته في التبرز ، وبعدها نام . ولما استيقظ استطاع ان يتعرف على اثنين من المحيطين به .

### الاربعاء ٦ يونيو :

كان المريض في حالة تسمح بنقله . ومنذ يومين كان قائد السجن بعد اتصاله بالمباحث وابلاغها بخطورة الموقف قد حاول نقل المريض الى القاهرة ولكن الأطباء قرروا انه لن يتحمل الرحلة . وانه من المؤكد انه سيموت فور مغادرته السجن ولذلك اوقفنا عملية النقل . اما اليوم وبعد ان قرر اطباؤنا انه بمقدور المريض ان يتحمل الرحلة فقد طلبنا من قائد السجن تنفيذ ذلك وازاء الرجل الذي كان يظلي ويهدد بالانفجار اضطر القائد ان يقوم بنقل المريض .

وفي العاشرة من صباح ذلك اليوم تجمع على طول العنبر الى باب السجن مئات من المسجونين والمعتقلين الشيوعيين ، والمسجونين من غير الشيوعيين والسجانة وجنود الكتيبة التي تحرس السجن والموظفين ليشهدوا المعجزة التي تحققت . ليشهدوا ذلك الذي ارادت له السلطة ان يموت ، واراد له الشيوعيون البقاء ، فعاش وحمل اعضاء اللجنة المركزية سرير المريض

وخرجوا به وسط ذلك الحشد الهائل والمريض يحيى من حوله بحركة خفيفة من يده الى ان وضموه في سيارة انطلقت به .

لقد رات المباحث المصرية ان موت شعبان حافظ لم يحدث فينا الاثر الذي كانت تريده وبدلا من ان يشيع بيننا الرعب من الموت فقد اثار فينا روح المقاومة ضد الموت الذي يفرضونه علينا في الواحات، ولهذا رات ان تكرر التجربة بشكل اعنف وفي شاب لم يتجاوز السادسة والعشرين ، الا ان خطتها تحطمت حينما اصطدمت بارادتنا الا يموت .

اضطرت السلطات ازاء الثورة العارمة في سجن الواحات ان تسمح لنا بتسلم طرود الاغذية ، وان يكن ذلك في حدود ، وان يكن عدد الذين في قدرتهم تسلّم الطرود محدودا ، كما سمحت لنا بحق الاطلاع على الصحف بعد ان ادركت ان خطتها في عزلنا عن تتبع العالم الخارجي فاشلة ، وذلك على اثر ضغط جهازي راديو ترانزستور لدينا . ولكنها اصرت على متابعة سياسة الموت البطيء وفي تحد ، وكما لو كانت تنتقم لهزيمتها في محاولة قتل اسماعيل عبدالحكيم .

فبعد اسبوعين فوجئنا بزملائنا المرضى ، الذين كانوا قد رحلوا الى القاهرة للعلاج ، يعادون الى سجن الواحات ، ويروون لنا اغرب قصة . . .  
لقد نقلوا الى سجن القاهرة بدلا من مستشفى النيل الجامعي وظلوا هناك طوال تلك المدة تحت الحراسة المشددة ، يلقون في زنازين قدرة لا متاع لهم الا بطانيتين مهلهلتين على الارض مباشرة حتى حصيرة الليف الرقيقة « البرش » قد حرموا منها ، والقمل والبقي يملان الزنازة ، واردا اصناف الاطعمة تقدم اليهم ، وتفتيش تصفني في الصباح وفي المساء دون ان يمرضوا على طبيب ، فلما امتنعوا عن الطعام لمدة يومين اعيدوا جميعا الى سجن الخارجة .

كان موقف السلطات من المرضى ، هو باختصار « لا علاج لكم عود .  
لتموتوا في الواحات » . وكان موقفها منا معشر المعتقلين هو « لئن لم يمت اسماعيل عبدالحكم ، فكل من يمرض منكم لا علاج له » :  
حتى الجنون لم يشفع لصاحبه ، فلقد اصيب المعتقل رزق مكاري بالجنون ، واعادته السلطات الى المنفى ، وكانما لتقول : « حتى الجنون لن يشفع لصاحبه » .

لقد تطور موقف السلطة من قضية العلاج الطبي الى مساومة المرضى على صحتهم . وهنا نترك للمذكرات الصحفي الشاب فتحي خليل عبدالفتاح المحرر بجريدة المساء الحديث عن ذلك الطور الجديد :



## الفصل الرابع

### بصرك أو عقيدتك

الاثنين ٧ مايو :

« واخيرا اجتازت السيارة بوابة مستشفى النيل الجامعي ، ونزلنا جميعا : الجنديان يحمل احدهما بندقية سريعة الطلقات ، والضابط الشاب في المقدمة يتلفت دائما حوله ويتحسس بين الحين والآخر اوراقا يحملها وازا به المعتقل السياسي - يزين معصمي القيد الحديدي .

كانت هذه القافلة قد تحركت بالامس من سجن الوادي الجديد بالواحات الخارجة بقصد عرضي على اطباء العيون بالمستشفى الجامعي . ثلاث سنوات مرت علي انا وزملائي في هذا السجن حيث الصحراء يتبدد عليها البصر ، وحيث الشمس عملاقة جبارة لا يحد من سلطانها سحب او مطر ، كان علينا طوال تلك السنين ان نمشي باقدامنا العارية على الرمال الملتهبة ، والاشواك المظنية ، تستبد بنا الشمس المحرقة ونحن نقوم بالعمل الاجباري وسط الهضاب والزوابع الرملية .

ومنذ عشرة شهور وبالتحديد في يوليو ١٩٦١ بدأت احس الاما حادة في العينين ، وخاصة العين اليسرى التي بدأ ابصارها يضعف ، وطالبت في الحاح بان امنح فرصة لعلاج عيني ، ولكن اي علاج في ذلك المنفى ؟ حالة عيني تتدهور ، والابصار ضعيف باستمرار وشكوت ، ولكن الى من اشكو ؟ الى من رموني انا وزملائي في هذا المكان بفرض آثم لا يقل عن الرغبة في القضاء علينا ؟

ومرت الشهور ، وكل يوم يمر يحرمني من قدر من ابصار عيني ، وصوتي مع صوت زملائي الذي ارتفع مطالبا بانقاذ بصري ، يتبخر مع اشعة الشمس الحارقة ، او يتسرب في الرمال .

فقدت عيني اليسرى الجزء الاكبر من ابصارها واصبحت لا ارى بها سوى خيالات غير مؤكدة ، عشرة شهور اعاني فيها صداعا مستمرا والاما لا حد لها في العين ، وشبح العمى يقترب مني يوما بعد يوم وها هم يرسلونني اخيرا الى المستشفى ، ومع الضابط رسالة مكتوب عليها « سري جدا » فيها تعليمات بعرضي على طبيب الرمد واعادتي الى السجن .

وتكشفت لي الخطة ، فهم بعد ان استحال عليهم تركي اكثر من عشرة شهور دون علاج ، يعرضونني الان على الطبيب حتى لا تكون هناك مسؤولية من الناحية الشكلية .. ثم العودة الى السجن دون علاج .

ولكن كانت هناك نقطة ضعف في خطتهم - وان تداركوها فيما بعد - وهي انهم لم يختاروا الطبيب الذي يعرضونني عليه .. فحينما دخلنا قسم الرمد قدم الضابط اوراقي لاحد الاطباء .. طبيب شاب عرفت فيما بعد انه مدرس بكلية الطب ، اسمه الدكتور عصام توفيق ، قادني الى غرفة مظلمة وكان يبدو على ملامحه انه غير مرتاح لتلك المهمة ، واجرى الكشف على عيني ثم هز رأسه ، وصمت قليلا وحينما نظر اليّ ، احسست خطورة حالتي من نظره ..

قال : ليه سكت على عينك بالشكل ده ؟ .. وكان جوابي القيد الحديدي حول معصمي ابرزته له . ثم استطرد قائلا : « عينك اليسرى مصابة بـ « جلوكوما » - اي عليها ماء ازرق - ولقد تأخر علاجها ، واصبح استرداد البصر المفقود غير ممكن » .

وصمت .. واحسست بصراع يدور في داخله تكشف عنه ملامحه ، صراع بين واجبه كطبيب عليه ان يقوم بواجبه الانساني ، وبين التعليمات التي يحملها الضابط باعادتي الى السجن مع تقديم تقارير زائفة تبرر ذلك . وقطع الصمت قائلا : « لكن ما زال هناك امل ، وسأجري لك عملية كشط لوقف تدهور الحالة ولانقاذ ما يمكن انقاذه من ابصار ولو وقف تأثير المرض على العين اليمنى » . كان قد حسم الصراع الذي يعتمل في داخله ولكن الى صف واجبه الانساني .. الى صفى ..

وكتب لي الدخول فورا في قسم « ١٣ » رمد ، وحاول الضابط الاعتراض ، فهذا مخالف للتعليمات التي يحملها لاعادتي الى السجن ، ولكن الطبيب قال رايه في وضوح ، وهو انني في حاجة الى عملية عاجلة . فاضطر الضابط الى الاتصال بالمباحث العامة التي اسقط في يدها ولم تملك الا ان تسلم بما قرر الطبيب .

واشرك الامل في نفسي ، لقد وجدت اخيرا من بعالجني ومن ينقذني  
من العمى . . الاربعا ٩ مايو :

مضى علي في المستشفى يومان ، قام الطبيب بالابحاث اللازمة على  
العين توتر العين ٨٠ ( التوتر العادي ٢٠ ) والضغط عال كما حلل الدموع  
وخلايا العين وبدأ يعدني لاجراء العملية . استلقيت على سريري، وسرحت  
قليلا مع اعضاء القاهرة انتي تتللا امامي على البعد . والحارسان منهمكان  
في شرب الشاي الاسود .

هل ستنجح العملية ؟ . .

لقد اكد لي الطبيب انه رغم تأخر العلاج ، فهناك امل . . امل كبير .  
ام ترى سأفقد عيني ؟ وتحسستها . . واستعدت كلمات الطبيب ،  
وبسمته المطمئنة ونظراته المليئة بالثقة ، والمفعمة بالحب الانساني، وارتسمت  
على شفتي ابتسامة ، وتنهدت في ارتياح سأجري العملية ، وستنجح  
وسينقذ بصري .

وعدت من جديد انظر عبر النافذة المفتوحة ، القاهرة امامي غارقة في  
الاضواء ، والنيل يرسل تحياته في نسمة منشطة . . وادرت مفتاح الراديو  
. . وعشت مع اغنية دافئة . . ان ثلاث سنوات لم تنجح في ان تقتل في  
نفسى كل معاني الحياة الجميلة .

وجاءت التلميذة السهرانة . . حلوة رشيقة تدفع امامها في خفة  
عربتها الصغيرة المحملة بانواع القطرة والمرام ، واقتربت مني وهي تحمل  
في يدها زجاجة القطرة وقالت في ابتسامة حانية « موش تحط القطرة ،  
وتنام ، علشان تريح عينك ؟ »

واسلمتها عيني تملأها بالمرهم والقطرة ، وبوجهها الصغير المليء بالامل  
والحياة .

الخميس ١٠ مايو :

استيقظت في الساعات الاولى من الصباح . . الهواء الرطب المنعش  
يلمس وجهي في رفق ، فيبدد ما تبقى من الازر العباس في عيني، واستمتعت  
بمراى القاهرة في ذلك الوقت المبكر ، حيث الحركة قليلة تتجدد وتزداد  
كل دقيقة .

لقد نمت ليلة الامس نوما هادئا لم انعم بمثلها منذ ثلاث سنوات .  
جاءت الحكمة ممثلة نسبيا ، وان لم يقلل ذلك من جمالها وخفة  
دمها ، واخبرتني ان كل شيء على ما يرام ، وانني قد تجرى لي العملية غدا

او في الايام القليلة المقبلة .  
كم هو جميل ان تحس العطف والحنان ممن حولك ، بعد سنوات  
ثلاث لا يسمع فيها المرء الا الاوامر الخشنة ، وصوت الريح يعوي حول  
السجن كهواء الذئاب ..

وحوالي العاشرة ابلغتني الحكيمة بان الدكتور امين زايد يطلبني فسي  
عبر العمليات .. ماذا ؟ هل سأجري العملية ؟ هكذا وبهذه السرعة ؟ ولكن  
من هو امين زايد هذا ؟ وهل هو الذي سيجري العملية ؟ ..  
واجابت الحكيمة بابتسامتها الحارة : لا لا انت تتبع قسم الدكتور عصام  
.. الدكتور زايد في قسم اخر ..

وسألته اذن لماذا يطلبني ؟  
وقالت الحكيمة ، واعتقد انها كانت صادقة : لا اعرف .  
ذهبت وخلفي الحرس الى غير العمليات ، وجلسنا ، وعقلي يدور  
ويفتش عن السبب الذي من اجله طلبني ذلك الطبيب . انني لا اعرفه . كما  
انه ليس الطبيب المعالج ، وليس هو المشرف على القسم الذي اقيم به ..  
هل كذبت علي الحكيمة ؟ وهل سأجري العملية ؟ عشرات الاسئلة تجهد  
ذهني ولا اجد لها الجواب الحاسم .

واخيرا حضر امين زايد .. شاب طويل معقود الجبهة ، ضيق العينين ،  
في ملامحه برود ، يبدو وكأنه لا يتسم الا نادرا .  
وبادرني في صوت عال : انت فتحي خليل عبد الفتاح المعتقل الشيوعي ؟  
فاجبته : ايوه يا دكتور . واحسست قلقا للهجته الحادة دون ما داع .  
رمقني بنظرة لم استرح لها ، ثم اخذ اوراق علاجي ، ودون ان يتكلم  
كتب في صمت ويخط عريض « خروج من المستشفى » . وناولني اوراق  
العلاج ثم ادار ظهره لنا :

ماذا .. ؟ خروج ؟ اي طردي من المستشفى ، وافقت على الحقيقة  
المؤلمة .. ان تسليم المباحث العامة للامر الواقع ، كان شيئا مؤقتا ، الى ان  
وجدوا الطبيب الذي ينفلد لهم ما يريدون ..

خمس حروف كبيرة كتبها ذلك الطبيب تحمل الحكم علي بالعودة الى  
الصحراء دون اجراء العملية ، ولاعطائي الفرصة كاملة للمعى كي يطبق علي .  
لحقت به ، ماذا يا دكتور ؟ ان حالتي خطيرة ، اقرأ التقارير المرفقة ،  
انني مهدد بالمعى ، الدكتور عصام توفيق قرر اجراء عملية سريعة .  
كانت الكلمات تخرج من فمي في جمل قصيرة سريعة غير مربوطة ،

ونظر الي امين زايد هذا الطبيب الذي لا يشرف على علاجي ولم يكلف نفسه حتى مجرد الكشف علي ، ومع ذلك يكتب لي امرا بالخروج من المستشفى . نظر الي في برود غريب وقال : حالتك ميئوس منها .. ثم تركني ..

لقد وجدت المباحث العامة رجلا ينفذ لها مؤامرتها على بصري بعد ان كاد الدكتور عصام توفيق يحبط تدبيرهم ... وفي الساعة الثامنة والنصف مساء ، جاء الضابط ومعه الحارسان لينقلني الى السجن البعيد ، في الصحراء على بعد ثمنمائة كيلومتر من المكان الذي يمكن ان تعالج فيه عيني .. غادرت المستشفى والقيد الحديدي حول معصمي ، واضواء القاهرة تتراقص من خلال الدموع .. دموع الحكمة ودموع المرضات بل حتى الحراس كانت في عيونهم دموع .. وفي ظلام الليل تحرك بي القطار صوب الصحراء ..

من الجمعة ١١ مايو الى الخميس ٣١ مايو :

وصلت سجن الواحات الخارجة صبيحة الجمعة ، وكانت مفاجأة لكل الزملاء ، اذ لم يمض على ترحيلي الى المستشفى الجامعي سوى خمسة ايام ، وها انذا اعود اليهم بدون علاج .

الرفاق جميعا ناثرون .. وطبيب يأتي من مستشفى اسبوط مرة كل شهرين ، فاتقدم له ليكتب تقريرا عن حالتي ، فيثبت ان الضغط على العين مرتفع جدا ، وان عيني الاثنتين في خطر ، ويطلب ترحيلي فورا الى مستشفى النيل الجامعي للعلاج .

مر اسبوع ولم ارحل ، كان كل يوم يمر يجعل اجراء العملية امرا اكثر صعوبة ويزيد الحالة خطورة ، بصري يتدهور كل يوم احس ذلك وارقبه .

قابلت قائد السجن وقدمت له شكوى بحالة عيني ، وطلبت منه سرعة ترحيلي ومر اسبوع اخر ، واكد لي القائد كما اكد لزملائي ان المباحث مصرة على تجاهل كل هذا .. وان في نيتها تركي دون علاج لافقد بصري في الصحراء ..

محاولة خسيصة لمساومتي على عيني .. فهمت ان والدي ذهب الى المباحث العامة يشكو من اعادتي الى السجن دون اجراء العملية ، وقالوا له : ان ابنك يشرف على تحرير مجلة شيوعية في الواحات تهاجم الحكومة . هكذا اذن يعاقبونني ، ويحاولون ارهاب زملائي .. وافهامهم ان كل من يعارض الناصرية سيدفع حياته او بصره ثمنا لذلك .

في يوم ٢٩ مايو اضرب عدد من زملائي عن الطعام مطالبين بضرورة ترحيلي فورا ، وازاء هذا الموقف اتصل القائد بالمباحث العامة، واستحضروا طبيبا من بلده الخارجة كتب تقريرا يقول فيه بضرورة ترحيلي فورا للعلاج لانني مهدد بالعمى .

وفي الخميس ٣١ مايو غادرت سجن الواحات الخارجة مرحلا الى القاهرة ، غادرته وزملائي يخوضون معركة جديدة من اجل اسماعيل عبد الحكم الذي اصيب بانهيار مفاجيء في الكبد ، وحالته تتدهور ويدخل في نوبة اغماء طويلة ، والادارة ترفض نقله الى احدى المستشفيات .  
الاحد ٣ يونيو :

مرة اخرى دخلت القافلة مستشفى النيل الجامعي - خلال شهر واحد - ضابط شاب وحارسان وانا والقيد حول معصمي وتقرير يقول انني مهدد بالعمى .

لقد وصلت الى سجن القاهرة يوم الجمعة الماضي ، ولم ادر لماذا ذهبوا بي الى هناك بدلا من ان يتوجهوا مباشرة الى المستشفى كما حدث في المرة الاولى ؟ كما لم ادر لم لم انقل الى المستشفى في يوم السبت ؟ دخلت انا وحراسي استقبال قسم الرمد ، وفوجئت ان الطبيب المختص لاستقبال المرضى الجدد هذا اليوم هو نفسه .. امين زايد . الذي امر بطردني من المستشفى منذ عشرين يوما .

هذا هو السبب اذن في نقلي الى سجن القاهرة اولا .. كان لا بد من ترحيلي فورا من سجن الواحات حتى يتجنبوا تبعات الموقف هناك بعد اضراب زملائي من اجل ترحيلي ، ولكنهم لم يكونوا يريدون ان يسلموني مرة ثانية للدكتور عصام توفيق الذي كاد ان يحبط خطتهم في المرة الاولى ، فذهبوا الى السجن وانتظروا الى الاحد حتى يكون رجلهم ، امين زايد هو المسئول عن قسم الرمد في ذلك اليوم ..

استقبلني هذا الرجل بتجهم وهو يقول : « هو انت .. ايه اللي جابك تاني » ؟ ..

وقدم له الضابط تقرير اخصائي الرمد الذي زار السجن منذ عشرين يوما ، ورغم يقيني من حقيقة الدور الذي يقوم به امين زايد حاولت ان اشرح له حالي ، لعل فيه بقية من انسانية . لم يوقع الكشف علي ، ولكنه قال بلهجة خشنة آمرة لا يالفها المرء الا في رجل البوليس اللفظ « ما فيش فايدة في عينك ، لازم نستاصلها » واصابتني كلماته كالخنجر ... هل هناك

ضرورة حقا لاستئصال العين ؟ ان جميع الاطباء بما فيهم الدكتور عصام توفيق المدرس بكلية الطب لا يرون ضرورة لذلك ، بل قرروا اجراء عملية كشط فقط .

اذن لماذا يصرا امين زايد هذا على استئصال عيني ؟  
انها عملية انتقامية يقوم بها طبيب لحساب المباحث العامة .  
وهكذا يتلف كل شيء في بلادنا .. حتى ضمير الاطباء ..

حاولت ان اناقش هذا الطبيب لعله يتراجع عن غرضه الاثيم ولكنه اصرا على موقفه ، حاولت ان استنجد بطبيبة شابة حضرت كل الحديث ، وكان يبدو في عينيها الواسعتين عطفًا على حالتي، المسح في ثنايا وجهها اشمئزازًا من موقف امين زايد .. ولكنها لم تكن تملك شيئًا ، فهي مجرد نائبة ، وامين زايد في درجة اعلى وله الكلمة النهائية ، وله سطوة المتصل بأجهزة المباحث .

وكتب على اوراقى بالخط العريض « دخول لاستئصال العين » .  
الاثنين ٤ يونيو « مساء » .

الهدوء يلف العنبر كله ، عنبر (٢) رمد بمستشفى النيل الجامعي، حتى سامي الطفل الصغير انشقي والذي كان يملا العنبر بلعبه وصخبه نام مع الساعات الاولى من الليل وبعد ان ابلفته الحكمة انه ستجرى له العملية في اليوم التالي لاستئصال احدي عيني .

افترش احد الحارسين بطانية في الشرفة واخذ يقرأ في كتاب الاوراد الذي لا يفارقه ، اما الاخر وهو شاب لطيف لا تتفق قساماته مع الرداء العسكري الذي يلبسه قد غمز عينيهِ وذهب في اثر التلميذة ذات العينين الناعستين والتي كانت تسهر تلك الليلة .

ضفة النيل الساكن اراها من خلال النافذة ، والاضواء المنعكسة على صفحة الماء ، والحان كمان تنبعث من احد الزوارق التي انسابت على النيل، وضحكة خافتة لعلها من زوجة شابة او من خطيبة تصل الى اذني من الكازينو القريب .. ومن الشاطيء الاخر يأتي النسيم بانغام متقطعة لعلها من احدي العوامات ، تعلو حينًا فارهف لها اذني ، وتضيق حينًا مع النسمات .

وجدت نفسي ابحث عن المرأة ، واخذت انظر الى عيني ، عيني التي يريد امين زايد ان يستأصلها .. ان يحرمني منها .

وتخيلته بقامته المديدة وملامحه المكفهرة غير الانسانية وتلك الندوب الفائرة التي يمتلئ بها وجهه ، وفي يده مسمار طويل يريد ان يطعنني به

في عيني .. واسرعت بيدي الى عيني ، وكأنما لاحمها .. ومسحت دمعة كانت قد تجمعت فيها .. ما الذي بين هذا الرجل وبين عيني ؟. لماذا يعاديتها ؟ انني لم اقبله من قبل ، ولم اوجه اليه اساءة ، فلم كل هذه الكراهية السوداء التي تطل من عينيه وهو ينظر الي .. .  
وعاد شبحة من جديد يتراقص امام عيني ، وفي يده المسمار .. .  
ووجدت نفسي اكرر في حزم : لا .. لن اسمح له بالاعتداء على عيني .. .  
احسست بعض الارتياح فاسندت رأسي الى الوراء ، والنيل من خلال النافذة امامي يحتضن الانوار المنعكسة على سطحه قرب الشاطئ ، والموسيقى الخافتة المتقطعة ، .. تملو احيانا فأرهف لها اذني .. وتدوب احيانا مع النسيمات الرقيقة .

الاربعاء ٦ يونيو :

مضى علي في المستشفى اربعة ايام . كل يوم تتكشف لي جريمة امين زايد . حتى الطبية المعالجة تنضم الى كل الاخصائيين الذين كرروا من قبل اجراء عملية كشط فقط . انها مثلهم لا ترى ضرورة للاستئصال .  
وازددت يقينا ان هناك جريمة تدبر لي لحرمانني من بصري حينما وقع في يدي كتاب « طريقي في العلم » لحدث مشاهير اخصائيي الرمذ السوفييت وهو الدكتور فلاديمير فيلاتوف ، وقرات ما كتبه عن الجلوكوما : يقول الدكتور فيلاتوف في الفصل الرابع من كتابه تحت عنوان « الجلوكوما وعلاجها » :

« واذا لم يكن المريض موضوعا تحت الملاحظة الدائمة ، ولا يتم فحصه طبقا للأساليب السالف ذكرها ، فان البيانات للتدخل الجراحي ، لا يحصل عليها الا في وقت متأخر جدا . ان مثل هذا الموقف من المريض غير المسموح به يكون مميتا ، حيث انه يؤدي الى التدهور المتصل في وظيفة الابصار يصل الى حد العمى الكامل » .

لقد تركت عشر شهور في الواحات ليس فقط محروما من الملاحظة والفحص ، بل تحت تأثير الشمس المحرقة والزوابع الرملية اثناء اعمال السخرة في الصحراء .. .

ويؤكد فيلاتوف في الفقرة التالية ان انعدام الاختبار الكافي لضغط العين الداخلي ووظيفة الابصار ، وانعدام العناية اللازمة قبل العملية يؤدي الى تأخر اجرائها . وان هذا عمل « يستحق اشد الادانة » .. .  
يقول في صفحتي ١٢٦ ، ١٢٧ :



« ان احد الاساليب الخاطئة في علاج الجلوكوما هو رفض اجراء العملية في الحالات المتقدمة حيث يكون مجال الابصار قد تناقص بدرجة كبيرة ، مما قد يؤخذ كعلامة ضد اجراء العمية . ان خطر فقد البصر بعد العملية في حالة التضائل الشديد في مجال الابصار ، هو خطر مبالغ فيه بلا شك . . ومن المحتمل ان تكون هناك تعقيدات تعقب اجراء العملية في الحالات التي تكون فيها الجلوكوما متقدمة جدا ، وتكون تغييرات جوهرية قد حدثت في الاجهزة العصبية والدموية للعين . . ان هذا على اية حال لا يجب ان يكون سببا لرفض اجراء العملية ، خاصة في حالة ما اذا كانت هناك عين واحدة تقوم بوظيفتها ، بل على العكس يجب ان يقودنا الى اجراء العملية بدقة اكثر . . . »

ويستطرد اخصائي الرمد السوفيتي يقول « ان الخبرة القيمة التي تجمعت لدى مدرستي عن العلاج بواسطة العملية الجراحية في حالات الجلوكوما التي طال عليها الزمن كثيرا ، تؤكد ضرورة التدخل الجراحي العاجل حتى في الحالات التي يكون مجال الابصار فيها محدودا للغاية . »

اوليست هذه السطور اذاعة كاملة لامين زايد ؟ اولا تثبت كيف تمتد ايدي المباحث الى اكبر معاهدنا العلاجية فتحول الاطباء الى متأمرين ؟

ان الطبيب الروسي يرفض الاستئصال رفضا باما ، وحتى في حالة استمرار الجلوكوما بعد العملية ، فانه يصر على الاحتفاظ بالعين مع فتح ثقب جانبي فيها اذا ما كان ذلك يريحها ويعيد الضغط الى حالته الطبيعية لمدة طويلة ، وامين زايد يصر على استئصال عيني ، دون ان يراها ، دون ان يفحصها ، دون ان يجري عملية الكشط .

وحيثما دخل العنبر كان دخوله كفيلا باثارة جو من الكتابة بدا واضحا على وجوه المرضى والتلميذات والحكيمة .

اقترب من سريري وقال في نبرته المتجرفة : « انت حتمل العملية بكرة . . وعلى الدم في عروقي غيظا وحقدا على ذلك السفاح ققلت له في لهجة حاولت ان تظل هادئة . يا دكتور دا موش ضرس ،دي عين ، والدكتور عصام زميلك قرر اجراء عملية كشط ، فحولني له لو سمحت . »

لم يدمني اكل كلماتي ، بل انطلق يفرز من فمه قيحا من دمل المراهية التي اصيب بها قلبه : « انا عارفكم ،كلكم فلياوية ، ما فيش غير استئصال العين . . عاجبك » قلت : « لن اسمح لك بحرمانني من عيني طالما غيرك من الاطباء قرر ان هناك املا في اتقاذها » فامسك باوراقني في عصبية وكتب

للمرة الثانية بالخط العريض « خروج من المستشفى » ...  
عدت مرة اخرى الى سجن الصحراء دون علاج ، كل يوم يمر يسارع  
بي نحو العمى ، ان عيني اليمنى هي الاخرى يصيبها التهيج بتأثير العين  
المريضة ، والشمس الحارقة المستعبدة ، والرياح المحملة بالرمال تسارع في  
تنفيذ المؤامرة .. مؤامرة المباحث العامة ومخلبها امين زايد ..

٢٠ سبتمبر

بعد ما يزيد على ثلاثة شهور على عودة الصحفي الشاب الى الواحات  
للمرة الثانية دون علاج استطعنا باساليب الضغط المختلفة ان نجبر الادارة  
على ترحيله مرة ثالثة ..

لقد حاولت المباحث العامة ان تحصل منه على تعهد بالموافقة على  
استئصال عينه ، كشرط لترحيله وابلغته ادارة السجن بذلك ، ولكنه رفض  
.. واخيرا اخذوه الى القاهرة ..

ان لدينا ما يدعوننا الي الشك انهم قد احتجزوا الصحفي الشاب في  
سجن القاهرة ولم يذهبوا به الى المستشفى ، ولذلك وجهنا مذكرة بتوقيعنا  
جميعا مسجونين ومعتقلين ، فيما عدا المجموعة المنقسمة التي رفضت  
قيامتها التوقيع على المذكرة ، وارسلناها اني مدير المباحث العامة نطلب فيها  
ان يرسل الصحفي الشاب خطابا بخط يده يفيد انه في المستشفى وانه  
يتلقى العلاج المناسب ، والا فسنأخذ كل ما من شأنه الدفاع عن بصر  
رفيقنا ... (١)

---

(١) حدث ما توقعناه بالفعل . اذ كان الصحفي المرفى محتجزا في سجن القاهرة حيث  
ساموه على كتابة استنكار للشيوعية مقابل علاج عينه ، وهروبا من وطأة الموقف فانه  
حاول الانتحار .

## الفصل الخامس

### من اجل الكلمة

الاعلام الحمراء مصنوعة من ورق الكريشه تغطي جدران الطرقات والزنازين في العنابر .. صور تمبيرية عن الصين معلقة في كل مكان، بعض الرفاق صنعوا من قماش استحضروه خصيصا ملابس صينية وارادوها في ذلك اليوم . كانت « جاكته سان يان سان » واقبعة الصينية عريضة الحوافي احد الملامح الرئيسية للاحتفال بالذكرى الثالثة عشرة لانتصار ثورة الشعب الصيني العظيم .. اللافتات كتبت بالحروف العربية والصينية « عاش شعب الصين .. عاش الحزب الشيوعي الصيني .. عاشت الصداقة العربية الصينية » .

لقد بتنا نستعد للاحتفال باول اكتوبر ١٩٦٢ ، وانطلقت الحناجر ليلا تردد اغنية لشعب الصين .

الزهر اللي ملا البساتين

للشغيلة وللكادحين

الشاعر : طب والشمس دي طالعة لمن

المجنومة : طالعة تحيي شعب الصين

طالعة تحيي شعب الصين .

وفي الصباح الباكر فتحت الزنازين ، وانطلقنا نعد للاحتفال وللمباريات الرياضية .. ولكن ...

ساد الوجوم فجأة .. وتوقفت الحركة .. واخذ الكل ينظر في صمت ..

فمن دورة المياه التي تقع في اخر الطرفة خرج اربعة رفاق يحملون فيما بينهم رفيفا سقط مغشيا عليه وهو يغسل وجهه . سار الموكب الحزين الى زنزانة رقم (١٨) والعيون جميعا شاخصة ، والقلوب واجفة ، وجاء طبيبان من بين المعتقلين بسرعة .

لم تكن المسألة مجرد اغماء ناتج عن ارهاق او ما شابه ذلك بل نوبة قلبية حادة وفجائية اصابت زميلنا الرسام داود عزيز الذي قضى ثماني سنوات في السجن اعيد بعدها الى الواحات معتقلا في اكتوبر من عام ١٩٦١ .

حينما فاجاته النوبة القلبية سقط على الارض وانخفض ضغطه الى ٨٠ وصار النبض سريعا جدا ما بين ١٨٠ ، ٢٠٠ في الدقيقة ثم تعذر قياس النبض وصاحب ذلك ازمة نفسية شديدة واحساس بضيق شديد في الصدر . وكرر المريض شعوره بالموت ، مع تنميل في الاطراف بدا يفزو الجسم كله .

وبعد نصف ساعة زادت الحالة سوءا وفقد المريض القدرة على التعرف على من حوله ، كما فقد القدرة على النطق ، ولم يعد في الامكان قياس النبض او الضغط ، واوشك المريض على الوفاة ، واستمرت الحالة هكذا مدة ساعتين او اكثر ، والاطباء المعتقلون يبذلون جهدا لانقاذ حياته ، وجمع كل ما لدى المعتقلين من ادوية قد تفيد في تلك الحالة لعدم وجود صيدلية في السجن ، واعطوا المريض خلال تلك الفترة كميات هائلة وغير عادية من الالهوية :

عشرين انبولا من الكورامين ١ سم ٣ منها ١٥ انبولا في الوريد .

خمسة انبولات فيريتول

عشرة انبولات جلوكوز ٢٥٪ ٢٥ سم ٣

عشرة انبولات جولوكوز ٢٥٪ ٢٥ سم ٣

الف مليجرام فيتامين ب المركب

وغير ذلك من الادوية .

وفي ببطء شديد بدأت حالة المريض تتحسن فارتفع الضغط الى ٩٠ ثم الى ٦٠/١١٠ وظل النبض سريعا ، ١٢٠ في الدقيقة مع ارتفاع في درجة الحرارة ما بين ٣٨ ، ٣٩ .

تأجل الاحتفال بالعيد الثالث عشر لانتصار ثورة أكتوبر ، وتركزت الجهود في العناية بالمريض وفي الضغط على الإدارة من أجل استدعاء طبيب حكومي ، فجاء بعد وقت طويل ورفض تسجيل حالة المريض فسي سجلات السجن الرسمية .

في المساء ما زال النبض سريعا ودرجة الحرارة مرتفعة ونقل المريض الى منبر (١) لينام هناك على واحد من بضعة اسرة بالية وضعت في زنزانة ليسترخ عليها المرضى وانتقل الاطباء المعتقلون ليعتنوا به هناك طوال الليل .

الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل تنطلق صيحة استغاثة من زنزانة رقم (١٦) فاحد زملائنا وهو عبدالله كامل قد اصيب بهبوط مفاجيء في القلب .

وفي اضطراب وارتيك يجري البحث عن بقية من كورامين وجولوكوز ويسهر الى جوار المريض الجديد طبيب صيدلي .

ان المريض الجديد هو واحد من الحالات الكثيرة المكدسة دون علاج طوال هذه السنين الاربعة ، فهو مصاب بشيء ما في معدته لا يدري احد ان كان قرحة او مرضا خبيثا . ان اقل طعام يتناوله كفيل بان يطرحه ارضا يتلوى ، وكلما جاء طبيب الى السجن ، وعرض عليه نظر اليه في صمت ثم كتب بجوار اسمه في السجلات : « صحته جيدة » .

صباح اليوم التالي ، ٢ اكتوبر ١٩٦٢ :

حالة الفنان داود عزيز في تحسين نسبي ، وما زال النبض سريعا ، ودرجة الحرارة مرتفعة . احتفال اول اكتوبر يبدأ . . المسئول السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري يقف تحت صورة ماو ملقيا كلمة باسم اللجنة المركزية يوجه فيها التحية الى شعب الصين العظيم ، والسى الحزب الشيوعي الصيني ويمدد الخبرات المكتسبة من كفاح هذا الحزب الشقيق ومعاركه الفذة سواء في مرحلة التحرير او في مرحلة بناء الصين الديمقراطية .

وشاعرنا يغني اغنية شعينا لشعب الصين .

شعب كبير قوي خالص قام

كل دقيقة تمر صدام

ويخطي خطوة لقدام

بيدر في الارض الاحلام  
يسقيها حكمة واقدام  
ويسابق جري الايام  
ويشيل دقايقها سنين  
المجموعة : والزهر اللي ملا البساتين  
للشفيلة وللكادحين .  
الشاعر : طب والشمس دي طالعة لمن  
المجموعة : طالعة تحيي شعب الصين  
طالعة تحيي شعب الصين .

ومن المنفى البعيد ، خلف الاسوار يقدم ابناء شعبنا باقات من فنههم الشعبي ، رقصات شعبية من الاسكندرية وريف الدلتا والصعيد ، اغان شعبية من الدلتا ومن الصعيد ومن الاحياء الشعبية في القاهرة والاسكندرية ، كلها قدمت تحية لشعب الصين في ذلك اليوم .

لقد كان الحفل كله مظهرا نضاليا عظيما ، ان لم يكن فقط مجرد اعلام عن وجود الحزب الشيوعي المصري واصراره على البقاء بل كان اعلانا عن اننا جزء لا يتجزأ من جيش البروليتاريا العالمي ، انتصاراتها انتصارات لنا ، ومنجزاتها منجزات لنا ، نفني اغانيها وننشدا اناشيدها .

اننا طليعة شعب عملاق ، وكم هو ضئيل ذلك العدو الذي يواجهه شعبنا ويواجهنا .. وهذا الذي يتصور انه قادر على القضاء على الشيوعية في مصر ، عليه ان يحاول القضاء على هذا الشعب - ان استطاع - اولاً :

نحن كتيبة في جيش السلام العالمي .. نحن فصيلة في فرقة الصدام الاولى في معركة التقدم والتحرر ، ولئن كانت فصيلتنا قد هزمت في احدي الجولات ، فبقية الفرقة تزحف وتتقدم وزحفها هو زحفنا وتقدمها هو تقدمنا .. وكم هو قزم ذلك الذي يحاول ان يقف في وجه التقدم انه يقف في وجه التاريخ ، ولقد سقط كل الدين وقفوا في وجه التاريخ .

وكم معبرة هي تلك الاسطورة الصينية ، وكم نحفظها او نعي دلالاتها : ذلك الذي اراد ان يطفىء الشمس فلما صعد اليها احترق بها ، ولن يكون مصير الدين يحاولون ان يطفئوا شملة التقدم والديمقراطية الا كمصير ذلك الذي اراد ان يطفىء الشمس .

سيحتزقون بنا رنا .  
وفي هذا اليوم تجددت الدعوة للمقاومة تحت شعار  
« معركتنا مستمرة ضد التصفية : والنصر لنا . »  
ويعلو صوت الشاعر :  
قوم واتكلم  
والارهاب للشعب معلم  
فيه بتتعلم . . الاستبسال  
واوعى تسلم  
عمر النفس الحرة ما تفرع من الاهوال  
عمر الحر ما يخشى مشانق  
عائشه تعلق روس في حبال  
عمر الدم ما يصبح مبه  
عمر الحق ما يبقى ضلال  
عمر ايدين الفجر ما تحضن غير ابطال  
واللسي مفكر  
انه حيقدر  
يخفي شعاع الشمس بكفه  
بيفكرني بقصة قديمة كثير تنقال  
مرة نمامة  
حبت تهرب من صيادها  
دفنت رأسها في وسط رمال  
واللي في بالها  
انه ما عادش خلاص حيطولها  
لما رمتها سهام ونبال  
سقطت فوق الارض قتيلة  
كانت زيه تمام بتفكر  
كانت عائشه في دنيا وعالم  
كله خيال

ممركتنا مستمرة ، والطفيان يتهاوى ، وقد تلقى ضربته الاولى على ايدي الشعب السوري الذي انتصر على الاحماض التي اذيت فيها جثة الشهيد فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني ، وحطم الافران الكهربائية التي كان النظام قد استوردها من المانيا الغربية ليتخلص بها من جثث ضحاياه .

والشاعر يعني : قوم واتكلم  
سيف الظلم سلاحه متلم  
طيف الظلم طريقة مظلّم (١)  
والارهاب مهزوم ببسلم  
واوعى تفكر  
انه حايقدر  
يوم يخنقنا  
لا الاحماض حاتدوب فكره  
ولا افران حاتاخر بكره  
والارهاب بالموت يخلقنا .

ممركتنا مستمرة ، ولئن كنا نتعذب اليوم لاننا ضمير شعبنا ، كما عذب « سيزيف » في الاسطورة لانه حمل نار المعرفة للبشر ، فهذه النار ستحرق الحاقدين عليها .

ويغني الشاعر :  
دم « الحلو » (٢) أيدين مرفوعة  
شايلة النار على كف قوية  
واخذه السر لناس ممنوعة  
تعرف سر الناس ايه هي  
جم اخدوها  
زي ما خطفوا الناس خطفوها .  
زي ما دبخوا الناس دبخواها  
:

(١) مظلّم بالدارجة المصرية تعني مظلّم .

(٢) الحلو هو الرفيق فرج الله الحلو سكرتير عام الحزب الشيوعي اللبناني .



يدعوني للتأمل في الحياة

بصوا لقوها سهام مرفوعة  
ثورة في ايد الناس مزروعة  
من اسرار الناس مسقية  
نار على قد ما تضني .. بتبني  
نار على قد ما تطلع .. تزرع .

ممركتنا مستمرة ، ضد التصفية ، وضد ادواتها ، وضد ظلال النظام  
داخل المعتقل الذين يقفون في تبجح يدافعون عن عدوان الناصرية على  
شعبنا .

لقد قرر الاطباء ان الفنان داود عزيز معرض للاصابة مرة اخرى بنفس  
النوبة القلبية وانها في المرة الثانية ستكون اقسى من سابقتها ، وسيكون  
من الصعب اتقاذه في السجن ، بل سيكون ذلك مستحيلا ، وقرروا ان  
فرسته الوحيدة في الحياة هي في حياة هادئة وراحة كاملة وعناية طبية  
دائمة وهو ما لا يتوفر في السجن ، ولذلك رفع المعتقلون والمسجونون في  
سجن الواحات الخارجية مذكرة بهذا المعنى لرئيس الجمهورية مطالبين  
بالافراج عن داود عزيز ، ولكن قيادة المجموعة المنقسمة رفضت التوقيع  
على تلك المذكرة ، ورد مزدوجا مفسرا اسباب الرفض قائلا : « اننا لا نطمئن  
الى طبيعة الافكار السياسية التي يحملها داود عزيز اذا ما افرج عنه » .

انهم يطلبون منه ان يتخلى عن فكره السياسي ويلقي به عند اقدام  
السلطة ، وان يسلم لها حتى يشاركوا في المطالبة له بالافراج الصحي . ان  
المصليحي كبير رجال مكافحة الشيوعية يضع المعتقلين امام الاختيار بين  
الحياة والعقيدة ، ولكنه يعفي اولئك الذين يفرج عنهم صحيا وهم على  
عتبة الموت من هذا الاختيار ، انه يترك لهم عقيدتهم لانه قد سلبهم  
الحياة . ولكن قيادة هذه الجماعة اكثر عداء للعقيدة من المصليحي نفسه ،  
انهم يطالبون بالعقيدة والحياة معا . انهم يسارعون في ذلك اليوم بارسال  
برقية تأييد لعبد الناصر حتى يؤكدوا له بشكل عملي انهم ليسوا طرفا في  
تلك المعركة التي يخوضها المعارضون لعبد الناصر من اجل اتقاذ حياة  
واحد من المعتقلين .

ويرميهم الشاعر بكلماته النارية .

دنا لو ادفع  
كل حياتي  
لاجل تعيش الكلمة الحرة  
دايما حرة  
زي الشمس الحلوة ما تسطع  
ولا انسي اركع  
وافضل اطاطي .. اطاطي .. اطاطي  
لما اتمرغ في المستنقع  
حد يقيد للظلم شموعه  
حد يحرق بيده ربيعه  
حد يحفر قبره بايده  
حد يياخذ دم شهيده  
يعمل منه رايات للقاتل . (1)

معركتنا مستمرة ، ولنا فيها وحدنا ، واصوات شهدائنا هي معزوفتنا  
التي نسير عليها الى النصر ، واسماء شهدائنا هي الرايات التي نقاتل على  
شرفها .

ويفني الشاعر :

صوت شعبان يصحى شروقنا  
صوت عثمان اعلام من فوقنا  
صوت مفتاح (٢) مفتاح لطريقنا .  
معركتنا مستمرة

وياتي اول نوفمبر : ذكرى ثورة الجزائر

---

(1) اشارة الى الشهيد شهدي طيه الذي قتل في الاوردي وحينما مثل زملاؤه امام  
النيابة ، جعلوا همهم ان يسجلوا في محضر التحقيق تايدهم الكامل لمبد الناصر وتبرنته  
صن دم شهدي .

(2) الشهيد عبدالقادر مفتاح مدرس في بني سويف ، رحل الى اليفيوم حيث وضع  
امام الاختيار ، فكان رده الهراب عن الطعام هو ورفاقه احتجاجا على وضعهم هناك ، حاول  
رجال المباحث تفديته فسرا عنه اثناء الهرابه فمات اثناء مقاومته لمحاولاتهم .

ويأتي ٥ نوفمبر : ذكرى الانذار السوفيتي للمعتدين في بور سعيد  
ويأتي ٧ نوفمبر : ذكرى ثورة اكتوبر العظمى

ايام كلها اعياد تؤكد فيها باحتفالاتنا السياسية اننا باقون على طريقنا،  
ثابتون على مبادئنا . ويرتفع الموال الريفي مرسلا التحية لشوار اكتوبر  
لاصدقائنا بناة اول دولة للعمال والفلاحين .

حمامة .. جميلة

بتزرع بساتين

تهني .. تفني

في عيد ثورة لينين

ممركتنا مستمرة .. وزميلنا فتحي خليل عبد الفتاح الصحفي الشاب  
يسرب الينا في الثامن عشر من نوفمبر رسالة : لقد مضى على ترجيله من  
سجن الواحات شهران ، قضاها في سجن القاهرة .. ذهبوا به الى  
المستشفى الجامعي ليستقبله نفس الطبيب المتواطء مع المباحث العامة .  
وليكتب مرة اخرى امرا باعادته الى السجن ، ومن يومها وهو ملقى في  
سجن القاهرة حيث لا علاج ولا رعاية ، والزنازة الرطبة المظلمة تمتص  
نور عينيه كل لحظة وكل دقيقة .. ويضطر الى الاضراب عن الطعام .. الى  
ان يشترى علاج لعينه بعشرة ايام بلا طعام ..

لقد فاحت رائحة المؤامرة على بصر فتحي عبدالفتاح وعرف شعبنا  
كله قصته ، وعرض نقيب الصحفيين على الحكومة ان تتولى النقابة علاجه  
على نفقتها ، ونصح البعض الحكومة وهي تستجدي عطف الجماهير لانحادها  
الاشتراكي الذي تزعم انشاءه بان تتراجع .

وفي نفس الوقت كان رفاق خمسة في سجن الواحات قد اضربوا  
عن الطعام ، تأييدا لفتي عبد الفتاح ، وتأييدا لزميلاتنا الخمس عشرة اللاتي  
مضى على اعتقالهن الان اربع سنوات فاضربن عن الطعام احتجاجا على  
استمرار اعتقالهن ، ولكن يعلن للرأي العام العالمي ان النظام الذي ملا  
الدنيا ضجيجا لانه اختار سيده لنصب الوزارة يبقى خلف الاسوار خمس  
عشرة منافسة نسائية قامت على اكتافهن الحركة النسائية الحديثة في  
مصر .

بينهن : انجي افلاطون عضو المجلس القومي للسلام .

وبينهن : فاطمة زكي وثريا ابراهيم . ثريا حبش . نوال الحملاوي ،  
ساد بطرس قائدات حركة المقاومة الشعبية النسائية ايام العدوان .

وبينهن : الصحفية اميمة ابو النصر التي حملت السلاح في المواقع  
الامامية في القنال طوال فترة العدوان وكان قلمها دائما في خدمة قضايا  
السلم والنضال الوطني على صفحات المساء : وبينهن : شاعرة الحركة  
النسائية المصرية زينات الصباغ ومعها طفلها طارق يعيش ايام طفولته  
الاولى مع امه في زنزانة مغلقة في سجن القناطر .

ممركتنا مستمرة : ومع عبد الناصر في ٢٣ ديسمبر يأتينا من زميلنا  
الصحفي فتحي عبد الفتاح ما يفيد انه قد انتصر في معركة « بصرك او  
عقيدتك » وانه بعد عام من نضاله ونضالنا من اجل عينيه قد اجرهم  
باضرابه عن الطعام على نقله الى المستشفى لاجراء العملية .

وكان نصرنا مع عيد النصر ، فلقد دفعنا الموت عن اسماعيل عبد الحكيم  
وداود عزيز واستطعنا ان نرد عن بصر فتحي عبد الفتاح المخالب التي كانت  
تمتد لتختطفه ، ولم تكن وحدنا يوم حققنا النصر على المعتدين ولم تكن  
وحدنا في المعركة ضد الموت والعمى .

كان معنا شعبنا العظيم الذي حمل شهداءنا بين ذراعيه حينما سقطوا  
دفاعا عن حريته ودستوره ، وحينما سقطوا على كوبري عباس وحينما  
سقطوا برصاص الانجليز في ميدان الاسماعيلية بالقاهرة وامام مبنى القيادة  
الانجليزية بالاسكندرية عام ١٩٤٦ ، وحينما سقطوا برصاص « ايرسكن »  
في التل الكبير والاسماعيلية عام ١٩٥٢ ، وحينما سقطوا في بور سعيد  
عام ١٩٥٦ .

كن معنا فلاحونا ، جيش الشهيد عناني ، جيش الثورة وقد شهدوا  
دفاعنا المستميت عنهم ، امام محكمة المنصورة ، وعلى صفحات كتبنا  
ونشراتنا .

معنا عمالنا الذين عشنا معهم نضالهم يوما بيوم وساعة بساعة .

معنا كل الديمقراطيين في بلدنا وهم يروننا نخوض في بطولة اعنى  
معركة ضد الاستبداد ، وضد دكتاتورية الحزب الواحد ، من اجل دستور  
ديمقراطي وحياة نيابية .

معنا كل الشعوب العربية وقد خبرت مواقفنا الحازمة دفاعا عن

شعب الجزائر وشعب العراق وشعب الاردن وشعب سوريا دفاعا عن كل معارك التحرر العربي .

معنا كل الاحزاب الشيوعية في العالم ، وقرارها في مؤتمر موسكو ١٩٦٠ بان يضع كل حزب قضيتنا في جدول اعماله .

معنا بروليتاريا العالم التي لن تسكت على تلك السياسة العربية المتبعة ضد عمال مصر وضد طليعتها الشيوعية وقادتها النقابيين .

معنا كل قوى السلام في العالم التي خبرت نضالنا الحاسم ضد التجارب النووية وضد الاحلاف والقواعد العسكرية .

معنا كل انصار حقوق الانسان وقد شهدوا نضالنا العتيد دفاعا عن المناضلين الجزائريين .. عن جميلة بوحيرد وزميلاتها ، عن جوموكنياتا وعن جليزوس .

معنا ضمير الانسانية الجديدة ، معنا كل انصار الكلمة ، مع كل المدافعين عن الفكرة معنا كل الاقلام التي تؤمن بالانسان ..

ويأتي العام الجديد : عام ١٩٦٣ .. وفي جوف الصحراء تنبض القلوب ابتهاجا به ، وتلتهب تلك البقعة المهجورة القاحلة ، بالفرحة حينما تخترق القضبان بطاقات تهنئة بالعام الجديد ، قادمة من بعيد من جماعة العفو العام بكنيسة الثام بلندن :

لسنا وحدنا ومعنا كل هذه الارادات الشريفة ، فمن ارادتنا ومن ارادة كل شريف في العالم تتجمع خيوط فجرنا .. خيوط نارية من لهيب اصرارنا ، خيوط نورية من نبل قضيتنا .

ويغني شاعرنا في مطلع العام الجديد :

نار على قد ما تضني .. بتبني

نار على قد ما تطلع ... تزرع

وابقى شايها

فوق شفايفها

بسمة بتحضن قلبي بطيفها

بسمة بتجري في قلب المدفع

دايما تزرع

ارض الحر سلام ومحبة  
قوم والفجر خيوطه بتكبر  
تكبر ... تكبر

وبتجمع  
جوه عيون ايامنا الصعبة  
قوم وانا شايف الفجر بيطلع  
نوره بيملا طريق اعلامنا  
حبه .. بحيه ..

ممركتنا مستمرة ، ونداؤنا ، حارا نرفعه من جوف الصحراء الى كل  
شريف في العالم ان يقف الى جانبنا .

من اجل هزيمة الجوع والحرمان والمنفى  
من اجل هزيمة الموت المفروض علينا في الواحات  
من اجل سحق المحاولة لتمزيق النفس البشرية  
من اجل سحق سياسة « حياتك او عقيدتك »  
من اجل هزيمة محرقة الفكر والضمير .  
من اجل ان تسترد الانسانية حريتها وكرامتها  
بحرية الكلمة  
وكرامة الكلمة ..

.....

# الفهرس

٣	الاهداء
٥	مقدمة - قصة هذا الكتاب
٢٦	من كلمات عبدالمنعم شتلة
<b>الجزء الاول</b>	
٣٥	في ظلال الراية السوداء
	الفصل الاول
٣٦	الذين يخافون النور
	الفصل الثاني
٤٣	على الطريقة الامريكاني
	الفصل الثالث
٤٨	اكذوبة
	الفصل الرابع
٥١	أريد جثة ولدي
	الفصل الخامس
٥٤	الباستيل الجديد
	الفصل السادس
٦٩	الموتى يشهدون
	الفصل السابع
٨٦	من يحاكم من

## الجزء الثاني

٩٧	على حافة الموت
...	الفصل الأول
٩٨	القافلة الفامضة
	الفصل الثاني
١٠٥	استقبال
	الفصل الثالث
١١٢	دوار الرئيس
	الفصل الرابع
١١٩	لعنة الشيخ
	الفصل الخامس
١٢٤	« عناني » الشيوعي
	الفصل السادس
١٣٠	صبياد الرؤوس
	الفصل السابع
١٣٤	هدية عيد النصر
	الفصل الثامن
١٣٩	« ظل » رجل
	الفصل التاسع
١٤١	لن أهتف
	الفصل العاشر
١٥١	٨ يناير
	الفصل الحادي عشر
١٥٢	٢٩ يناير
	الجزء الثالث
١٥٧	خلف جدار الرمل



١٥٨	الفصل الاول الانسان في التجربة
١٦٦	الفصل الثاني الورقة والقلم
١٧٠	الفصل الثالث المسوز القاتل
١٧٢	الفصل الرابع جريمة الفكر

### الجزء الرابع

١٧٧	عاصفة على الاوردي
١٧٨	الفصل الاول القاتل يهرب
١٨٧	الفصل الثاني للاوردي نظرية
١٩٨	الفصل الثالث خرجنا من القصب

### الجزء الخامس

٢٠٧	وجها لوجه
٢٠٨	الفصل الاول اكلية الضمير
٢١٦	الفصل الثاني بصقة في وجه اللئب
٢٢٧	الفصل الثالث الانسان ارادة

## الجزء السادس

- ٢٢٧ الكلمة المسمومة  
الفصل الاول  
٢٢٨ للمرتد وظيفه

## الجزء السابع

- ٢٤٩ حياتك او عقيدتك  
الفصل الاول  
٢٥٠ في وادي الموت  
الفصل الثاني  
٢٥٣ خيط من الماضي  
الفصل الثالث  
٢٥٨ اردنا له الحياة  
الفصل الرابع  
٢٦٣ بصرك او عقيدتك  
الفصل الخامس  
٢٧٣ من اجل الكلمة



## هَذَا الْكِتَابُ

الجانب الاكبر من هذا الكتاب كتب في مرحلة الارهاب والمعتقلات .. كانت هناك مجموعة من الرفاق الشباب يتلقفون كل فصل تتم كتابته في المعتقلات ليتولوا اعادة كتابته على ورق لف السجائر بخط دقيق للغاية .. وحينما سطرت اخر كلمات في الكتاب تولت مجموعة اخرى نسخه واعاداه وتولى احد الرفاق الفنانين رسم الغلاف له . ووضع للتداول بين الرفاق كجزء من عملية التعبئة والتحسين ضد محاولات التصفية السياسية .. ثم هربت هذه النسخة الى الخارج وبقيت مدفونة في مخبأ امين حتى تم الافراج عن الشيوعيين المصريين في مايو ( ايار ) ١٩٦٤ .

هذه النسخة الخطية محفوظة الان بعناية كوثيقة تاريخية وهي التي تم على اساسها طبع هذا الكتاب .. ثم انتظر الكتاب عشر سنوات اخرى حتى ينشر !

ولقد امكن للمخطوط الاصيلي ان يخرج من مصر منذ ثلاث سنوات .. وانتظر الكاتب فترة اخرى رغم الحاح الكثيرين بنشره .. فقد كان يشتم في مصر رائحة حملة تعد ضد عبد الناصر تبريرا لعملية ارتداد واسعة عن كل ما انجز في فترة حكمه .. ولم يكن يريد لهذا الكتاب ان يستخدم وقودا لتلك الحملة المفرضة ..

وفي مطلع عام ١٩٧٤ بلغت الحملة ضد عبد الناصر وعهده اولى قممها .. وكان بين القضايا التي تناولتها تلك الحملة عمليات التعذيب التي مورست في السجون والمعتقلات .. وبدأ بعض الكتاب اليمينيين ، والمعروفين بتاريخهم في التعاون مع اكثر الفئات تخلفا ورجعية في بلادنا ، بدأ هؤلاء الكتاب يسرقون تاريخ الشيوعيين ، وينصبون انفسهم مؤرخين لما اصاب الشيوعيين من اضطهاد وتكيل ..

كذلك فان بعض الكتاب الوطنيين قد بدأوا يتناولون ما اصاب الشيوعيين في تلك الفترة دون ان يكون لديهم المام كامل بحقيقة ما حدث سوى بعض ما سمعوه .

وعند هذه النقطة كان القرار باته لا بد من ان يصدر هذا الكتاب !